الباب الأول

أنا واللغة

الفصل الأول

لغويون تحت الضوء

أبو العلاء المعري والنحو*

شغل المعري الباحثين طويلاً وما زال يشغلهم، ولقي من عنايتهم -قديمًا وحديثًا- ما لم يلقه من العلماء أو الشعراء إلا القليلون؛ كل يحاول أن يجلو ناحية من نواحي شخصيته، أو يكشف عن جانب من جوانب نبوغه وعبقريته؛ حتى بلغ ما أُلّف فيه المئات من الكتب. ومع ذلك ظلت هناك جوانب عديدة من شخصيته لم يوفها الباحثون حقها من العناية، ولم يقفوا عندها لتمحيصها،ومنها جهوده النحوية. وإنه وإن كانت مؤلفات المعري الخالصة في النحو قد ضاعت فيما ضاع من تراثنا القديم فقد تكفلت كتبه الأدبية التي وصلتنا بحفظ آرائه، والكشف عن شخصيته، ومنها: رسالة الملائكة، ورسالة الغفران، وشرح ديوان الحماسة، ومعجز أحمد، وعبث الوليد، والفصول والغايات.

وكل الذين كتبوا عن نحو أبي العلاء-حتى الآن(١)- ثلاثة هم الأستاذ إبراهيم مصطفى في بحثه"أبو العلاء المعري وعلم النحو"، الذي ألقاه في المهرجان الألفي لأبي العلاء، والدكتورة بنت الشاطئ في بحثها "الغفران"،والدكتور أمجد الطرابلسي في كتابه "النقد واللغة في رسالة الغفران"، ولكنهم جميعًا اعتمدوا اعتمادًا كليًا على " رسالة الغفران" وحدها، مع أن باقي مؤلفات المعري لا تقل أهمية عن هذه الرسالة في الكشف عن مذهبه النحوي، ولا سيما"رسالة الملائكة" و"عبث الوليد"، فقد حشدا بالأبحاث النحوية والصرفية مما لا نجد له نظيرًا في "رسالة الغفران". ولذا كانت أبحاثهم ناقصة، وأحكامهم خاطئة في كثير من الأحيان، كما سنتعرض له في صلب البحث.

ويبدو أن أبا العلاء قد أظهر ميلاً نحو الدراسات اللغوية بعامة والنحوية بخاصة منذ نعومة أظفاره.فقد بكر إلى درس النحو صبيًا فدرس"مختصر محمد بن سعدان الضرير الكوفي النحوي، وكتاب الجمل للزجاجي وكتاب الكافي لأبي جعفر النحاس المصري"(٢).

---

*نشر بمجلة كلية المعلمين – الجامعة الليبية١٩٧٢.

(١)كان ذلك حين نشر البحث عام ١٩٧٢.

(٢)إبراهيم مصطفى: أبو العلاء المعري وعلم النحو ص ٣٦٣، ٣٦٤.

ثم ارتحل إلى حلب فقرأ على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي راوية أبى الطيب المتنبي، وعلى بعض من أصحاب ابن خالويه وابن جني، [١] وكان لهما إذ ذاك "آثار مدرسة نحوية عظيمة لها أسلوبها في البحث المتميز بعنايتها بالقرآن الكريم، وجمع رواياته المختلفة ، وتوجيه ما سمي منه شاذًا"[٢] . وقد تأثر أبو العلاء بأسلوب هذه المدرسة -وإن لم يلتق أحدًا من أئمتها- كما سنرى بعد عند الكلام على رأيه في القراءات. وبعد حلب سافر إلى بغداد للقاء فحول العلم والأدب وللاستفادة من دار الكتب التي كانت موجودة بها.

يقول أبو العلاء في إحدى رسائله: " والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها" ويقول في رسالة أخرى: "وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب.. ولكني آثرت الإقامة بدار العلم"[٣].

وفي بغداد التقى بعلي بن عيسى الربعي الذي كانت رياسة النحو آنئذ قد انتهت إليه، والتقى كذلك بأبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري [٤]

ولم يكتف أبو العلاء بأخذ النحو عن الشيوخ فكان يطلبه كذلك من الكتب.

ومن أشهر ما قرأه في هذا الميدان كتاب سيبويه وشرح السيرافي عليه، وكثيرًا ما يشير إليهما في كتبه [٥] .

---

(١)تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠، ٥١٥ .

(٢)إبراهيم مصطفى ص ٣٦٤، ٣٦٥ .

(٣)رسائل أبي العلاء ص٢٨، ٣٤.

(٤)تعريف القدماء بأبي العلاء ص٥١٦، ولكن ياقوتا في معجم الأدباء ١٢٣/٣ يذكر أن المعري حين دخل على الربعي قال له الأخير: ليصعد الاصطبل (أي الأعمى بلغة الشام) فخرج المعري مغضبا ولم يعد.

(٥)شرح الحماسة ورقة ٦٦ ورسالة الملائكة ص١٥ ورسالة الغفران ص٧٦، ١٠٠، ٢٨٣-٢٨٤ وغير ذلك.

وأمامنا رسالة من أبي العلاء بحلب إلى خاله ببغداد يطلب منه أن يستنسخ له كتاب سيبويه وشرح السيرافي عليه، ورسالة ثانية إلى أبي عمرو الاستراباذي في أمر شرح السيرافي[١] .

وقرأ كذلك كتب أبي على الفارسي" كالحجة" و "الإيضاح"، ونقل عنهما في كتبه[٢].

وقرأ كتب ابن جني، وقد ذكره مرارًا ونقل عنه في "معجز أحمد" و " شرح ديوان الحماسة"[٣] وقرأ أيضًا "المقتضب" للمبرد ونقل عنه في رسالة الملائكة [٤]

وبعد أن أحس أبو العلاء الثقة في نفسه جلس يقرئ التلاميذ كتب اللغة والنحو، وتسامع به التلاميذ فالتفوا من حوله، وكانوا يأتون إليه من مسافات بعيدة ليستفيدوا بعلمه وأدبه، وشجع هذا أبا العلاء فألّف في النحو كتبًا وشروحًا، وأطلق لسانه في النحاة نقدًا وتخطيئًا، وأخذ يبث آراءه النحوية حتى في ثنايا كتبه ورسائله الأدبية، بل كثيرًا ما كان يستوحي من النحو خياله وصوره سواء في شعره أو في نثره الفني [٥]

مؤلفاته النحوية

أكثر مؤلفات أبي العلاء تعليقات وشروح على بعض المصنفات النحوية التي قرأها في حداثته، أو أقرأها بعد أن جلس للتدريس.

---

(١)ص ٣٦-٣٩ من رسائله.

(٢)رسالة الغفران ص١٥٢، ١٥٣ورسالة الملائكة ص١٢.

(٣)معجز أحمد ورقات ١٤١، ١٥٥، ١٧٤وشرح ديوان الحماسة ورقات ١٠، ٦٣، ٨٧، ١١٨، ١٢٩ .

(٤)ص ١٦٠.

(٥)كقوله في إحدى رسائله:"وجعل الله رتبته التي كالفاعل والمبتدأ نظير الفعل في أنها لا تنخفض أبدا". وانظر الفصول والغايات ص ١٢٢ واللزوميات ص٨٧، ١٢٠ .

فمن الكتب التي كانت موضع عنايته كتاب" الجمل" للزجاجي، وقد ألف حوله كتبًا أربعة هي:

١ – تعليق الجليس.

٢ – إسعاف الصديق.

٣ –عون الجمل.

٤ – شرح شواهد الجمل [١].

ومن الكتب التي عنى بها كتاب الكافي لأبي جعفر النحاس المصري، وقد علق عليه أبو العلاء في تصنيف عنوانه :

٥ – قاضي الحق [٢].

٦ – وله كتاب يتصل بمختصر محمد بن سعدان اسمه المختصر الفتحي[٣]

٧ – وله كتاب في النحو يتصل بالكتاب المعروف بالعضدي ولقبه ظهير العضدي [٤].

٨ – وألف شرحًا لسيبويه ولكنه لم يتم منه سوى خمسين كراسة[٥] .

٩ – كما ألف تفسيرًا لأمثلة سيبويه وغريبها[٦] .

وله مؤلفان مستقلان في النحو هما:

١ – مختصر سماه " الحقير النافع" مقداره خمس كراريس.

٢ – "الظل الطاهري" وهو كتاب يتصل بالمختصر السابق [٧] .

---

(١)تعريف القدماء ص٤٦، ٣٣٤، ٥٤٠ وياقوت ١٥٧/٣، ١٥٨، ١٦٠ .

(٢)ياقوت ١٥٨/٣.

(٣) ياقوت ١٥٨/٣ .

(٤)ياقوت ١٦٠/٣ .

(٥)ياقوت ١٦٠/٣ . والكراسة في عرف الأقدمين عشرون صفحة .

(٦)تعريف القدماء ص ٥٤٠ .

(٧)ياقوت ١٥٨/٣ وتعريف القدماء ص ٤٧، ٥٣٨ .

وقد ضاعت كل هذه المؤلفات -مع الأسف- ولم يصلنا منها سوى أسمائها، ولعل الأيام تكشف لنا عن بعضها.

اتجاهاته النحوية

ليس من همنا أن نقدم في الصفحات التالية نحوًا لأبي العلاء، وإنما همنا أن نعرض الأسس التي بنى عليها أبو العلاء تفكيره النحوي.

وقد استخلصنا هذه الأسس بعد تتبعنا لآرائه النحوية والصرفية المتناثرة في كتبه الأدبية التي وصلتنا. وسيخرج القارئ بعد مصاحبتنا في هذه الجولة في نحو أبي العلاء أن أبا العلاء لم يكن ذا نزعة طائفية، ولا متعصبًا لمدرسة نحوية دون الأخرى، وإنما كان متحللاً من قيود الحزبية، ناظرًا إلى العلم نظرة خالصة، لا تشوبها عاطفة مذهبية، ولا تفسدها عصبية إقليمية.

ونتيجة لهذا جاء مذهبه في النحو مذهبًا خاصًا يقوم على الموازنة والبحث والتحليل، وعلى ترك المقدمات لتسلم إلى النتائج دون تدخل أو توجيه.

وأهم الاتجاهات التي أمكننا أن نستخلصها في نحو أبي العلاء ما يأتي:

١ – كراهيته للتكلف والتأويل.

٢ – توسعه في القياس.

٣ – احترامه للقراءات.

٤ – استشهاده بالحديث النبوي.

٥ – استبعاده من الضرورات الشعرية كل ما للشاعر مندوحة عنه.

وإليكم تفصيل ذلك:

كراهيته للتكلف والتأويل:

أولع النحاة من قديم بالتأويل والتقدير، وقلما تخلو صفحة في كتبهم من تأويلاتهم البعيدة، وتخريجاتهم العجيبة، مما أفسد النحو العربي، وملأه بمسائل ومشاكل لا نحتاج إليها في تصحيح نطقنا وتقويم لساننا.

ولم يكن هناك ما يغيظ المعري أكثر مما كان يقرؤه ويسمعه من تأولات النحاة وتكلفاتهم وتخريجهم بعض الأبيات على غير حقيقتها للاستشهاد بها على آرائهم الخاصة.

وكثير من نقده ينصب على هذا الجانب من نحو النحاة. وقد صوب المعري معظم سهامه إلى نحاة البصرة الذين أكثروا من التأويل والتقدير، وتعسفوا غاية التعسف في تخريج كثير من الشواهد لتستقيم مع أصول مذهبهم .

وقد امتلأت مؤلفات المعري بأمثلة لذلك ، ولكننا سنكتفي بعرض نماذج منها.

ولنبدأ بشيخ النحاة سيبويه لنرى ما أصابه من سهام أبي العلاء:

١ – يروي سيبويه في الكتاب بيت النابغة الجعدي:

فليس بمعروف لنا أن نردها صحاحا ولا مستنكرٌ أن تعقرا

ويجيز فيه مستنكرًا بالنصب ومستنكرٍ بالجر ويتكلم في توجيه ذلك.

ولكن المعري لا يستسيغ الجر لأنه يحوج إلى تأويل وتقدير نحن في غنى عنه، فيجري حوارًا في رسالة الغفران بين صديقه ابن القارح والنابغة الجعدي حول إعراب "مستنكر" ينتهي إلى إنكار رواية الجر.

يقول المعري: "يقول ابن القارح مخاطبًا نابغة بني جعدة... أتقول ولا مستنكرًا أم مستنكرٍ فيقول الجعدي بل مستنكرًا، فيقول الشيخ: فإن أنشد منشدٌ مستنكرٍ ما تصنع به ؟ فيقول : أزجره وأزبره نطق بأمر لا يخبره .

فيقول الشيخ: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أرى سيبويه إلا وهم في هذا البيت؛ لأن أبا ليلى أدرك جاهلية وإسلامًا، وغذي بالفصاحة غلامًا" [1].

ولكي نفهم سر إنكار المعرى للجر ينبغي أن نبسط الكلام في هذه المسألة حتى لا نخطئ الجادة كما أخطأ غيرنا فنقول: ينص سيبويه على أن الخبر المشتق لا بد من أن

---

(١) رسالة الغفران ص ١٠٠. وانظر الكتاب ٣٢/١ .

يتحمل ضمير مبتدئه، أو يكون رافعًا لمتصل بضمير المبتدأ، أو رافعًا لاسم ظاهر هو عين المبتدأ. وينص كذلك على أن ما عطف على الخبر حكمه حكم الخبر في ذلك[١].

فنحو "ليس بقائم أبو هند ولا قاعدة أمها" يمتنع فيه خفض "قاعدة" عطفًا على لفظ الخبر سواء جعلت" أمها" فاعلاً للوصف قبلها، أو معطوفًا على اسم ليس؛ أما الأول فلأن هذا المعطوف ليس متصلاً بضمير يربطه بالمحدث عنه، وهو اسم ليس؛ وأما الثاني فلما يلزم عليه من العطف على معمولي عاملين مختلفين، وهو غير جائز عند سيبويه والجمهور.

وقد جعل المعري قول النابغة من هذا القبيل، فمنع الخفض في المعطوف، سواء جعل المرفوع بعده فاعلاً به، أو معطوفًا على الاسم. أما سيبويه فأجاز فيه الخفض على تأويل يجعل الثاني من سببي الأول، بأن أعاد الضمير في "أن تعقرا" على اسم ليس، وهو "الرد" المضاف إلى ضمير الخيل المأخوذ من "أن نردها"، بعد أن نزل رد الخيل منزلة الخيل، فكأنه قال: ليست بمعروفة لنا الخيل. وأعاد الضمير مؤنثًا على اسم ليس لأنه اكتسب التأنيث من المضاف إليه. ثم راح سيبويه يستشهد على اكتساب المضاف المذكر التأنيث من المضاف إليه بشواهد من القرآن والشعر العربي[٢].

وقد بان من هذا أن حملة أبي العلاء في هذه القضية يصبها على سيبويه لتكلفه وإبعاده في التكلف، وليس كما قال الأستاذ إبراهيم مصطفى، وتبعته فيه الدكتورة بنت الشاطئ من أنه يرجع إلى بغضه للقياس، وضيقه به، واعتقاده أن "نحاة البصرة بقياسهم قد قوّلوا العرب ما لا يقولون، وأجروا على ألسنتهم غير ما يرضون" [٣]، فقد كان المعري قيّاسًا يتوسع في القياس، ويمضي به إلى أبعد حدوده كما سنرى فيما بعد.

٢ – ويذهب سيبويه في قول عدي بن زيد:

---

(١)تفصيل ذلك الكتاب ١/٣٠، ٣١ .

(٢)تفصيل ذلك : الكتاب ١/٣٢، ٣٣ وشرح السيرافي ١/٣٤٨، وانظر المقتضب للمبرد ص ٧٩٢-٧٩٤ .

(٣)المهرجان الألفي ص٣٦٧، ٣٦٨ والغفران ص٢٢٦ .

أرواح مودع أم بكـــور أنت فانظر لأي حال تصير

إلـى أن "أنت" يجوز أن ترفع على فعل مضمر يفسره ما بعده [١] ، فيقول المعري موجهًا الخطـاب لعدي: "وأنا أستبعد هذا المذهب ولا أظنك أردته" [٢] . ولم يذكر المعري ماذا يختاره في إعـراب "أنـت"، وإن كـنا نستنتج من طريقته في التناول أنه يختار رفعها محلاً على الابتداء وخبرها "فانظر" على زيادة الفاء .

ونحـب هـنا أن ننـبه إلى أن نقد المعري لرأي سيبويه في هاتين المسألتين لا يعني أن هـذا هو موقفه منه دائمًا، ولا يعبر عن رأيه العام فيه، وأننا إذا أردنا أن نعرف رأي المعري في سيبويه فعلينا أن نجمع إلى هاتين المسألتين غيرهما مما ورد في مؤلفات المعري، ثـم نبـني حكمنا بالنظر إليها جميعًا. نقول هذا لأن من الباحثين من تسرع فاستنتج من هذيـن الـنقدين رأي المعري في سيبويه فقال: "وأما تقديره لسيبويه رحمه الله فإنه لم يزل يـتعرض لـه بالـنقد والتخطـئة" [٣] ولـو كلف الباحث نفسه الاطلاع على سائر مؤلفات المعري لغير حكمه، ولبان له أن المعري يجلّ سيبويه ويقدره ويدافع عنه في أحيان كثيرة :

أ – فهو يؤيده في نصب الجماعة في قول راعي الإبل :

أيام قومي والجماعة كالذي لزم الرحالة أن تميل مميلا [٤]

ب – ويصفه بأرفع الصفات في رسالة الغفران[٥] .

جـ - ويثق في نقله، كقوله: "وهذا بناء مستنكر لم يذكر سيبويه له نظيرًا" [٦] .

---

(١)الكتاب ١/٧١ .

(٢)رسالة الغفران ص٧٦ . وانظر رأي المعري في منع سيبويه أن يلي كان معمول الخبر: عبث الوليد ص ٨٠ .

(٣)المهرجان الألفي: إبراهيم مصطفى ص ٣٦٧ .

(٤)رسالة الغفران ص ١٦٣، ١٦٤ .

(٥)ص ٣٦٤

(٦)رسالة الملائكة ص ٢٦، وانظر كذلك ص ٢٠٠ .

د – وينصره على المبرد مبينًا وجهة نظره في أن أصل " دم": دمْي [١] .

هـ -ويؤيد سيبويه في أصالة النون من "شيطان" وأن وزنه "فيعال"[٢]. وغير ذلك كثير.

٣ -وندع سيبويه لنرى ذلك المشهد اللطيف الذي أبدعه خيال أبي العلاء فنرى فيه أبا علي الفارسي وقد أحاط به الشعراء في الجنة وهم يلومونه أشد اللوم على تأويله أشعارهم على غير ما قالوه. قال أبو العلاء على لسان صديقه ابن القارح:" وكنت قد رأيت في المحشر شيخًا لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي علي الفارسي، وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون تأولت علينا وظلمتنا.. منهم يزيد بن الحكم الكلابي وهو يقول: ويحك أنشدت عني هذا البيت برفع الماء يعني قوله:

فليت كفافًا كان شـــرك كله وخيرك عني ما ارتوى الماءُ مرتوي

ولم أقل إلا "الماءَ". وكذلك زعمت أنني فتحت الميم في قولي :

تبدل خليلا بي كشكلك شكله فإن خليلاً صالحًا بك مقتوي

وإنما قلت "مُقتوى" بضم الميم... وإذا رجل آخر يقول: ادعيت عليَّ أن الهاء راجعة إلى الدرس في قولي :

هذا سراقة للقرآن يدرسه والمرء عند الرشا إن يلقها ذيب

أفمجنون أنا حتى أعتقد ذلك ؟ وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله" [٣]

٤- ومن هذا الباب أيضًا حملة المعري على أبي سعيد السيرافي، فقد كان يروي الأبيات المنسوبة إلى آدم هكذا:

---

(١)المرجع السابق ص ١٦٠، ١٦١ .

(٢)المرجع السابق ص ٢٤٧.

(٣)رسالة الغفران ص ١٥٢-١٥٤ . ولمزيد من التفصيلات راجع خزانة الأدب ١/٢٢٧، ٣/ ٣٢٨، ٤/٣٩٠، ٣٩٤ والحجة ٣/١٦ وشرح الأعلم للكتاب ١/٤٣٧ .

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيـحُ
وأودى ربع أهليها فبانوا وزال بشاشةَ الوجهُ المليحُ

بنصب "بشاشة" على التمييز، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين، ورفع "الوجه" على الفاعلية تجنبًا للإقواء. فقال أبو العلاء : قلت أنا: هذا الوجه الذي قاله أبو سعيد شر من إقواء عشر مرات في القصيدة الواحدة"(١).

وإذن فقد كان أبو العلاء يكره التكلف، ويبغض التأويل، ويرد روايات النحاة المعقدة، ويختار منها ما كان أيسر قبولاً وأقل كلفة. وتلك خطة قويمة وسبيل حكيمة لو اهتدينا بهديها لتخلصنا من كثير من المشاكل التي ترهق الطلاب وليس وراءها طائل، ولجنبنا أنفسنا الخوض في كثير من الخلافات الشكلية التي لا جدوى منها، ولقطعنا شوطًا كبيرًا في سبيل تيسير النحو وإصلاحه.

توسعه في القياس:

كان للقياس أهمية كبيرة في نشأة النحو العربي، وغزارة مادته، واستخلاص قواعده، وضبط أحكامه حتى قال ابن الأنباري: "اعلم أن إنكار القياس في النحو لا يتحقق لأن النحو كله قياس.. فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو" (٢) .

وهذه كلمة حق؛ فنحن لا نتصور نحوًا بغير قياس، ولا نعرف أحدًا من النحاة قد ناقش مبدأ القياس في النحو أو طالب بإلغائه(٣)، وإنما النحاة يختلفون في أمره تضييقًا وتوسيعًا.

---

(١)رسالة الغفران ص٢٨٤ وانظر شرح كتاب سيبويه للسيرافي ٢٢٣/١ .

(٢)الاقتراح ص ٤٦.

(٣)أما ما ردده ابن مضاء القرطبي في كتابه الرد على النحاة، وما نادى به من ضرورة إلغاء القياس(ص١٥٦وما بعدها) فليس مما نحن فيه في شيء. وإن سماه ابن مضاء قياسا، وإن سلكه بعض الباحثين في أنواع القياس(الخضر حسين: القياس في اللغة ص٢٥). فهو في الحقيقة نوع من التعليل المنطقي، وقد مثل له ابن مضاء بما ادعوه من أن الفعل المضارع أعرب لشبهه=

وقد عرف البصريون بأنهم يضيقون أمر القياس فلا يقيسون على القليل إذا وجد ما يعارضه، ولا يعولون على القياس النظري عند فقد الشاهد إلا نادرًا. أما الكوفيون فكانوا على العكس من ذلك يتوسعون في القياس إلى أقصى حدوده، وقد يكتفون بالشاهد الواحد يقيسون عليه ولو خالف الأصل المعروف، وربما وضعوا القاعدة بالقياس النظري دون ورود لمطلق شاهد[١] .

ولهذا فنحن نبادر فنرفض ما قيل من أن المعري كان لا يرضى عن فكرة القياس، وأن أكثر نقده لنحاة البصرة يرجع إلى أنهم" بقياسهم قد قولوا العرب ما لا يقولون، وأجروا على ألسنتهم غير ما يرضون" [٢].

وإنما الذي نقف عنده لنناقشه ما قاله الأستاذ إبراهيم مصطفى ورددته الدكتورة بنت الشاطئ من أن المعري كان ينفر من المدارس النحوية البصرية، ويضيق بما فيها من قياس، وأن من أشد ما ضاق به المعري المضي مع القياس مضيًّا ينتهي إلى أن يجيز في العربية ما ليس منها، وما قالته الدكتورة بنت الشاطئ من أنه كان" يلتزم السماع في اللغة، ويكره التأول والقياس" [٣].

فهل هذا صحيح ؟ وهل كان المعري من المضيقين حقًا في أمر القياس؟

لقد استند هؤلاء الذين قالوا بضيق المعري بالقياس إلى عبارة وردت في رسالة الغفران تناولت بالنقد إجازة سيبويه جر "مستنكر" في بيت النابغة السابق ذكره، فقالوا إن ذلك راجع لضيقه بالقياس البصري.

=بالاسم أو قياسا على الاسم، وما ادعوه في باب الممنوع من الصرف من أن الاسم يمنع من الصرف حملا على الفعل أو قياسا على الفعل.

وهذا النوع من التعليل إن صح تسميته قياسا فليس مرادا لنا، ولا يعنينا في شيء لأنه ليس ذا أثر لفظي، فلسنا حريصين على التمسك به، أو الإبقاء عليه.

(١)انظر في تفصيل ذلك وفي الموازنة بين المذهبين: نشأة النحو ص ٦٩، ٧٨، ٨٦، ٨٧ .

(٢)المهرجان ص ٣٦٨ .

(٣)المهرجان ص ٣٧٠، ٣٧١، والغفران ص ٢٢٤-٢٢٧ .

وقد ناقشنا هذه الدعوى فيما مضى وأثبتنا أن مخالفة المعري لسيبويه هنا ترجع لسبب آخر ليس من القياس في شيء.

والآن نريد أن نسأل القائلين بضيق المعري بالقياس: ماذا تعنون بكلمة قياس؟ إن القياس في النحو على أنوع؛ فهو يطلق ويراد به:

أولا: حمل كلمة على نظائرها في حكم ثبت لها باستقراء كلام العرب.

ثانيا: إعطاء كلمة حكمًا ثبت لغيرها من الكلم المخالف لها في نوعها ولكن توجد بينهما مشابهة من بعض الوجوه؛ كترخيم المركب المزجي قياسًا على الأسماء المنتهية بتاء التأنيث [١].

ثالثًا: القياس النظري الذي لا يعتمد على شاهد من كلام العرب.

فأي هذه الأنواع تريدون؟

لا يمكن أن تريدوا الأول إذا كانت النظائر كثيرة؛ فالإجماع منعقد على صحته هو والذي سماه ابن جني" المطرد في القياس والاستعمال جميعًا" [٢]. فهل تريدونه إذا كانت النظائر قليلة في كلامهم؟ ولكن ما معنى ضيق المعري إذن بالأقيسة البصرية، وهي لا تقيس على القليل؟

وأيًا ما كان مرادهم فنحن لا نرى رأيهم؛ فقد وجدنا أبا العلاء -بعد أن تتبعنا آراءه النحوية- يقيس على القليل، ويجيز في العربية ما ليس منها بمقتضى القياس النظري، ويعطي كلمة حكمًا ثبت لغيرها لمشابهة بين الكلمتين، فهو كما قال الدكتور أمجد الطرابلسي: " كثيرًا ما يضرب عن قدسية السماع صفحًا" [٣].

وعلينا الآن أن نستدل لما نقول:

١ – يمنع النحويون الوصف بالمصدر، ويعدون ما ورد من ذلك من قبيل المسموع الذي لا يقاس عليه. ولكن المعري يرى قياسيته:

---

(١)الخضر حسين: القياس في اللغة ص ٢٧ .

(٢)الخصائص ٩٧/١ .

(٣)النقد واللغة ص٢٠٩ .

أ – فهو يقول في بيت البحتري:

قدت الفلوة الخضيراء منه شبهًا مثلما يقد الشراك

يقول: "الأصل في هذا فلوّ بالتشديد، وقلما يقولون فلو بتخفيف الواو، والعامة تستعمله. وله وجه من القياس؛ لأن الفلو إذا كان مأخوذًا من فلوته... جاز أن يقال له فلو فينعت بالمصدر.. كما يقال زَوْر.. ورجل ضيف" (١).

ب – ويقول في قول البحتري أيضًا.

والمرء طاعة أيام تنقله تنقل الظل من حال إلى حال

يقول: "يجوز أن يجعل (طاعة أيام) خبر المرء؛ والمعنى: المرء صاحب طاعة للأيام.. وهم يستعملون مثل ذلك في المصادر كثيرًا"(٢).

جـ - وينصب" التفاتًا" في قول الحماسي:

فلما أعادت من بعيد بنظرة إلى التفاتًا أسلمته المحاجر

على الحالية، أي ملتفتة.

د – ويجيز في قول الآخر:

إني سأستر ما ذو العقل ساتره من حاجة وأميت السر كتمانا

أن ينصب" كتمانًا" على الحال (٣).

٢ – وقد بلغ من توسعه في القياس أن أجاز في العربية ما ليس منها بمقتضى القياس النظري، فهو يقول في رسالة الملائكة: " ولا أمنع أن يجيء الفعل على (فَعْلَنَ) وإن كان المتقدمون لم يذكروه؛ لأن الاسم إذا جاء على ذلك وجب أن يجيء عليه الفعل إذ كان الاسم أصلا، والفعل متفرع منه. وقد قالوا ناقة رَعْشَن .. وامرأة خلبن" (٤).

---

(١)عبث الوليد ص١٦٣ .

(٢)عبث الوليد ص١٨١ .

(٣)شرح الحماسة ورقة ١٤٢و ١٦٠ .

(٤)ص٢٦٣ .

وأمامنا أبو علي الفارسي في "الحجة" يمنع أن يكون" شيطن"زائد النون؛ لأن وزن "فعلن" غير معروف [١] .

٣ – حكى المعري خلافًا بين النحاة في مفرد "أندية" في قول الشاعر:

في ليلة من جمادى ذات أندية

وبعد أن نقل رأي ابن جني والمبرد وغيرهما قال: "وذهب آخرون إلى أنه كسّر فَعَلا على أفعِلة وركب مذهب الشذوذ"، ثم قال: " وهذا وإن كان شاذًّا فإن له عندي وجهًا من القياس صالحًا، ونظيرًا من السماع مؤنسًا.

أما السماع فقولهم في تكسير (قفا) و(رحى) أقفية وأرحية.. وأما وجه القياس فإن العرب تجري الفتحة مجرى الألف؛ ألا تراهم لم يقولوا في الإضافة إلى جَمَزَى... إلا بحذف الألف: جَمَزِيّ.. كما قالوا في حبارى: حباريّ.. فكأن فَعَلا هذا فَعال، وفَعَال مما يكسر على (أفعلة) كقذال وأقذلة، وغزال وأغزلة" [٢].

وأنت ترى هنا كيف قاس أبو العلاء على القليل، وكيف أعطى فَعَلا حكم فَعَال المخالفة لها في نوعها، إجراء للفتحة مجرى الألف. فهل هناك توسع في القياس أكثر من هذا؟

٤ – ويجيز المعري إجراء الظن مجرى القول في حكاية الجمل بعده قياسًا عليه. يقول في بيت البحتري:

وقد زعموا مصرًا معانًا من الغنى...

يقول: "يتعذر رفع مصر في البيت إلا أن يجعل زعموا في معنى قالوا، وليس ذلك بمعروف.. إلا أن القياس يوجبه" [٣].

٥ – ويمنع النحويون استقبال القسم بلن، ولكن أبا العلاء يجيزه، فهو يقول في بيت البحتري:

---

(١)الحجة ٢/١٨ .

(٢)شرح الحماسة ورقة ١٩١ .

(٣)عبث الوليد ص ١١٣ .

لن ينال المشيب حظوة ود حيث يشجو طرف ويحور طرف

يقول: "استقبل القسم بلن لأنه قال: أي وسعي الحجيج. وهذا عند النحويين لا يجوز لأن(لن) لا يستقبل بها القسم.. ولو قال لا ينال لاحتمل، ولن يبعد في القياس أن يوضع لن موضع لا في هذا الموضع لأنهما في النفي متشاركتان [١] .

٦ – وهو يخرج على المسموع حين يجيز همز الواو الثانية في نحو "شوور" حيث يقول في قول البحتري:

ثلاثة جلة إن شووروا نصحوا...

يقول ما نصه: " شووروا بواوين. ولا يجوز إدغام الأولى في الأخرى على مذهب النحويين لأن الواو منقلبة عن ألف فاعل.. والنطق بشوور وبابه ينفر منه الطبع. والغريزة تفر إلى همز الواو الثانية.

وما علمت أن ذلك حكاه أحد لأن الواو المكسورة إنما تهمز إذا وقعت أولاً مثل وشاح وإشاح.. فأما إذا وقعت في غير الأوائل فهي مُقَرَّة على حالها مثل قولهم... مراود في جمع مرود"[٢].

٧ – ويرى المعري أن القياس يبيح دخول" أل" على" كل" و"بعض"؛ ولذا فهو لا يمنعه حيث يقول: "كان المتقدمون من أهل العلم ينكرون إدخال الألف واللام على كل وبعض.. والقياس يوجب دخول الألف واللام على كل وبعض" [٣].

٨ – وهو يرى قياسية تعدي الفعل بالهمزة حتى ولو كان متعديًا، فهو يقول: "والمتقدمون من أهل اللغة ينكرون أكسبته مالا.. والقياس يسوغ أكسبه لأن الهمزة مما يعدى به الفعل"، ويقول: "والفعل يعدى بالهمزة، فإذا قال: بذ فرسك الخيل فأراد

---

(١)المرجع ص ١٥٢ . والبيت الذي وقع فيه القسم يقع قبل البيت المقتبس ونصه :

أي وسعي الحجيج حين سعوا شعثا وصف الحجيج ساعة صفوا

(٢)المرجع ص ١٨٣ .

(٣)المرجع ص ١٩٥، ١٩٦ .

أن يعدي الفعل إلى مفعولين قال: أبذذت فرسك الخيل" [١]. وتعدية الأفعال بالهمزة وبخاصة ما كان منها متعديًا يقصره معظم النحويين على السماع [٢].

وإذن فلم يكن أبو العلاء ممن يضيقون بالقياس صدرًا كما يقولون، وإنما كان من أنصاره والمتوسعين في استخدامه، الذين يمضون به إلى أبعد آماده وأقصى إمكانياته. وقد خلصنا المعري بذلك من كثير من الخلافات بين النحاة حول المقيس والمسموع، والتي يرجع أكثرها إلى عدم تحديد مدلول القلة والكثرة تحديدًا يزيل ما حولها من غموض وإبهام .

كما أنه بتوسعه في القياس قد وسع في أصول اللغة، ونمى من مواردها، وفتح طرقًا يزداد بها بيان اللغة سعة على سعته، كما صحح كثيرًا من العبارات التي شاع استعمالها ولا نظير لها من السماع بأن التمس لها في القياس وجهًا تصح به.

احترامه للقراءات:

اختلف النحويون من قديم في شأن القراءات؛ فكان بعضهم يجترئ على نقدها ونسبة الخطأ إليها إذا خالفت مذهبه النحوي، وكان بعضهم لا يقدم على ذلك، ويلتمس لكل قراءة وجهًا -وإن كان بعيدًا- في العربية[٣].

ومن الفريق الأول الفراء والزجاج والمبرد والزمخشري. فالفراء ينكر قراءة "مصرخيّ"، ويرى أنها من وهم القراء. والزجاج يصف هذه القراءة بأنها رديئة مرذولة[٤]. والمبرد يقول في قراءة حمزة "الذي تساءلون به والأرحامِ": "لو صليت خلف إمام يقرأ ذلك لأخذت نعلي ومضيت" والزمخشري يقول فيها: "والجر على

---

(١)عبث الوليد ص ٢١٢ .

(٢)انظر محاضر جلسات المجمع اللغوي ٣٥١/١ .

(٣)رسالة الملائكة ص٢٠٠ .

(٤)الخزانة ٢٥٨/٢، ٢٥٩ وتفسير القرطبي ٣٥٧/٩ .

عطف الظاهر على المضمر وليس بسديد"[١]. وحجة هؤلاء أن الذين نقلوا القراءات كان فيهم قوم أدركوا زمن الفصاحة فجاءوا بها على ما يجب، وقوم سبقتهم الفصاحة ولم يكن لهم علم بقياس العربية فلحقهم الوهم[٢].

أما الفريق الثاني فكان من أئمته ابن خالويه وابن جني وأبو علي الفارسي. وهؤلاء يرون أن القراءة متى صح سندها ووافقت وجهًا من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحًا مجمعًا عليه أو مختلفًا فيه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن سواء كانت عن السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم[٣]. وحجتهم في ذلك "أن القراءة سنة" وأن "الرواية تصلها إلى رسول الله" [٤].

فمن أي الفريقين أبو العلاء؟

نستطيع بعد طول البحث والاستقصاء أن نحكم بأنه من الفريق الثاني الذي يحترم القراءات ويقدسها ويردها دائمًا إلى الرواية، فهو يقول: "والقراءة سماع وقياس واختيار. فإذا سمع الحرف وكان السامع له من أهل المعرفة قاسه على نظائره بعد صحة الخبر فيه فإذا وضح له أنه مستقيم كان الاختيار بعد ذلك إليه". ويقول: "والقراء لم يطالبوا بأن يحملوا القراءة على ما يجوز في كلام العرب.. بل قراءتهم مردودة إلى الرواية" [٥].

ولذلك نراه عند تعرضه لإحدى القراءات يحاول تخريجها، ويجهد في توجيهها بما يوافق لغة من لغات العرب؛ فهو يوجه قراءة "فاتبعوني يَحببكم الله" بأنها على لغة من قال في الماضي حببت، ويستشهد على ذلك من كلام العرب. ويوجه قراءة:" بالعشي

---

(١)القرطبي ٣/٥ والكشاف ١٥٧/١ .

(٢)رسالة الملائكة ص ٢٠٠ .

(٣)ابن الجزري: النشر ٩/١-١٠ والدمياطي: إتحاف فضلاء البشر ورقة ١٣ .

(٤)الحجة ٢٨/١ والمحتسب ورقة٢ .

(٥)رسالة الملائكة ص ١٨٨ .

والأبكـار" علـى أنها جمع بَكْر أو بُكرة على طرح الهاء كجمع نعمة على أنعم وشدة علـى أشـد[١]. ومـن ذلـك توجـيهه لقراءة من همز الواو في "سوق" بأنها على لغة من يهمز الواو لمجاورة الضمة كقول جرير:

أحب المؤقدين إليّ مؤسي[٢]

وتوجيهه لقراءة "وقولوا للناس حسنَى" بأنها على قياس قول سيبويه إن "أخرى" معدولـة عـن "الأخـرى"أو أن "حسـنى" مصدر بمنزلة الحسن أو اسم مصدر. وأمامنا سعيد بن مسعدة والزجاج وغيرهما يحكمون على هذه القراءة بالخطأ [٣].

وأخـيرًا نشير إلى توجيهه لقراءة "وما تنزلت به الشياطون"، فقد حكى عن بعض العـلماء أنـه سمع أعرابيًا يقول: هذه بساتون بني فلان، مع أن ابن جني- مع ما عرف عـنه مـن توجـيهه للقـراءات حـتى ألف كتابًا في ذلك أسماه المحتسب- يقول عن هذه القراءة إنها غلط[٤].

وهو يرى أنه لا يصح رفض القراءة بعد أن تستكمل شروط القبول، ولذا فهو يلقن الـنحاة درسًـا في القـراءات؛ ويبين لهم فساد منهجهم في رد القراءة مع أن القرآن ليس بموضع ضرورة.

يقـول المعري على لسان الحية الفقيهة: "فلما توفي أبو عمرو كرهت المقام فانتقلت إلـى الكوفـة، فأقمـت في جـوار حمـزة بـن حبيـب فسـمعته يقـرأ بأشياء ينكرها عليه أصـحاب العربـية كخفـض "الأرحـامِ"، وكسـر الياء في"وما أنتم بمصرخيِّ"، وكذلك سكون الهمزة في "ومكر السيء".

---

(١)رسالة الغفران ص ٢٤٠ و ٢٨٩ .

(٢)رسالة الملائكة ص ١٢ .

(٣)المرجع ص٣٣ .

(٤)عبث الوليد ص ٢٢٦ والمحتسب ورقة ١١٨ .

وهـذا إغـلاق لـباب العربـية لأن الفـرقان ليس بموضع ضرورة وإنما حكى مثل هذا في المنظوم"[١].

فهـو يرى صحة هذه القراءات التي ردها النحاة كما سبق أن ذكرنا، ويرى أن في إنكارها تضييقًا لواسع وإغلاقًا لباب العربية، وهو يعلل هذا بقوله: "لأن الفرقان ليس بموضـع ضـرورة"؛ فمعناه أن هذه القراءات التي نقلت إلينا يجب أن نتقبلها ولا نردها بضـرورة أو نحوهـا لأنـه لـيس هـناك مـا يدفع القاريء من وزن أو قافية إلى ارتكاب محظور، أو يفـرض علـيه نوعًـا مـن التعبير قد يخالف الأسلوب القويم. وإنما الضرورة محلها المنظوم.

ولا يعكـر علـى هـذا الفهـم لعـبارة المعري قوله فيما سبق "فسمعته يقرأ بأشياء ينكرها علـيه أصـحاب العربـية" وقولـه في مكان آخر: "وأصحاب العربية مجمعون على كراهة قراءة حمزة وما أنتم بمصرخيّ" [٢] لأنه ناقل –وكونه صادقًا في هذا النقل أو غير صادق قضية أخرى-وناقل الكفر ليس بكافر.

كما لا يعكر عليه وصفه بعض القراءات بأنها رديئة كما قال في قراءة ابن مسعود "ولـه الجوارُ المنشآت"[٣]. فهو يعني بذلك أنها ليست في المرتبة العليا من الفصاحة، وأن هـناك مـا هـو أفصـح مـنها. ونحـن لا ندعي-ولا غيرنا- أن القراءات جميعها على درجة واحـدة مـن الفصاحة وإنما نرى أنها تتفاوت فيما بينها في درجات الفصاحة كما تتفاوت اللهجات العربية نفسها التي نزلت القراءات موافقة لها.

ولا يعـد كذلك خروجًا على هذا المنهج ما قاله عن قراءة "أفئيدة" ووصفه هذا اللفـظ بأنـه علـى "بناء مستنكر لم يجيء مثله في الآحاد ولا في الجموع"[٤] ؛ إذ معناه أن هـذا الـوزن لم يـنقل سماعه في كلام العرب، كما قال في وزن كمثرى إنه بناء مستنكر لم

---

(١)رسالة الغفران ص ٢٨٩-٢٩٠ .

(٢)المرجع ص ٣٩٣ .

(٣)عبث الوليد ص ٢٢٨.

(٤)رسالة الملائكة ص ٢٠٠ .

يذكر سيبويه له نظيرًا [١] مع اعترافه بصحته وفصاحته. ولا يعني بهذا الطعن على هذه القراءة وإنما يريد أن يقول إن هذه الكلمة جاءت على وزن غير معهود. والمعري في هذا لا يحكم رأيه، وإنما يحكم النقل والسماع اللغوي عن الثقات.

ومنهج أبي العلاء في قبول القراءة وتوجيهها والتماس وجه لها في العربية تحمل عليه منهج قويم لا ينبغي العدول عنه. ولهذا يقول السيوطي في الاقتراح: "أما القرآن فكلما ورد أنه قرىء به جاز الاحتجاج به في العربية" [٢].

استشهاده بالحديث النبوي:

وموقف النحاة من الحديث شبيه بموقفهم من القراءات فمنهم من يرفض الاستشهاد به ومنهم من يستشهد به [٣]. أما أبو العلاء فكان موقفه صريحًا إذ كان يستشهد بالحديث في مسائل اللغة والنحو وأحيانًا يورد في الصفحة الواحدة أكثر من حديث. ولعل خبرته بأصول التحديث واشتغاله برواية الحديث، وسماعه الحديث بالشام عن الثقات[٤] جعله يطمئن إلى سلامة لفظ ما استشهد به، وصحة نسبته إلى الرسول أو الصحابي، فلم يجد حرجًا في الاستشهاد به كما وجد بعض النحاة.

والأحاديث التي استشهد بها أبو العلاء كثيرة ولذا سنكتفي بذكر بعضها ونحيل إلى بعضها الآخر. فمما استشهد به قول الرسول "من فوق سبعة أرقعة"، وقد استشهد به على أن الرقيع: السماء وأنه لفظ مذكر لتأنيث العدد ولمجيء الجمع على أفعلة. إذ لو كان مؤنثًا لكان الواجب أن يقول من فوق سبع أرقع؛ لأن فعيلا إذا كان للمؤنث يجمع على أفعُل.

---

(١)المرجع ص ٢٦ .

(٢)ص ١٧ .

(٣)راجع خزانة الأدب ١/٥، ٦ .

(٤)راجع تعريف القدماء ص ٢٠٠، ٥٢١-٥٢٤ .

كذلك استشهد على أن "الشَّرخ" جمع شارخ بالحديث المرفوع: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بسرية فأمرهم أن يقتلوا شيوخ المشركين ويستبقوا شرخهم [١].

وموقف أبي العلاء في الاستشهاد بالحديث موقف سديد، وإذا كانت الرواية بالمعنى هي السبب في ترك من ترك الاستشهاد بالحديث فقد كان من الرواة من يتمسكون بحرفية النص، وحتى على فرض وقوع الرواية بالمعنى فقد تم ذلك في الصدر الأول قبل فساد اللغة حين كان كلام أولئك المبدلين حجة كذلك [٢].

الضرورة الشعرية:

اختلف النحويون في حد الضرورة الشعرية فذهب الجمهور إلى أنها "ما وقع في الشعر مما لم يقع في النثر سواء كان للشاعر عنه مندوحة أم لا"، ومذهب ابن مالك، وهو الصحيح عن سيبويه، وما يشعر به كلام ابن الحاجب أنها "ما ليس للشاعر مندوحة عنه" [٣].

ويبين أثر الخلاف فيما جاء في الشعر ووجدت فيه المندوحة، فالجمهور يقصره على السماع وابن مالك يقيس عليه. ولذلك "أجاز وصل أل بالمضارع قليلا ولم يجعله ضرورة استدلالا بقول الشاعر:

ما أنت بالحكم الترضى حكومته

لتمكنه من أن يقول: "المرضي حكومته". وحيث لم يقل ذلك مع الاستطاعة ففي ذلك إشعار بالاختيار وعدم الاضطرار" [٤].

---

(١) الفصول والغايات ص ٢٨، ٣٧٩ وانظر كذلك الصفحات ١١٤، ١٩١، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٩، ٣٠٩، ٣٢٢، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٦٩، ٣٧٦، ٣٨٦، ٣٨٩، ٣٩٢، ٣٩٥، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤١١، ٤١٨ ...

(٢) راجع الزفزاف: التعريف بالقرآن والحديث ص ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩وخزانة الأدب ١/٧ .

(٣) موطئة الفصيح ورقة ١٩-٢١ والضرائر للألوسي ص٦ .

(٤) موطئة الفصيح ورقة ٢٠ وخزانة الأدب ١/١٥ .

وكأني بأصحاب المذهب الأول قد وسعوا في مدلول الضرورة لتكون سلاحًا يشهرونه في وجه كل بيت يخالف قواعدهم أو يعجزون عن تخريجه، وفي هذا من الخطورة ما فيه. ولذلك نجد أبا العلاء يرفض هذا المذهب- وإن كان مذهب الجمهور- ولا يتردد في نصرة المذهب الثاني والذود عنه ولذا فهو يقول: "ينشد قول أبي ذؤيب الهذلي:

تركوا هويّ وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

ولو أنشد: هواي لم يكن بالوزن بأس. والاستشهاد بالشعر على نوعين: أحدهما لا مزية فيه للمنظوم على المنثور، والآخر يكون حكم الموزون فيه غير حكم النثر. فالضرب الأول كبيت أبي ذؤيب الذي مر.. والضرب الآخر هو الذي يكون الوزن إن غير عما استشهد به عليه لحقه إخلال كقوله:

ألا من مبلغ الحرين عني مغلغلة وخص بها أُبيا

يطوّف بي عكبّ في معد ويطعن بالصملة في قفيا

فهذا لا يمكن إلا على لغة من قال قفيّ"[1] .

ويقول في بيت الهذلي:

أبيت على معاريَ فاخرات بهن ملوب كدم العباط

الذي يدعي النحاة أنه ضرورة -يقول أبو العلاء: "ولو قال معارٍ لم يخل بالبيت" [2] إذ لن يكون فيه سوى تسكين لام مفاعلتن.

خاتمة

أثره في النحو ومكانته بين النحاة

والآن وقد جلنا جولة في نحو أبي العلاء، وعرضنا أصول مذهبه نحب أن نقف قليلا لنرى أثره في النحو، وما قدمه لهذا العلم من أفضال:

---

(١)رسالة الملائكة ص ١٨١-١٨٣ .

(٢)المرجع السابق ص ٢١٠ .

١ – وأول شيء يذكر للمعري بالحمد والإكبار ذلك المنهج القويم الذي خطه لنفسه وسار عليه في تقعيده للقواعد كما سبق أن بينا.

٢ – وحديثنا عن منهج أبي العلاء يجرنا إلى الحديث عن أسلوبه الخاص الذي ابتدعه ورأى فيه خير طريق يعرض به مسائل النحو الجافة، ويحبّب النشء فيها، ويقربها إلى أفهامهم؛ فكان أن ابتدع ذلك الأسلوب الأدبي والقصصي الذي لا نعرف أحدًا من النحاة غيره قد استخدمه في عرض مسائل اللغة والنحو.

وفي هذا يقول الدكتور طه حسين: "وكثير مما صور أصحاب النحو والصرف..قد سلكه أبو العلاء في كتبه قصصًا جميلا رائعًا، أو حوارًا بديعًا ممتعًا"(١). وقد عرضنا فيما سبق نماذج لذلك من "رسالة الغفران" ولا نرى الآن بأسًا من أن نشير إلى مؤلف آخر له تبدو فيه تلك الظاهرة بوضوح وهو "رسالة الملائكة" التي يبدو فيها خياله الواسع ولباقته وحسن اختياره للأساليب التي تنفذ إلى أعماق القلوب؛ فقد جعل نفسه كأنه أشرف على الموت وجاءه الملك فأراد أن يدافعه فذكر له أصل "ملك" واشتقاقه، ثم تطرق إلى الحديث عن عزرائيل".. ثم دار الحديث بينه وبين منكر ونكير.

وهو في أثناء ذلك يعرض لأدق مسائل النحو والصرف. إلى أن جرى ما جرى بينه وبين رضوان ، واتخذ ذلك وسيلة للحديث عما في الجنة من نعيم فتحدث عن أحرف كمثرى ووزنها، وسفرجل وسندس ،وشجرة طوبى وهل هي من ذوات الواو أو الياء... ولو أنه سرد تلك المسائل وتكلم عن كل واحدة منها بعد الأخرى كما يفعل النحاة لملها القارىء وتسربت السآمة إلى نفسه.

٣ – كما كان يجلس للتدريس بالمعرة، ويقصده الطلاب من مختلف البلاد لكي يستفيدوا من علمه.

وقد اتفقت كلمة المتقدمين "أن رسالة الملائكة ألفها أبو العلاء جوابًا عن مسائل صرفية سأله عنها بعض الطلبة"(٢).

---

(١)مع أبي العلاء في سجنه ص١٧٣ .

(٢)مقدمة رسالة الملائكة صفحة ب.

كذلك يروى أن أحد طلبة العلم اليمنيين وقع إليه كتاب في اللغة سقط أوله وأعجبه جمعه وترتيبه. وكان يسأل كل من التقى به عن اسمه واسم مصنفه دون جدوى. وأخيرًا دُلّ على أبي العلاء فقصده بالمعرة وقرأ له من الكتاب شيئًا فقال له أبو العلاء: هذا ديوان الأدب ومؤلفه الفارابي وأكمل له النقص الذي عنده [١].

٤ – ومن أفضاله على النحو كذلك تلك الكتب التي ألفها فيه وعددها أحد عشر كتابا كما سبق أن ذكرنا.

ولكن هل كان أبو العلاء نحويًا؟

قد يبدو هذا السؤال غريبًا الآن بعد أن عشنا مع نحو أبي العلاء ورأينا شخصيته النحوية بادية في كل خطوة يخطوها. ولكن ماذا نفعل ونحن مضطرون إلى طرح هذا السؤال بعد أن رأينا من الباحثين من يسخر من نحو أبي العلاء ويستكثر عليه أن يكون نحويًا، فيسلبه بذلك خاصة من ألزم خصائصه، وصفة من ألصق الصفات به. يقول الأستاذ إبراهيم مصطفى: "وأستطيع الآن أن أقرر مطمئنًا أن أبا العلاء كان عالمًا بالنحو وأن أقرر كذلك أنه لم يكن نحويًا.. وإنما كان ناقدًا لغويًا، درس النحو فعابه، وضاق، وانصرف عنه"[٢] ..

ونحب أن نسأل الأستاذ الفاضل: لماذا أخرجت المعري من زمرة النحاة؟ وما الشروط التي تفرضها لتسلك الشخص بموجبها في عداد النحاة؟

أهي أن يزكيه العلماء ويشهدوا له بالكفاية والسبق في النحو؟

أم هي أن يكون عالمًا باللغة وبالقرآن والحديث راويًا للشعر والأدب؟

أم هي أن يكون صاحب كتب ورسائل في النحو؟

أم هي أن يكون موهوبًا ذا قدرة على المناقشة والبحث والاستقصاء؟

أم هي أن يجلس لتدريس النحو، وأن يكون ذا مدرسة لها منهجها في البحث وطريقتها في التناول؟

---

(١)الفارابي اللغوي ص ١١٣ .

(٢)المهرجان الألفي ص ٣٧٢ .

الحق أننا نحار في تعرف أسباب هذا الحكم الجائر؛ فقد توافرت في أبي العلاء من الصفات والخصائص، ووهب من الذكاء والقدرة على الفهم ما يرشحه لأن يكون نحويًا من الطراز الأول:

فقد زكاه العلماء قديمًا وحديثًا وشهدوا بسبقه في النحو وترجموا له في النحاة كما فعل ياقوت في معجم الأدباء والقفطي في إنباه الرواة والسيوطي في البغية.

وكان عالمًا باللغة وشواردها مدًا بلهجات العرب حتى قال تلميذه التبريزي: "ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري"(١).

وكان عالمًا بالقراءات راويًا للحديث بصيرًا بأشعار العرب وآدابها حافظًا لكتب اللغة.

وكان صاحب مؤلفات في النحو بلغت أحد عشر مؤلفًا.

وكان ذا موهبة وقدرة على البحث والاستقصاء لا يعرض لمسألة لغوية أو نحوية ثم يدعها قبل أن يستقصيها. ويكفي أن أحيل السيد الباحث إلى ما قاله أبو العلاء في لفظ "إياك" في رسالة الملائكة ليرى دقته وحرصه على الاستقصاء التام.

وكان صاحب مدرسة نحوية يؤمها الطلاب من شتى البقاع، ولها أسلوبها الخاص في البحث والتناول.

فماذا ينقصه بعد هذا من صفات النحوي.

لقد تسرع الأستاذ الفاضل فأصدر هذا الحكم دون أن يكلف نفسه عناء قراءة نحو أبي العلاء، ودون أن يتعمق في فهم ما قرأه من نحو أبي العلاء فظنه نقدًا سطحيًا "ليس دقيق المسلك ولا خفي المكانة"(٢).

ولو أنه قرأ نحو أبي العلاء وتعمقه وتمعن فيه لتردد كثيرًا قبل أن يصدر هذا الحكم، بل لوضع أبا العلاء في صف أئمة النحو الأعلام، ولشهد له بالسبق والنبوغ،

---

(١) تعريف القدماء ص ٥٦٩ .

(٢) المهرجان الألفي ص ٣٧٢ .

ولقال فيه كما قال الدكتور طه حسين:"كان أبو العلاء في القرن الخامس بإقليم حلب كابن خالويه في القرن الرابع"[١].

وإذا كان أبو العلاء قد نبغ في فروع كثيرة من المعرفة، واشتهر بها، فلا يصح أن يعد ذلك عليه لا له. وكثير من النحاة الذين لمع اسمهم في النحو وحده لم يتركوا من الآثار النحوية مثل ما ترك أبو العلاء رغم تعدد جوانب شخصيته العلمية. وهذا أدعى إلى تقديره والإعجاب به.

(١)ذكرى أبي العلاء ص٢١٧ .

مصادر البحث

أ-مؤلفات أبي العلاء المعري:

١ -رسائل أبي العلاء المعري - نشر مرجليوث - ط أكسفورد.

٢-رسالة الغفران- تحقيق بنت الشاطئ -ط أولى ١٩٥٠.

٣-رسالة الملائكة — تحقيق محمد سليم الجندي -ط دمشق ١٩٤٤.

٤-شرح ديوان الحماسة- مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٣٠٨ أدب.

٥-عبث الوليد -دمشق ١٩٣٦ .

٦-الفصول والغايات — نشر محمود حسن زناتي -ط أولى ١٩٣٨.

٧-اللزوميات — ط حجر -بومباي ١٣٠٣هـ .

٨-معجز أحمد — مصورة دار الكتب المصرية رقم ٤٢٤٦أدب.

ب — مراجع أخرى:

١ — أبو العلاء وما إليه — الراجكوتي - ط السلفية ١٣٤٤هـ .

٢-أبو العلاء المعري وعلم النحو — إبراهيم مصطفى - المهرجان الألفي لأبي العلاء - دمشق ١٩٤٥.

٣-إتحاف فضلاء البشر — الدمياطي - مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٤١٣ قراءات.

٤-الاقتراح في علم أصول النحو- السيوطي - ط أولى- حيدر آباد ١٣١٠هـ .

٥-بغية الوعاة — السيوطي- ط أولى - القاهرة ١٣٢٦هـ .

٦-التعريف بالقرآن والحديث — محمد الزفزاف - ط أولى- القاهرة.

٧-تعريف القدماء بأبي العلاء- جمع وتحقيق لجنة - ط دار الكتب المصرية ١٣٦٣هـ .

٨-الجامع لأحكام القرآن- القرطبي - ط دار الكتب ١٩٣٩ .

٩-الحجة- أبو علي الفارسي- مصورة دار الكتب المصرية رقم ٤٦٢ قراءات.

١٠-خزانة الأدب- البغدادي- ط أولى- ط بولاق.

١١-ذكرى أبي العلاء- دكتور طه حسين -مصر ١٣٣٤هـ .

١٢-الرد على النحاة- ابن مضاء القرطبي - تحقيق د. شوقي ضيف- ط أولى ١٩٤٧ .

١٣-شرح كتاب سيبويه – السيرافي -مخطوطة دار الكتب رقم ١٣٧ نحو.

١٤-الضرائر- الآلوسي -ط السلفية ١٣٤١هـ .

١٥-الغفران- دكتورة بنت الشاطىء -ط أولى- المعارف ١٩٥٤ .

١٦-الفارابي اللغوي- دكتور أحمد مختار عمر -مقال بمجلة معهد المخطوطات -مجلد ٧جزء٢.

١٧-القياس في اللغة- محمد الخضر حسين -ط السلفية ١٣٥٣ .

١٨-كتاب سيبويه- ط أولى - بولاق ١٣١٧هـ .

١٩-محاضر جلسات مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٢٠-المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات- ابن جني - مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٢ ش قراءات.

٢١-مع أبي العلاء في سجنه- دكتور طه حسين - ط مصر .

٢٢-معجم الأدباء – ياقوت - ط الحلبي.

٢٣-المقتضب في النحو – المبرد - مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٩٠٩ نحو .

٢٤-موطئة الفصيح – ابن الطيب الفاسي - مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٧٩لغة.

٢٥-نشأة النحو- محمد الطنطاوي - ط الصاوي١٩٣١.

٢٦-النشر في القراءات العشر – ابن الجزري -دمشق ١٣٤٥ .

٢٧-النقد واللغة في رسالة الغفران – دكتور أمجد الطرابلسي - الجامعة السورية ١٩٥١ .

جهود ابن سينا
في اللغة والأصوات*

١- مقدمة

ولد أبو علي بن سينا عام ٣٧٠ أو ٣٧٣ أو ٣٧٥هـ في قرية أفشنة بالقرب من بخارى . وقد قال عن نفسه: "أُحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب ، وأتيت العشر من العمر ، وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب" . وقد درس في صباه إلى جانب القرآن والأدب: الفقه والمنطق ، وبعد ذلك درس الطب والفلسفة . وكان يقرأ الكتب المصنفة في الطب بنفسه بعد أن وجد " علم الطب ليس من العلوم الصعبة " .

وبرز في الطب في أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون عليه علم الطب وهو ابن ست عشرة سنة . وفي تلك السنّ شارك في مداواة الأمير نوح بن منصور وسمح له بدخول دار كتبه ومطالعتها وقراءة ما فيها . وحين بلغ ثماني عشرة سنة كان قد فرغ من هذه العلوم كلها.

وكان ابن سينا كثير التطواف في بلاد فارس إلى أن توفي في همذان عام ٤٢٨ بعد أن ترك ما يزيد على مائتين وخمسين مؤلفًا ما بين كتاب ورسالة ومختصر من أشهرها : القانون، والشفاء، والنجاة، والإشارات[١] ..

ولم يكن ابن سينا في تآليفه متخصصًا ، فقد جمع إلى الفلسفة التي اشتهر بها علومًا أخرى كثيرة ، حتى صح أن يقول عنه الأب جورج قنواتي: " كان ابن سينا من الرجال القلائل في العالم الإسلامي الذين يصح أن نسميهم موسوعيين ، أو كما يسمون اليوم: كتاب دائرة المعارف"[٢] ، وأن يقول عنه الدكتور شاكر الفحام: "كانت إحاطته بالعلوم شاملة ، وكان شغفه بالمعرفة لا حدود له".

ألف في الطب ، وألف في الفلسفة .. وألف في الدين والزهد والتصوف والعشق،

---

* نشر في مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي- العدد الخامس- مكة المكرمة١٩٨٢.

وألف في الكيمياء والأسرار وتأويل الرؤيا ، وألف في الفلك ، وألف في تدبير الجند وخراج الممالك ، وألف في الموسيقى ، وألف في اللغة والنحو .."[٣] .

٢- جهوده اللغوية

يبدو أن اشتغال ابن سينا باللغة جاء بأخرة . إذ يذكر المترجمون لحياته قصة جرت له مع أبي منصور الجبان[٤] استثارته ودفعته إلى دراسة اللغة والتعمق فيها. يقول ابن أبي أصيبعة: "كان ابن سينا جالسًا يومًا بين يدي الأمير ، وأبو منصور الجبان حاضر . فجرى في اللغة مسألة تكلم ابن سينا فيها بما حضره ، فالتفت أبو منصور إليه يقول : إنك فيلسوف وحكيم ، ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها. فاستنكف ابن سينا من هذا الكلام ، وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين ، واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان للأزهري . فبلغ ابن سينا في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها. وأنشأ ثلاث قصائد ضمنها ألفاظًا غريبة في اللغة.."[٥] ويذكر ابن أبي أصيبعة لابن سينا المؤلفات اللغوية الآتية:

١- لسان العرب . في عشرة مجلدات، قال عنه: لم يصنف في اللغة مثله، ولم ينقله في البياض حتى توفي فبقي على مسودته لا يهتدي أحد إلى ترتيبه . وجاء عنه في بنج رسالة: "يشتمل كل كتاب منها على فنون. وهو كتاب نادر، قد جعل له ترتيبا حسنا. غير أنه لم يتمم ، ولم يخرجه عن المسودة إلى البياض. وقد تخطأ عن حصر الألفاظ على عادة أهل اللغة إلى الإبانة عن مقتضياتها ، والفرق بين ما تقتضيه من معانيها. وقد رأيت طرفا من هذا الكتاب بخطه بمقدار مائة وثلاثين ورقة فما تمكنت من تحريرها فانتخبت منه فصولا ونكتا عجيبة"[٦] . ويبدو أن هذا الكتاب من نوع معاجم الموضوعات التي تجمع كلمات كل موضوع تحت عنوان واحد وتفسرها. كما يبدو من الاقتباس الموجز الذى ذكرته كتب اللغة أنه كان يهتم بالتفريق بين المعاني المتقاربة أو المتشابهة ، ومن ذلك قوله: "المشابهة اتفاق في الكيفية وما يجري معها، والمساواة اتفاق في الكمية، والمحاذاة والموازاة اتفاق في البعضية، والمماثلة والمشاكلة اتفاق في الذات، والمواطأة اتفاق في العزم"[٦].

٢- مقالة في مخارج الحروف . وهي التي طبعت تحت اسم: أسباب حدوث الحروف.

٣- جواب لعدة مسائل في تبيين ماهية الحروف . ولعله المطبوع تحت اسم الرسالة السابعة النيروزية: في معاني الحروف الهجائية.
٤- كتاب الملح في النحو[٧].

ولم يصلنا من هذه المؤلفات سوى رقمي ٢، ٣ بالإضافة إلى بعض الآراء اللغوية المتناثرة التي وردت في مؤلفات أخرى له مثل الشفاء والقانون . وستكون هذه وتلك عمادنا في هذه الدراسة ، كما سينال مؤلفه رقم ٢ منا عناية خاصة نظرًا لأهميته وتفرده.

٣-التعريف بمؤلفاته اللغوية

أولا: أسباب حدوث الحروف:

أ-عنوانه ووقت تأليفه:

ورد هذا الكتاب في المراجع باسمي: رسالة، ومقالة، ووردت بقية الاسم هكذا: في تحقيق الحروف – في أسباب الحروف – في أسرار الحروف – في حدوث الحروف – في مخارج الحروف – في أسباب حدوث الحروف ومخارجها – في الحروف – في مخارج الحروف وصفاتها. كما ورد بالأسماء الآتية:
معرفة حدوث الحروف – مخارج الصوت والحروف – أسباب حدوث الحروف.

ولما كانت هذه الرسالة قد ألفت في أصفهان كما صرح الجوزجاني[٨] فلابد أن يكون تأليفها قد تم عام ٤١٤ أو ما بعده لأنه العام الذي ذهب فيه الشيخ إلى أصفهان[٩].

ب- طبعاته:

طبع هذا الكتاب عدة طبعات باللغة العربية وبلغات مختلفة:
١- فطبع بالعربية بمطبعة المؤيد بالقاهرة عام ١٣٣٢هـ ، وقام محب الدين الخطيب بتحقيقه ومقابلته معتمدًا على نسختين إحداهما رقم ١٦٦٥٩ بالمتحف البريطاني ، والأخرى رقم ٢٠٠مجاميع ، بالمكتبة التيمورية بالقاهرة.

٢- كما طبع بإيران طبعة أولى عام ١٣٣٣ ضمن السلسلة التى تنشرها جامعة طهران، وقام بتحقيقها برويز ناتل خانلري.

٣- وبسبب نفاد نسخ الطبعة السابقة أعيد طبع الكتاب في إيران عام ١٣٤٩ . ولما كان للكتاب روايتان مختلفتان إلى حد يجعل من المتعذر إدماجهما في نص واحد ، فقد نشر الكتاب في روايتين منفصلتين باللغة العربية ، مع ترجمة كاملة باللغة الفارسية للرواية الأولى ، وإضافة بعض الزيادات على النص المترجم من الرواية الثانية.

٤- وفي عام ١٩٣٤ نشر الأستاذ Max Bravmann ترجمة ألمانية لهذا الكتاب طبعها في جوتنجن كجزء من رسالة بالألمانية عنوانها:

Materiaiien Und Untersuchungen Zuden Phonetischen Lehren der Araber

٥- وفي عام ١٩٦٣ نشرت للكتاب ترجمة إنجليزية في لاهور مع مقدمة للأستاذ خليل سمعان.

٦-وفي عام ١٩٦٦ نشر الأستاذ فلاديمير أخولدياني في تفليس ترجمة روسية له مصحوبة بالمتن الأصلي ، بعد أن عكف على تصحيحه ووضع له فهرسا للاصطلاحات ، ومقدمة مسهبة حول علم الأصوات العربي.

جـ- نسخه المخطوطة:

توجد عشرات النسخ المخطوطة لهذا الكتاب في كثير من مكتبات العالم من بينها:

١- نسخة المتحف البريطاني السابق ذكرها.

٢- نسخة المكتبة التيمورية السابق ذكرها.

وهما النسختان اللتان اعتمدتهما الطبعة الأولى للكتاب.

٣- نسخة مكتبة مجلس النواب الإيراني ، وهي أقدم النسخ إذ يرجع تاريخها إلى عام ٥٦٩هـ.

٤- ويليها في القدم نسخة في استانبول في مكتبة أونيورسينه يرجع تاريخها إلى عام ٥٧٩هـ.

٥- ونسخة ثانية بنفس المكتبة يرجع تاريخها إلى عام ٥٨٨هـ.

٦- وهناك نسخة يمتلكها الدكتور يحيى مهدوي الأستاذ بجامعة طهران يرجع تاريخها إلى عام٥٩٦ و ٥٩٧ .

٧- ونسخة تمتلكها مكتبة أيا صوفية غير مؤكدة التاريخ.

وهي نسخ اعتمدتها طبعة إيران ، وقابلت بينها .

وهناك نسخ أخرى في تركيا وهولندا وإيران تجد وصفا لها في:

- فهرست نسخه هاى مصنفات ابن سينا للدكتور يحيى مهدوي.
- مؤلفات ابن سينا للأب جورج قنواتي.

د – وصفه:

يقع الكتاب في مقدمة وستة فصول.

أما المقدمة فقد بدأت – في إحدى رواياتيها – قائلة: "الحمد لله وحده، حمدًا يستأهله بعظمة ذاته، وسعة رحمته، وفيضان جوده. وصلواته على نبيه محمد وآله. وبعد: فليس كل قابل هدية محتاجًا إليها، ولا كل طالب تحفة فاقدًا لها. بل ربما آثر الغنيّ في ذلك إكرام الفقير، وتوخّى الكبير به التبسط من الصغير. والشيخ الكبير الكريم الأستاذ أبو منصور محمد بن علي بن عمر [الحيان – الخيام – الجبان[١٠]..] – وهو الذي ما شئت فله في نفسه من المحامد الباهرة، وعندي، وفي ذمتي من المنن الظاهرة - التمس مني التماس باسط لا محتاج أن أكتب باسمه ما حصل عندي بعد البحث المستقصي من أسباب حدوث الحروف باختلافها في المسموع، في رسالة وجيزة جدًا، فتلقيت ملتمسه بالطاعة، وسألت الله أن يوفقني للصواب ألزمه، والحق أتبعه، وهو ولي الرحمة".

وأما فصول الكتاب فقد حملت العناوين الآتية:

١- في سبب حدوث الصوت.

٢- في سبب حدوث الحروف.

٣- في تشريح الحنجرة واللسان.

٤- في الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العرب.

٥- في الحروف الشبيهة بهذه الحروف.

٦- في أن هذه الحروف قد تسمع من حركات غير نطقية.

ثانيا: الرسالة السابعة النيروزية في معاني الحروف الهجائية:

طبعت هذه الرسالة طبعتين حتى الآن ، أولاهما ضمن: تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات (الجوائب- القسطنطينية ١٢٩٨)، وثانيتهما ضمن المجموعة الخامسة من نوادر المخطوطات بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.

وليس هدف الرسالة لغويا في المقام الأول ، لأنها – كما يقول ابن سينا نفسه في مقدمتها – "في معاني الحروف الهجائية التي في فواتح بعض السور الفرقانية".

وقد بدأت الرسالة قائلة: "كل تنزع به همته إلى خدمة نيروز مولانا الشيخ الأمير السيد أبي بكر محمد بن عبد الرحيم أدام الله عزه بتحفة تجود بها ذات يده. ولما رغبت في أن أكون واحد القوم ، وتابعًا للسواد الأعظم.. وكانت حالي تقعدني عن إهداء تحفة دنياوية.. ورأيت الحكم أفضل مرغوب فيه..لا سيما الحكمة الإلهية، وخصوصًا ما كان حكيما مليا ، ثم ما كان يكشف سرا هو من أغمض أسرار الحكمة والملة ، وهو الإنباء عن الغرض المضمَّن في الحروف الهجائية، فواتح عدة من السور الفرقانية – اتخذت فيه رسالة وجعلتها هديتي النيروزية إليه.."

والرسالة مقسمة إلى ثلاثة فصول على النحو التالي:

الأول: في ترتيب الموجودات والدلالة على خاصية كل مرتبة من مراتبها.

الثاني: في الدلالة على كيفية دلالة الحروف عليها.

الثالث: في الغرض.

وقد انتهى ابن سينا في الفصل الأخير، وهو الغرض من الرسالة – كما قال – إلى تفسير فواتح السور تفسيرًا جديدًا ؛ إذ ذهب إلى أن المدلول عليه بألف لام ميم هو القسم بالأول ذي الأمر والخلق..وبألف لام ميم صاد: القسم بالأول ذي الأمر والخلق منشئ الكل ، وبصاد القسم بالعناية الكلية ، وبقاف القسم بالإبداع...إلخ.

٤-آراؤه الصوتية

أ- طبيعة الصوت:

تناول ابن سينا طبيعة الصوت في رسالته " أسباب حدوث الحروف"، وفي كتابه "الشفاء" في فصل السمع . وعلى الرغم من أن ابن سينا قد عالج هذه القضية بأسلوب فلسفي ، فقد انتهى إلى أن العملية الصوتية تتضمن عناصر ثلاثة هي:

١- وجود جسم في حالة تذبذب.

٢- وجود وسط تنتقل فيه الذبذبة الصادرة عن الجسم المتذبذب.

٣- وجود جسم يستقبل هذه الذبذبات.

وهو نفس ما انتهى إليه المحدثون من علماء الأصوات[١١].

وقد عبر ابن سينا عن العنصر الأول باشتراط وجود قرع أو قلع" أما القرع فمثل ما تقرع صخرة أو خشبة فيحدث صوت . وأما القلع فمثل ما يقلع أحد شقي مشقوق عن الآخر ، كخشبة تنحي عليها بأن تبين أحد شقيها عن الآخر طولاً". واشترط لإحداث القرع أو القلع صوتا أن يكون كل منهما بقوة معينة"فإن قرعت جسمًا كالصوف بقرع لين جدًا لم تحس صوتا. بل يجب أن يكون للجسم الذي تقرعه مقاومة ما، وأن يكون للحركة التي للمقروع به إلى المقروع عنف صادم.. وكذلك إذا شققت شيئا يسيرا وكان الشيء لا صلابة له لم يكن للقلع صوت ألبتة"[١٢].

وعبر عن العنصر الثاني ، وهو وجود وسط ناقل للذبذبات بقوله: "أظن أن الصوت سببه القريب تموج الهواء ودفعه بسرعة وبقوة من أي سبب كان"، وقوله: " وهذا الشيء الذي فيه هذه الحركات شيء رطب سيّال لا محالة ، إما ماء ، وإما هواء. فيكون مع كل قرع وقلع حركة للهواء أو ما يجري مجراه ، إما قليلا قليلا برفق ، وإما دفعة على سبيل تموج أو انجذاب بقوة . فقد وجب أن هاهنا شيئا لابد أن يكون موجودًا عند حدوث الصوت ، وهو حركة قوية من الهواء ، أو ما يجري مجراه" [١٣] .

أما الجسم المستقبل للذبذبات فقد تحدث عنه في كتابيه الشفاء وأسباب حدوث الحروف، وذلك في قوله في الأول: " فإذا انتهى التموج من الهواء أو الماء إلى الصماخ،

وهناك تجويف فيه هواء راكد يتموج بتموج ما ينتهي إليه، ووراءه كالجدار مفروش عليه العصب الحاس للصوت – أحس بالصوت"[١٤]. وفي الثاني: " ثم ذلك الموج يتأدى إلى الهواء الراكد في الصماخ فيموجه فيحس به العصبة المفروشة في سطحه" [١٥].

ومن اللافت للنظر كذلك أن يتنبه ابن سينا إلى قابلية الأذن لإدراك الأصوات بمعدلات معينة للتردد والتوتر لها حد أدنى وحد أعلى ، وأن يتنبه إلى أن زيادة شدة الصوت عن مقدار معين تسبب الأذى والإزعاج للسامع[١٦]، وذلك في قوله: " القرع الشديد يحدث صوتاً يضر بالسمع"، وقوله: " والتموج الفاعل للصوت قد يحس حتى يؤلم" [١٧]. بل يصرح ابن سينا بقدرة الأصوات الشديدة على تحطيم الأشياء "فإن صوت الرعد قد يعرض منه أن يدك الجبال، وربما ضرب حيواناً فأفسده. وكثيرا ما يستظهر على هدم الحصون العالية بأصوات البوقات"[١٨].

ب- مخرج الصوت الإنساني وصفاته:

يستخدم ابن سينا للتعبير عن إنتاج الصوت لفظ الحبس ومشتقاته . أما كلمة المخرج فيبدو أنه يستخدمها للإشارة إلى مجرى الهواء أو طريقه الذي يكون إما نحو الأنف أو الفم . وقد تردد في كلامه ألفاظ المخرج والمخارج والحبس والحابس والمحبوس والمحابس.

ويرى ابن سينا أن الذي يميز الحرف (الصوت) عن الحرف (الصوت) جملة عوامل منها:

١-اختلاف نقطة التحكم في مجرى الهواء" بسبب اختلاف الأجرام التي يقع عندها وبها الحبس والإطلاق؛ فإنها ربما كانت ألين، وربما كانت أصلب، وربما كانت أيبس، وربما كانت أرطب.. وقد يكون الحابس أصغر وأعظم، والمحبوس أكثر وأقل، والمخرج أضيق وأوسع، ومستدير الشكل، ومستعرض الشكل مع دقة، والحبس أشد وألين، والضغط بعد الإطلاق أحفز وأسلس.." [١٩].

٢-اختلاف حال التموج (بعد أن ذكر أن نفس التموج إنما يفعل الصوت): "وأما حال التموج في نفسه من اتصال أجزائه وتماسّها، أو تشظيها وتشذبها فيفعل الحدة والثقل. أما الحدة فيفعلها الأولان، وأما الثقل فيفعله الثانيان" [٢٠].

ويفسر الدكتور إبراهيم أنيس الحدة والثقل بأحد تفسيرين:

أولهما وأرجحهما أن ابن سينا هنا يشير إلى درجة الصوت Pitch، لأن طول الموجة مع الصوت الحاد أقل منه مع الصوت الثقيل . فأجزاء الموجة في الصوت الحاد متقاربة متماسكة ، على حين أن أجزاءها مع الصوت الثقيل متباعدة.

الأمر الثاني أن ابن سينا في هذا النص أراد فعلا أن يصف لنا حدة الصوت وثقله high and low pitch ، وجعل حدة الصوت أو ثقله متوقفًا على طبيعة الجسم المقروع. فهو في حالة اتصال أجزائه وتماسكها، أي حين تكون كثافة كبيرة كالأجسام الصلبة من معادن ونحوها يكون الصوت عادة حادًا على حين أن الصوت مع الجسم الأقل كثافة كالخشب مثلا يكون ثقيلاً [٢١].

٣- اختلاف طريقة التحكم في الهواء عند نقطة الإنتاج (المحبس). وقد ذكر ابن سينا في هذا الخصوص طريقتين هما:

أ-الحبس التام للصوت.

ب-الحبس غير التام للصوت.

وقد عبر عن هذين بقوله: "والحروف بعضها – في الحقيقة – مفردة ، وحدوثها عن حبسات تامة للصوت أو للهواء الفاعل للصوت يتبعها إطلاق دفعة . وبعضها مركبة وحدوثها عن حبسات غير تامة لكن مع إطلاقات" [٢٢].

وهنا نلاحظ أن ابن سينا يستعمل المصطلحين: مفردة ومركبة في مقابل مصطلحي سيبويه: شديدة ورخوة ، والمصطلحين الحديثين: انفجارية(وقفية)واحتكاكية.

وقد فرّق ابن سينا بين الحروف المفردة والحروف المركبة قائلاً: " وهذه المفردة تشترك في أن وجودها وحدوثها في الآن الفاصل بين زمان الحبس وزمان الإطلاق . وذلك لأن زمان الحبس التام لا يمكن أن يحدث فيه صوت حادث عن الهواء وهو مسكّن بالحبس، وزمان الإطلاق ليس يسمع فيه شيء من هذه الحروف لأنها لا تمتد ألبتة ، إنما هي مع إزالة الحبس فقط . وأما الحروف الأخرى فإنها تشترك في أنها تمتد زمانًا، وتفنى مع زمان الإطلاق التام . وإنما تمتد في الزمان الذي يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق" [٢٣].

وقد قسم ابن سينا الحروف المفردة (الوقفية) إلى نوعين:

أ- مفردة (على الإطلاق).

ب- مفردة من وجه.

أما المفردة على الإطلاق فهي: الباء والتاء والجيم والدال والطاء والقاف والكاف والهمزة[٢٤].

وأما المفردة من وجه فهي: الضاد واللام والميم والنون.

وقد أصاب ابن سينا في هذه التفرقة بين النوعين، واعتباره الحبس في الأصوات الأربعة الأخيرة حبسا جزئيا في مكان يصحبه تسريح في مكان آخر. فالضاد – كما يذكر القدماء –"إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن ، وإن شئت من الجانب الأيسر"، وكلام سيبويه يدل على أنها تكون من الجانبين[٢٥]. واللام – على حد تعبير سيبويه – صوت منحرف جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة.[٢٦]

والميم والنون صوتان شديدان عند سيبويه يجري معهما الصوت ، لأن ذلك الصوت غنة من الأنف ، فإنما تخرجه من أنفك.

وقد اعتبر بعض المتأخرين (ابن جني والزمخشري وابن الجزري وغيرهم) النون والميم واللام (مع حروف أخرى) ضمن الحروف المتوسطة ، أو بين الشديدة والرخوة [٢٧].

وأما الحروف المركبة (الاحتكاكية) فلم يذكرها ابن سينا بالاسم مكتفيا بذكر مقابلاتها المفردة (الوقفية) " ولك أن تعدها عدا". وبعملية إسقاط للحروف المفردة يتبين أن المركبة عنده هي: الثاء – الحاء – الخاء – الذال – الراء – الزاي – السين – الشين – الصاد – الضاد – العين – الغين – الفاء – الهاء.

ويبقى تعليق على صوت الراء. فإذا كان التقسيم الثنائي إلى شديد ورخو لم يستطع أن يشملها ، فاختصها اللغويون باسم "المكرر" (وإن اعتبروها نوعا من الشديد) فإن مصطلح "المركب" عند ابن سينا يمكن أن يشملها بسهولة ، لأن شرط

التركيب في الصوت أن "يمتد في الزمان الذي يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق"، وهو ما ينطبق على الصوت المكرر: الراء ، كما ينطبق على الأصوات الاحتكاكية.

جـ - أصوات العربية:

خص ابن سينا أصوات اللغة العربية بفصل في رسالته ، هو الفصل الرابع الذي عنونه"في الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العرب". وقد عالج ابن سينا في هذا الفصل الأصوات صوتًا صوتًا على الترتيب التالي:

الهمزة – الهاء – العين – الحاء – الخاء – الغين – القاف – الكاف – الجيم – الشين – الضاد – السين – الصاد – الزاي – الطاء – التاء – الدال – الثاء – الذال– الظاء – اللام – الراء – الفاء – الباء – الميم – النون – الواو الصامتة – الياء الصامتة – المصوتات: الألف الصغرى والكبرى – الواو الصغرى والكبرى – الياء الصغرى والكبرى.

وأول ما يلفت النظر في ترتيب ابن سينا ما يأتي:

١- تفريقه بين السواكن والعلل ، وتسميته الأولى صوامت والثانية مصوتات.

٢- تفريقه بين نوعين من الواو والياء . فنوع أدرجه في الصوامت ، ونوع أدرجه في المصوتات.

٣- تفريقه بين الحركة القصيرة والحركة الطويلة (الصغرى والكبرى).

٤- اتباعه الطريقة العربية التي ترتب الأصوات من الداخل إلى الخارج.

والتحليل الدقيق لهذا الفصل يجعلنا نخرج بالنتائج الآتية:

أ-هناك فروق في الترتيب بين القدماء وابن سينا كما يبين الجدول الآتي:

الخليل	سيبويه	ابن جني	ابن سينا
ع	همزة	همزة	همزة
ح	ألف	ألف	هـ
هـ	هـ	هـ	ع

الخليل	سيبويه	ابن جني	ابن سينا
خ	ع	ع	ح
غ	ح	ح	خ
ق	غ	غ	غ
ك	خ	خ	ق
ج	ك	ق	ك
ش	ق[٢٨]	ك	ج
ض	ض	ج	ش
ص	ج	ش	ض
س	ش	ي	س
ز	ي	ض	ص
ط	ل	ل	ز
د	ر	ر	ط
ت	ن	ن	ت
ظ	ط	ط	د
ث	د	د	ث
ذ	ت	ت	ذ
ر	ص	ص	ظ
ل	ز	ز	ل
ن	س	س[٣٠]	ر
ف	ظ	ظ	ف
ب	ذ	ذ	ب
م	ث	ث	م
و	ف	ف	ن

الخليل	سيبويه	ابن جني	ابن سينا
ا	ب	ب	و
ي	م	م	ى
	و[٢٩]	و[٣١]	الألف
			الواو
			الياء

ويتميز ترتيب ابن سينا بما يأتي:

١- عدم وضعه الألف بجوار الهمزة بخلاف ما فعل سيبويه وابن جني . وعدّ الألف مع أصوات الحلق من أخطاء اللغويين القدماء ، وإن حاول بعضهم الدفاع عنه[٣٢].

٢- تقديم القاف على الكاف مخالفا في ذلك سيبويه.

٣- إبعاد الواو والياء إلى ما بعد الانتهاء من الصوامت.

٤- تأخير أحرف العلة الثلاثة (قصيرها وطويلها) إلى ذيل القائمة.

فكأن ابن سينا قد راعى البدء بالصوامت ثم أشباه المصوتات ثم المصوتات.

٥- وضع الميم والنون متتاليين رغم اختلاف مخرجهما لاشتراكهما في صفة الأنفية.

٦-أما وضع الراء واللام عند ابن سينا ففيه نظر. ولعله تبع فيه ترتيب الخليل بن أحمد في معجمه العين.

ب- أما حديثه عن مخارج الأصوات وصفاتها وكيفيات نطقها فنجد فيه تفصيلا دقيقا لا نجده في كتب اللغويين . وقد أعانه على ذكر الحركات العضوية ، وعلى تحديد العضلات والمفاصل المشتركة في إنتاج الصوت خبرته العملية الواسعة بتركيب جسم الإنسان وبتشريح أعضائه . ومن أمثلة ذلك قوله:

١- أما الهمزة فإنها تحدث عن حفز قوي من الحجاب وعضل الصدر لهواء كثير ، ومن مقاومة الطرجهالي[٣٣] الحاصر زمانًا قليلاً لحفز الهواء ، ثم اندفاعه إلى الانقلاع بالعضل الفاتحة وضغط الهواء معا.

٢- وأما الحاء وإن شاركت العين فإنها تخالف العين في هيئة المخرج وفي المحبس وفي القوة وفي جهة مخلص الهواء . فإن الفرجة بين الغضروفين السافلين تكون أضيق، والهواء يندفع أميل إلى قدام ، ويصدم حافة التقعير الذي كان يصدمه هواء العين عند الخروج. وتلك الحافة صلبة ، والدفع فيها أشد فيقسر الرطوبة ويميلها إلى قدام..

٣- وأما الجيم فإنه يحدث من حبس تام للهواء بطرف اللسان ، وحصره في رطوبة وراء طرف اللسان ، ينشق عند الانطلاق من غير امتداد. ويكون تسريب الهواء مع ذلك في مسلك مضيّق ، وموجها نحو خلل الرباعيات أو غيرها ليحدث من نفوذ الهواء فيها صوت حاد صفّار ، ويختلط بفرقعة الرطوبة الشديدة اللزوجة فيكون الجيم.

٤- وأما الثاء فتخرج باعتماد من الهواء عند موضع التاء بلا حبس. وتحبس عند طرف الأسنان ليصير الخلل أضيق فيكون صفير قليل مع القلع . وكأن الثاء سين تلوفيت بحبس فُرَج مسلك هوائها الصفّار.

٥- وحدوث اللام بحبس من طرف اللسان رطب غير قويّ جدًا ، ثم قلع إلى قدام قليلا ، والاعتماد فيها على الجزء المتأخر من اللسان المماسّ لما فوقه أكثر من الاعتماد على طرف اللسان. وليس الحفز للهواء بقويّ. ولو كان الحفز والشدّ قويًا خرج حرف كالطاء.

٦- وإن كان طرف اللسان متعرضًا للموضع الذي يمسه في اللام من غير مس صادق، ولا التصاق رطوبة ، ثم عُرّض حافتاه بالعضلتين المطولتين تعريضًا أقوى من تعريض الطرف نفسه ، وحمل عليه الهواء حتى نفضه وأرعده كما يفعل الريح بكل لين متعرض له متعلق من طرف منه بشيء ثابت حدث منه حرف الراء، وسمع التكرير الذي فيه للارتعاد قدما.

٧- وأما الميم فإن الحبس فيها تام وبأجرام من الشفة أيبس وأخرج . وليس تسريب الهواء مع القلع إلى خارج الفم كله ، بل يصرف بعضه بحفز قوي إلى التجويف الذي في آخر المنخر ليدور فيه ويفعل دويا، ثم يطلقان معا.

ج- وقد فطن ابن سينا إلى وجود أثر سمعي يصاحب نطق بعض الأصوات كالزاي والذال والغين.. (وهو ما سماه اللغويون بالجهر) وحاول تفسيره من الناحية العضوية.

وعلى الرغم من أن تفسير ابن سينا تعوزه الدقة العلمية فهو أقرب إلى القبول من تفسير اللغويين لظاهرة الجهر.

يقول سيبويه معرّفًا الصوت المجهور بأنه "حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت" [٣٤]. ونفس التعريف بألفاظه نجده عند ابن جني وغيره.

أما ابن سينا فيقول عن صوت الزاي مفرقًا بينه وبين السين والصاد: "وأما الزاي فإنها تحدث أيضا قريبا من الموضع الذي يحدث فيه السين والصاد. ولكن يكون طرف اللسان فيها أخفض، وما بعده أرفع وأقرب من سطح الحنك كالمماس بالعرض أجزاءً دون أجزاء. ولكنها أقل أخذا في الطول مما يأخذه المقرّب من سطح الشجْر والحنك في السين. والغرض من ذلك أن يحدث هناك اهتزاز على سطح اللسان وسطح الحنك ليجتمع ذلك الاهتزاز مع الصفير. وأما في سائر الأشياء فهو كالسين. ويكاد للاهتزاز الذي يقع في الزاي أن يكون تكريرًا كالتكرير الواقع في الراء".

ويقول عن صوت الغين: " ويكون الاهتزاز في تلك الرطوبة أكثر منها فيما سلف (مع الخاء)".

ويقول عن الذال إنها "تفارق الثاء في الاهتزاز".

ومعنى هذا أن ابن سينا قد فطن إلى وجود اهتزاز يصاحب نطق الزاي والذال والغين.. وأن هذا الاهتزاز في تكراره يشبه التكرار الواقع في الراء . وهذه نقطة تحسب في صالحه . ولكن الشيء الذي يؤخذ عليه هو عدم اهتدائه إلى العضو المهتزّ. إذ جعله ابن سينا سطح اللسان، أو سطح الحنك أو الرطوبة، مع أنه في الواقع الوتران الصوتيان[٣٥] في منطقة الحنجرة . ويبدو أن وجود الوترين الصوتيين في موضعهما المذكور لم يهتد إليه القدماء ، ولذا لم يرد لهما ذكر في الكتب الطبية والتشريحية العربية . نعم قد ورد في كتابات ابن سينا وغيره مصطلح "الجسم الشبيه بلسان المزمار"أو "الشيء الذي يسمى لسان المزمار" أو "الجسم المعروف بلسان المزمار"[٣٦] . كما ورد في كتابات ابن سينا أن آلة الصوت " الحنجرة والجسم الشبيه بلسان المزمار ، وهي الآلة الأولى الحقيقية ، وسائر

الآلات بواعث ومعينات"[٣٧]. وذكر ابن القف أن لسان المزمار "هو الآلة الأولى في الصوت، ويسمى بهذا الاسم لأنه يشبه لسان المزمار في شكله وفعله ووضعه.. فإنه موضوع في الحنجرة في الموضع الذي يوضع فيه لسان المزمار في المزمار.. وقد جعل له الفعل الذي للسان المزمار في المزمار وهو التلحين"[٣٨]. ولكنه ليس من السهل التسليم بأنهما يريدان بلسان المزمار الفرجة التي بين الأوتار الصوتية كما يرجح الدكتور أنيس [٣٩]. وأغلب الظن أنهما يريدان به ما يقابل المصطلح الأجنبي epiglottis وهو مصطلح يطلق على الغضروف المفرد أعلى غضاريف الحنجرة.. الذي يقع في مقدمة الحنجرة وخلف جذر اللسان مباشرة مشكلاً جدارًا أماميا منحرفا لمدخل الحنجرة.. ويقوم لسان المزمار بالفصل بين الهواء والغذاء أثناء البلع وذلك باندفاعه إلى أسفل تبعًا لحركة جذر اللسان والعظم اللامي ليغلق مدخل الحنجرة [٤٠]. ومما يدل على أن هذا هو المراد بلسان المزمار، وليس الفرجة التي بين الأوتار الصوتية ما ورد في كتاب "العمدة" من أن جالينوس سمّاه "طبق الحنجرة".. وما ورد فيه من أنه "حال ازدراد الطعام وشرب الشراب ينطبق الجميع ويحيط بالحنجرة من داخل غشاء ملبس عليها جميعها"[٤١].

وعلى هذا يكون تفسير الجهر عند ابن سينا تفسيرا مقاربا إذ ربطه بالاهتزاز، ولكن يظل غير دقيق لعدم اهتدائه للعضو الأساسي في ظاهرة الجهر وهو الوتران الصوتيان.

أما دور لسان المزمار في عملية الجهر فما يزال موضع نظر، وإن أمكن أن يسهم في تكييف الرنين بما يحدثه من تغيير في حجم فراغ الحنجرة[٤٢].

د-تحدث ابن سينا عما سماه سيبويه بالإطباق ، وما يمكن تسميته كذلك بالتفخيم ، وهو الوصف الذي تتميز به الأصوات: ص- ض- ط - ظ[٤٣]. وقد أشار سيبويه إلى الإطباق بقوله: " أما المطبقة فالصاد والضاد والطاء والظاء.. وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك . فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى

موضع الحروف"، وأشار إليه ابن جني بقوله: "والإطباق أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا له" (٤٤).

ولكننا نجد ابن سينا يتميز عليهما بوصفه التفصيلي المعتمد على تحديد ما يلحق الأعضاء المشاركة في النطق من تعديلات . فحين يتحدث عن الصاد يقول: "ويحدث في اللسان كالتقعير حتى يكون لانقلاب الهواء كالدوي". وحين يتحدث عن الطاء يقول بعد أن حدد مخرجها وربطه بمخرج التاء والدال: " لكن الطاء يحبس في ذلك الموضع بجزء من طرف اللسان أعظم.. وتقعر وسط اللسان خلف ذلك المحبس ليحدث هناك للهواء دوي عند الإخراج، ثم يقلع ويكون الحبس بشدّ قويّ". وحين يفرق بين التاء والطاء يقول: "وأما التاء فيكون مثله في كل شيء إلا أن الحبس بطرف اللسان فقط". فهنا نجد لأول مرة حديثًا عن تقعر اللسان مع الأصوات المفخمة ، وعن اشتراك جزأين من اللسان في عملية نطقها ، وهو ما لم نجده بهذا الوضوح عند اللغويين القدماء(٤٥).

هـ- هناك بعض خلافات يلاحظها الباحث بين وصف بعض الأصوات عند ابن سينا ووصفها عند اللغويين القدماء . ومن أوضح الأمثلة لذلك وصف صوت الجيم . فعلى الرغم من أن ابن سينا يتفق مع القدماء في وضعها قبل الشين مباشرة وبعد القاف والكاف فإننا نجد خلافا في تحديد المخرج أو نقطة الإنتاج:

١- يقول سيبويه: " ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين.."(٤٦). ومثل هذا نجده بالنص عند ابن جني(٤٧). ويقول ابن دريد: "القاف ثم الكاف أسفل منها قليلا ، ثم الجيم والشين من اللهاة"(٤٨).

٢- أما ابن سينا فيحدد نقطة إنتاج الجيم بقوله: "وأما الجيم فإنه يحدث من حبس تام للهواء بطرف اللسان ، وحصره في رطوبة وراء طرف اللسان"(٤٩).

والتوفيق بين الرأيين ممكن إذا قلنا إن ابن سينا لا يقسم اللسان إلى أقصى ووسط وحافة وطرف كما فعل سيبويه ، وأنه يطلق طرف اللسان على نصفه الأمامي بادئًا من الوسط. ولهذا أدخل في طرف اللسان كل الأصوات التي تلي الكاف في المخرج. ولم يشر ابن سينا إلى أي أجزاء خلفية للسان ، ولذا فحين تحدث عن صوت الغين اكتفى

بقولـه إنـه "يحـدث في موضـع الـتغرغر". ويبدو أن العضو المؤثر في نطق الجيم كان هو العضـو العلـوي ، وهـو الغـار. أمـا العضـو السـفلي وهو اللسان فلم يكن هناك طريقة موحدة بين العرب تحدد الجزء المشترك منه في النطق . فمنهم من كان يشرك وسط اللسان، ومـنهم مـن كان يشرك طرفه . ويستطيع القارئ أن يجرب نطق الجيم بأحد الطريقين دون أن ينتقل إلى صوت آخر.

و- وأخيرا نقول إن ابن سينا رغم تفرده في رسالته كان يتوقف أحيانا عن إصدار حكمه حـين يغمـض علـيه الأمـر . ولعـل أوضح الأمثلة لذلك ما ذكره بالنسبة للمصوتات أو العلل: " وأما المصوتات فأمرها عليّ كالمشكل. ولكني أظن أن الألف الصغرى والكبرى مخـرجهما مـن إطـلاق الهـواء سلسـا غـير مـزاحم. والواوان مخرجهما مع أدنى مزاحمة وتضـييق للشـفتين واعـتماد في الإخراج على ما يلي فوق اعتمادا يسيرا. والياءان تكون المزاحمة فيهما بالاعتماد على ما يلي أسفل قليلا "[٥٠].

وبعد :

فهـذا قلـيل مـن كـثير ذكـره ابن سينا في دراسته للأصوات . وما زال هناك جوانب أخرى يضيق المقام عن ذكرها مثل حديثه عن تشريح الحنجرة ، وعن عيوب النطق ، وعن أثر التنغيم والوقفات في تغيير المعاني ، وهي جوانب تحتاج إلى بحوث أخرى مستقلة.

حواشي البحث

(١) انظر في كل ما مضى: عيون الأنباء ص٤٣٧ وما بعدها، ابن سينا لكارادوفو ص ١٣٠ وما بعدها، مؤلفات ابن سينا للأب قنواتي ص ٢٠وما بعدها، ابن سينا فيلسوف النفس البشرية لعبده الحلو ص ١٠ وما بعدها، تحية لابن سينا للدكتور الفحام.

(٢) مؤلفات ابن سينا ص٧ .

(٣) تحية لابن سينا ص٩، ١٠.

(٤) ورد اسمه: أبو منصور الجبائي في عيون الأنباء، وأبو منصور بن الجبان في فهرس معهد المخطوطات بالقاهرة أمام كتابه "شرح فصيح ثعلب"، وأبو منصور الجبّان في صفحة الغلاف للكتاب السابق، وفي مفتتح الكتاب، وأبو منصور بن الجبان في معجم الأدباء(١٨/ ٢٦٠)، وأبو منصور الحيان والحيام في بعض مخطوطات "أسباب حدوث الحروف"، والجياني الأصفهاني في كشف الظنون.. وقد قال عنه ياقوت: "أحد حسنات الري وعلمائها الأعيان. جيد المعرفة باللغة، باقعة الوقت، وفرد الدهر، وبحر العلم، وروضة الأدب. تصانيفه سائرة في الآفاق.. صنف: أبنية الأفعال- شرح الفصيح -الشامل في اللغة- انتهاز الفرص في تفسير المقلوب من كلام العرب..". وقد نال الأستاذ عبد الجبار جعفر درجة الماجستير في موضوع عنوانه "شرح الفصيح لابن الجبان الأصفهاني-دراسة وتحقيق" من جامعة بغداد ١٩٧٤ .

(٥) عيون الأنباء ص ٤٤٢، ٤٤٣ .

(٦) تحية لابن سينا ص١٥، ٢٩و٣٠ .

(٧) عيون الأنباء ص٤٤٠-٤٥٨ .

(٨) السابق ص ٤٥٧ .

(٩) المقدمة الفارسية لطبعة طهران.

(١٠) وردت بعدة روايات في النسخ المخطوطة.

(١١) انظر دراسة الصوت اللغوي ص٤ .

(١٢) الشفاء- في النفس ص٨٢، وأسباب حدوث الحروف- الفصل الأول.

(١٣) الشفاء- في النفس ص٨٣، وأسباب حدوث الحروف- الفصل الأول.

(١٤) ص ٨٤ .

(١٥) الفصل الأول.

(١٦) انظر في تحديد عتبة السمع وعتبة الألم: كتابنا: دراسة الصوت اللغوي ص٣١.

(١٧) الشفاء –في النفس ص٨٣، ٨٩ .

(١٨) السابق ص٨٣ .

(١٩) أسباب حدوث الحروف –الفصل الثاني.

(٢٠) أسباب حدوث الحروف- الرواية الأولى من طبعة إيران. الفصل الثاني.

(٢١) أصوات اللغة عند ابن سينا ص ١٧٨، ١٧٩ .

(٢٢) أسباب حدوث الحروف –الفصل الثاني.

(٢٣) السابق.

(٢٤) لم ترد الهمزة في هذا الفصل، وإنما وردت في الفصل الرابع حين فرق بين الهاء والهمزة واعتبر الحبس تاما مع الهمزة وغير تام مع الهاء.

(٢٥) الأصوات اللغوية ص ١٣١ .

(٢٦) السابق ص ١٣٦ .

(٢٧) السابق والصفحة.

(٢٨) وفي بعض النسخ: ق ك .

(٢٩) الكتاب ٤٣١/٤ .

(٣٠) وفي بعض النسخ : س ز .

(٣١) سر صناعة الإعراب ٥٠/١ .

(٣٢) الأصوات اللغوية ص ١١٦ .

(٣٣) الطرجهالي هو الغضروف الثالث من غضاريف الحنجرة في تشريح ابن سينا. (انظر الفصل الثالث من: أسباب حدوث الحروف).

(٣٤) الكتاب ٤٣٤/٤ .

(٣٥) رغم شيوع هذا المصطلح فهو غير دقيق. والأدق أن يقال: الطيّتان الصوتيتان. (انظر: دراسات صوتية ص١١٩) .

(٣٦) انظر القانون ص ٣٩٤، والعمدة في الجراحة ص١٠٢ .

(٣٧) القانون ص٣٩٤.

(٣٨) العمدة ص ١٠٢ .

(٣٩) الأصوات اللغوية ص ١٤٤.

(٤٠) دراسة السمع والكلام ص ١٠٩.

(٤١) العمدة ص ١٠٢، ١٠٣ .

(٤٢) دراسة السمع والكلام ص ١٠٩ .

(٤٣) الكتاب ٤٣٦/٤ .

(٤٤) سر الصناعة ٧٠/١ .

(٤٥) تجد تطابقًا بين ما قاله ابن سينا، وما يقوله المحدثون. فالدكتور إبراهيم أنيس مثلا يقول عن الظاء: " في حالة النطق بالظاء يرتفع طرف اللسان وأقصاه نحو الحنك ويتقعر وسطه" (الأصوات اللغوية ص٤٧، ٤٨).

(٤٦) ٤٣٣/٤.

(٤٧) ٥٢/١ .

(٤٨) الجمهرة ٨/١ .

(٤٩) أسباب حدوث الحروف-الفصل الرابع.

(٥٠) السابق.

مصادر البحث

١- ابن سينا

البارون كارادوفو – ترجمة عادل زعيتر – دار بيروت ١٩٧٠ .

٢- ابن سينا فيلسوف النفس البشرية

عبده الحلو – بيت الحكمة – بيروت ١٩٦٧ .

٣- أسباب حدوث الحروف

ابن سينا – جميع الطبعات العربية والترجمات والمخطوطات الواردة في البحث

٤- أصوات اللغة عند ابن سينا

إبراهيم أنيس – مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٧ يناير ١٩٦٣ .

٥- الأصوات اللغوية

إبراهيم أنيس – الأنجلو – ط رابعة ١٩٧١ .

٦- تحية لابن سينا في ذكرى ميلاده الألفية

شاكر الفحام – فصلة من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مجلد ٥٦ ج١ .

٧- الجمهرة

ابن دريد – طبعة بالأوفست عن الطبعة الأولى – مؤسسة الحلبي بالقاهرة .

٨- دراسة السمع والكلام

سعد مصلوح – عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٠ .

٩- دراسة الصوت اللغوي

أحمد مختار عمر – عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٦ .

١٠- دراسات صوتية

تغريد عنبر – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – القاهرة ١٩٨٠ .

١١-الرسالة السابعة النيروزية

ابن سينا – ضمن تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات – الجوائب – القسطنطينية ١٢٩٨ .

١٢- سر صناعة الإعراب

ابن جني – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – الحلبي بالقاهرة ١٩٥٤ .

١٣-العمدة في الجراحة

يعقوب بن إسحاق المعروف بابن القف –حيدر آباد الدكن – الجزء الأول – ط أولى.

١٤-عيون الأنباء في طبقات الأطباء

ابن أبي أصيبعة – تحقيق نزار رضا – مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦٥ .

١٥-الكتاب

سيبويه – تحقيق عبد السلام هارون – هيئة الكتاب بالقاهرة ١٩٧٥ .

أحمد فارس الشدياق

واضع المنهجية الحديثة للمعجم العربي*

مدخل

يعدّ أحمد فارس الشدياق (أو كما سمى نفسه بالفارياق نحتًا من كلمتي فارس وشدياق) واحدًا من علماء اللغة القلائل الذين عشقوا اللغة العربية وافتتنوا بها ، وألفوا حولها الكتب لكشف أسرارها وإبراز مواطن التفوق فيها . ولم يكتف بتأليف الكتب عنها ، وإنما كان يحاول – في استخداماته اللغوية ومن خلال أساليب التعبير التي يختارها – أن يثبت تفوقها وتميزها، وأن يبرز أسرار الجمال فيها، حتى إنه صرح في مقدمة كتابه "الساق على الساق" بأنه هدف أولا إلى "إبراز غرائب اللغة ونوادرها" (ص١) ، كما أنه دافع عن كثرة استخدامه الغريب من الألفاظ وللمترادف والمتقارب منها بأنه قصد به"إبراز محاسن لغتنا هذه الشريفة، وتشويق القارئين إليها" (الساق ص٥٠٩) . بل أكثر من هذا نراه يؤلف كتابًا يبحث فيه خصائص الحروف الهجائية عند العرب ويختار له عنوانا كاشفا هو"منتهى العجب من خصائص لغة العرب". كما نراه يتجه في كتابه "سر الليال في القلب والإبدال" إلى رد كل فرع إلى أصله ، وتنسيق معاني المادة تنسيقًا يبين مأخذها وعلاقتها ومناسبتها (سر الليال ص١٣) . ويكشف عن قصده في اختيار ترتيب يخالف الترتيب الهجائي المعروف مع البدء بالمضعف – يكشف عن قصده قائلا : "ولولا ما قصدت من الوصول إلى علم معاني الألفاظ والاطلاع على أصل وضعها وحكمة مبناها لما كان لي من عاذر على ارتكاب هذه المخالفة" (السابق ص٢٢).

---

* نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة- الجزء٥٥- نوفمبر١٩٨٤.

وقد هداه تفكيره إلى خاصة فريدة في اللغة العربية وهي بناؤها على أصوات طبيعية: "ولعمري إنَّ من لم يكن يدري شيئًا من لغة العرب فإذا سمع مثلا لفظة طنطن ودندن وجلجل ورنَّم وكان ذا ذوق سليم فلا بد أن يتوهم أنها حكاية أصوات . وكلما كانت اللغة مبنية على هذا المبنى الطبيعي كانت للنفس أشوق وبالطبع أعلق . ولو لم يكن للغة العرب إلا هذا الأسلوب البديع ليشهد بأنها أطبع اللغات وأبسطها لكفى" (السابق ص٢٥).

كما نراه يعبر عن مكنون نفسه تجاه هذه اللغة الشريفة فيقول في صدر كتابه "سر الليال": "إن يكن المتقدمون قد اشتغلوا بهذه اللغة الشريفة فإني قد عشقتها عشقًا، وكلفت بها حقًا، حتى صرت لها رقًا، فأزهرت لها ذبالي وسهرت فيها ليالي... فإني وجدتها قد مزنت بمزايا بديعة وزينت بصفات سنيعة، تظهر معها بهرجة ما سواها شنيعة" (ص٢).

وقد انعكس حبه وعشقه هذا في كثرة المؤلفات اللغوية والأعمال المعجمية التي تركها حول اللغة العربية ، معجمها ونحوها وصرفها ، ومن ذلك.

- المحاورة الإنسانية في اللغتين الإنجليزية والعربية.
- غنية الطالب ومنية الراغب في الصرف والنحو وحروف المعاني.
- كنز اللغات (فارسي- تركي –عربي).
- الجاسوس على القاموس.
- سر الليال في القلب والإبدال.
- منتهى العجب في خصائص لغة العرب.

(أحمد فارس الشدياق للدكتور محمد يوسف نجم ص٧٧-٨٠) .

هذا إلى جانب تفرق كثير من أبحاثه ومناظراته اللغوية في كتبه المختلفة وفي مقالاته في " الجوائب". فقد كان من عادته أن يستطرد في بعض المواضع إلى البحث اللغوي عندما يجد الجو مهيأ لذلك (السابق ص١٩٦).

ولسنا هنا في مجال عرض كتبه اللغوية أو التعريف بها ، وإنما سنتجه ببحثنا وجهة خاصة يكشف عنها عنوان البحث ، وهي محاولة التعريف بجهود أحمد فارس الشدياق حول المعجم العربي وقضاياه.

وسنتناول جهود الشدياق المعجمية في النقاط التالية:

١- قضايا عامة مرتبطة بالمعجم العربي.

٢- منهجيته المعجمية.

٣- مواصفات المعجمي الناجح.

١- قضايا عامة مرتبطة بالمعجم العربي:

أثار الشدياق في مؤلفاته كثيرًا من القضايا التي تعتبر من مقدمات المعجم العربي ، والتي يعد البت فيها ضروريًا قبل اتباع منهجية خاصة في المعجم ومن هذه القضايا:

(أ)قضية الترادف:

يرى الشدياق أن تفسير اللفظ بلفظ مرادف له قد يكون على حساب الدقة اللغوية لأن ما يسمى بالألفاظ المترادفة ليس متطابقًا في الحقيقة : "على أني لا أذهب إلى أن الألفاظ المترادفة هي بمعنى واحد ، وإلا لسموها المتساوية ، وإنما هي مترادفة بمعنى أن بعضها قد يقوم مقام بعض (الساق ص١٠). وأعطى الشدياق أمثلة لعدم التطابق منها مقارنته بين كلمتي جلس وقعد (ومشتقاتهما) في السياقات المختلفة، وذلك في قوله: "وعندي أن أصل معنى الجلوس: الحصول على جلَسٍ من الأرض ، وهو يقضي بأن يكون من سفل إلى علو ، ثم عمم. والجلوس غير القعود ؛ فإن الجلوس: الانتقال من سفل إلى علو ، والقعود: الانتقال من علو إلى سفل ، وقد يكون جلس بمعنى قعد كما نقول: (جلس متربعًا) ، و (قعد متربعًا) ، وقد يفارقه ومنه (جلس بين شُعَبها) أي حصل وتمكن، إذ لا يسمى هذا قعودًا ويقال (جلس متكئًا) ولا يقال: (قعد متكئا)... والمجلس: موضع الجلوس وقد يطلق على أهله مجازًا تسمية للحالّ باسم المحل ، يقال: (اتفق

المجلس)... ويقال لمن أصيب برجله: مُقْعَد، ويقال كذلك: مَقْعد صدق ، .." (سر الليال٥٥٨) .

ويحذر الشدياق من مزلق آخر يقع فيه اللغويون وهو تعريفهم لفظة بلفظة أخرى من دون ذكر الفرق بينهما بالنظر إلى تعديتهما بحرف الجر كقول الجوهري مثلا : "الوجل: الخوف" مع أن "وجل" يتعدى بمن ، "وخاف" يتعدى بنفسه.

وكقول المصنف (الفيروزابادي): "العتب: الموجدة والملامة"، "ولام" يتعدى بنفسه، و "عتب" و "وجد" يتعديان بعلى (الجاسوس ص ١٢).

(ب) التوسع في النحت:

دعا الشدياق إلى استعمال النحت لصوغ ألفاظ تسد مسد الألفاظ الأعجمية التي يشيع استعمالها ، ولتنمية الثروة اللغوية ، يقول الشدياق :"وكيفما كان فإن النحت طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة وتتسع أساليبها ، ولها نظير في اللغة اليونانية وسائر اللغات الإفرنجية ، وهي التي كثرت مواد لغاتهم وأحوجتنا إلى الأخذ منها" (كنز الرغائب١/٢٠٤).

ويأتي في موضع آخر على ذكر النحت ، ويورد آراء اللغويين فيه ويدعو إلى استعماله ويورد أمثلة مما عثر عليه من المنحوت (السابق٥/٣، ٤). وهو يفسر بعض الألفاظ الرباعية عن طريق النحت فيقول: "جاء الحبتر بالفتح مثل البُحتر ، أي القصير. وعندي أنها منحوته من الحب والبتر، والحبترة ضؤولة الجسم وقلته" (سر الليال ص ٤١). وهو ينعي على العرب إهمالهم لغتهم واستخدامهم لغات العجم بحجة مرونتها وسهولة التعبير بها ، ويرى النحت إحدى وسائل العربية لتنمية مفرداتها "العرب ...لم يقدروا لغتهم حق قدرها ولا عرفوا أنها الفاضلة .. ألا ترى أنهم عدلوا عنها إلى لغات العجم فاتخذوا من هذه ألفاظًا وهي في لغتهم أفصح وأحكم وأعذب منطقًا وأبهى رونقًا... وحتى لو فرضنا أن تلك الألفاظ لم توجد فيها فكان لهم مندوحة عنها إلى النحت الذي هو من بعض مبانيها" (السابق ص٣).

(ج) التثبت قبل ادعاء التعريب:

ينصح الشدياق بضرورة التحفظ والتثبت قبل الحكم على كلمة ما بأنها معربة ، فقد يتصادف اللفظ العربي مع اللفظ الأعجمي كما في كلمة "بعل" التي جاءت عربية بمعنى الزوج، والمالك، واليد، والثقل، وكل ما سقته السماء.. مطابقة كلمة "بَعْل" اسم صنم كان لقوم إلياس، وهو في العبرانية اسم مرادف لقولنا: الصنم (سر الليال ص ٦٨).

وهو لهذا يعجب من بعض المعجميين الذين يسارعون إلى القول بعجمة الكلمة دون سند لغوي ، يقول: "ومن أغرب ما تحل له (الفيروزابادي) انتصارًا للعجمية قوله في شرز: الشرز الغلظ والقطع والشدة والصعوبة والشديد والقوة... إلى أن قال: والمشرز كمعظم: المشدود بعضه إلى بعض المضموم طرفاه ، مشتق من الشيرازة أعجمية ...اهـ. لأنه إذا كان التركيب يدل على القوة والشدة فأي حاجة إلى اشتقاق المشرّز من الشيرازة؟ قال ابن السراج : مما ينبغي أن يحذر كل الحذر أن يشتق في لغة العرب شيء من لغة العجم فيكون بمنزلة من ادعى أن الطير ولد الحوت كما في المزهر" (الجاسوس ص ٣١١). ويقول: " من الغريب ما قاله الجوهري إن الحُبّ بالضمة: الخابية، فارسي معرب ، مع أن ذكر الماء والطل ونحوهما قد جرى في هذه المادة غير مرة بل هو من عين معنى الحُبّ، أعني المحبة" (سر الليال ص ٣٩).

ويختار الشدياق عربية كلمات مثل "البخت" و "البريد" و"الإبريز" مرجعًا إياها إلي أصول عربية فالبخت إما أن تكون من معنى "بخ"، أو مأخوذة من "البُخْت" وهي الإبل الخراسانية ، والبَخْات : مقتنيها ، والبَخيت والمبخوت: المجدود . أما لفظ البريد فقد قال عنه: "البريد يطلق على مسافة فرسخين أو اثني عشر ميلا . ومع وضوح اشتقاق لفظ البريد فإن أئمة اللغة ذهبوا بها كل مذهب ، قال ابن الأثير في النهاية : البريد فارسية أصلها البغل ، وأصلها : بريده دم ، أي محذوف الذنب ، لأن بغال البريد كانت مقطوعة الذنب . وأقول: أهل العربية كسوا هذه اللغة الشريفة ثوبًا غير لائق بها فتراهم أبدًا يحومون حول اللغات الأجنبية وينسبون إليها ما هو في العربية من خصائصها ومزاياها السنية . وفي المصباح: البريد: الرسول.. ثم استعمل في المسافة التي يقطعها...ويقال لدابة البريد بريد أيضًا فهو مستعار من المستعار. فأنت ترى أن المصباح

جعل البريد بمعنى الرسول أصلا وهو الحق" (السابق ص١٤١). وقال عن كلمة إبريز: "ذهبٌ إبريز: خالص . وفي المصباح أنه معرب ، وعندي أنه عربي من معنى الظهور" (السابق ص ١٤٣).

وبهذا نرى أن الشدياق في إثباته لعربية الكلمات لم يلجأ إلى الحدس والتخمين ، ولم ينخدع بالشبه الظاهري ، وإنما اعتمد على تشابه المعنى داخل المادة ، وإلى خصائص الحروف والأصوات . وهناك دليل آخر اعتمد عليه الشدياق في إثبات عروبة الكلمة، وهي أن تكون اسمًا لشيء معروف عند العرب: "نعم إني لا أنكر أن يكون قد دخل في لغة العرب بعض ألفاظ من لغة العجم وهي أسماء لأشياء لم تكن معروفة عند العرب كلفظة الإستبرق مثلا إلا أنَّ ما كان بخلاف ذلك لا ينبغي أن يحمل عليه ، فلا يصح أن يقال إن اللِّجام معرّب لأن العرب عرفت الخيل وما يلزم لها قبل جميع الأمم . ومن هذا القبيل الكنز والخوان..".

(كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ١٩٠/١)

(د) قبول المولد:

يرى الشدياق أن اللغة بنت الحياة ، ويعتقد أنه من غير المعقول أن تكون اللغة قد نشأت دفعة واحدة ، وإنما عن طريق النمو والتطور: "اللغة كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية لا يحدث شيء منها تامًّا كاملا من أول وهلة ولكن على التدريج". (سر الليال ص ٢٥).

وهو من أجل هذا يرى أن باب الوضع مفتوح أمام المولدين لأنه "يراعي به اللزوم والضرورة وتهذيب اللغة عن أن تُشان بالألفاظ العجمية"، ولأن العرب إذا كانوا قد قالوا كذا وكذا فقد "ساغ لنا أن نقول أكثر من ذلك مما تمس الحاجة إليه، فهم رجال ونحن رجال" (كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ٢٠٥/١).

وقد أعلن رأيه هذا بوضوح في خاتمة كتابه" الجاسوس على القاموس"، وقدم له العديد من الأدلة والبراهين، وألح عليه في كتاباته في "الجوائب"، يقول الشدياق:

"ولو أن العرب الأولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد وأسلاك التلغراف والغاز والبوسطة ونحو ذلك مما اخترعه الإفرنج لوضعوا له أسماء خاصة ناصة ، فهم على هذا غير ملومين ، وإنما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الأمور بأعيننا ولم نتنبه لوضع أسماء لها على النسق الذي ألفته العرب... أفيظن أحد أن لفظة المشير والسفير والوالي والمتصرّف والمدير ومجلس الشورى لا ينبغي أن تعد من الألفاظ العربية لأنها لم تكن معروفة للدولة العباسية . فإذا برّأ أحد تلك الدولة لعدم اتخاذها هذه الألفاظ إذ الحاجة لم تمس إليها لم يكن له أن يلوم دولة أخرى على اتخاذها مع وجود الحاجة ، فقس عليها غيرها" (السابق والصفحة). ومن الأدلة التي ساقها الشدياق على قبول ما نقل من ألفاظ عن المولدين من الكتاب والشعراء ما داموا متضلعين في العربية ما يأتي:

١- أن المولدين راعوا حق اللغة والتزموا قواعدها أكثر من العرب في الجاهلية لأنهم اعتقدوا أن اللغة وسيلة إلى فهم التنزيل والحديث الشريف فبالغوا في ضبطها ما أمكن. وهذا الأمر لم يكن يخطر ببال العرب قط.

٢-أنه لا يمكن أن يخطر ببال عاقل منصف أن الشاعر البليغ من هذه الطبقة يخترع ألفاظاً ليس لها أصل في العربية ، وهو بين ظهراني علماءَ ينتقدون على الطائر طيرانه، وعلى البعير وخدانه.

٣-أنه لو كان أحد من المولدين ألف كتابًا في اللغة لقبل لا محالة. فليس من الإنصاف أن تقبل روايته في اللغة ويرد كلامه في الشعر(الجاسوس ص ٥٢٠).

(هـ) قبول كل ما يمكن تصحيحه:

بدا الشدياق في كل كتاباته متوسعًا في قبول كل ما تناقلته كتب اللغة ما دام قد صح نقله، أو وجد له وجه في العربية يخرّج عليه. ولهذا كان دائمًا ينضم للرأي المجيز، ويجمع الشواهد لدعمه وتأييده ، ومن ذلك:

١-أنكر صاحب الكليات لفظ "المحسوسات" بناء على أن الفعل عنده رباعي فيلزم أن تكون المُحَسّات ، قال: أما حس الثلاثي فإنه جاء لمعان ثلاثة حسه: قتله، أو مسحه، أو ألقى عليه الحجارة المحماة.

وقد رد عليه الشدياق قائلاً: "إن حسّ الثلاثي ورد بمعنى أحس متعديا بنفسه، صرح به الصغاني في العباب... ومنه الحديث أن أعرابيا جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال له: متى حَسَسْت أُمّ ملدم؟ قال: وأي شيء أمّ ملدم؟ قال: الحمى سخنة تكون بين الجلد واللحم . فإنكار المحسوس مع شهرته على الألسنة والطروس تأباه النفوس". (الجاسوس ص٥٨).

٢- قال الفيروزابادي: "والسائر الباقي لا كما توَهَّم جماعات"، وقال الصغاني: "سائر الناس باقيهم وليس معناه جميعهم كما توهم من قصر في العربية باعه وضاقت في اختيار الغرائب رباعه"، وقال النواوي في تهذيب الأسماء واللغات : "أنكر الشيخ تقي الدين استعمال لفظ سائر بمعنى لجميع فقال هو مردود عند أهل اللغة معدود في غلط العامة وأشباههم من الخاصة".

وقد ذكر الشدياق من الأدلة ما يؤيد صحة الاستعمال ، فقد قال الجوهري: سائر الناس: جميعهم ، وقد ورد في شعر الأحوص وفي كلام الغزالي ، وذكره أبو منصور الجواليقي في أول كتابه "شرح أدب الكاتب" واستشهد على ذلك وإذا اتفق هذان الإمامان على نقلها فهي لغة . ويفهم من كلام الخفاجي أيضا أن أبا علي ومن تبعه أجازوا استعمال السائر بمعنى الجميع فكيف قال الصغاني: كما توهم من قصر باعه في العربية؟ (السابق ص ٢١٤، ٢١٥).

٣-قال الشدياق: المخابرة: المزارعة على بعض ما يخرج من الأرض وهو من خبرت الأرض إذا شققتها للزراعة . أما المخابرة التي تستعملها العامة وهي المشاركة في الإخبار فالظاهر أنها مولدة ، ولكنها ليست بعيدة عن منهاج العربية (سر الليال ص٥١).

٤-قال الشدياق: "باعه يبيعه بيعًا ، فهو بائع ، وأبعته بالألف لغة ، قاله ابن القطاع". (السابق ص٦٤).

٥-قال الشدياق: "برّاني صحيح ، قال في الدر المصون: قول سلمان الفارسي ، لكل امرىء جواني وبراني ، أي: باطن وظاهر". (السابق ص ١٣٧).

٦-أنكر الحريري استعمال "بين" مكررة في نحو قولك "المال بين زيد وبين عمرو". قال الشدياق: "وهو كثير في كلام العرب" وساق له شاهدًا من قول الأعشى:

بين الأشجّ وبين قيس باذخ

وقول عدي بن زيد:

بين النَّهار وبين الليل قد فصلا (السابق ص ٢٦٠) وغير ذلك كثير.

(و) توهم الأصالة أو الزيادة وتغير بناء الكلمة تبعًا لذلك:

يقوم ترتيب الكلمات في المعجم العربي على أساس الجذور ، ووضع الكلمات تحت أصولها بعد تجريدها من الزوائد . ولكن هناك كلمات كثيرة توهم العرب فيها زيادة الحرف الأصلي أو أصالة الحرف الزائد وصرفوها بناء على هذا التوهم مما غير بناءها ونقلها من وزن إلى وزن آخر ، ومثل هذا النوع من الكلمات يجب التنبيه في صيغته المتوهمة على أصله . ومن الأمثلة التي ذكرها الشدياق على ذلك ما يأتي:

١- المكان: الموضع والجمع أمكنة وأماكن ، توهموا الميم أصلا ، حتى قالوا: تمكن في المكان ، وهذا كما قالوا في تكسير المسيل: أمسلة (الجاسوس ص٣٢، ٣٣).

٢- أسنتوا: أي أصابتهم سنة جدب فإنهم توهموا أن السَّنَة يوقف عليها بالتاء. (السابق ص١٣٥).

٣- بعد أن ذكر أن الأوجه أن يكون وزن "أوّل" على "فَوْعل" بين علة منعه من الصرف وهي "شدة مشابهته لأفعل التفضيل لأنه مبدوء بالهمزة". وبعد أن ذكر أن وزن "أشياء": "أفعال" ذكر أنها منعت من الصرف تشبيها لها بفعلاء وعقب على ذلك بقوله: "وقد يشتبه الشيء بالشيء فيعطى حكمه". (السابق ص ٣٧٣).

٤- ذكر أن "المَرْهم" مأخوذ من "رَهَمَ" وأن العرب اشتقوا من الاسم "مرهم الجرح" على توهم أصالة الميم كقولهم "تمكحل" و "تمذهب" و "مردسه" أي رماه بحجر، وهو من المرداس لآلة الرمي. وقالوا أيضًا: مرحبك الله ..(السابق ص٣٩٥).

وقالوا كذلك "تمسكن" من "سكن" و "تمندل" أي تمسح بالمنديل و"مَخْرَقَ على الناس" أي كَذَبَ وموّه . وكما أنهم استعملوا هذه الأفعال على توهم أصالة أوائل

الحروف ، كذلك استعملوا غيرها على توهم أصالة الأواخر مثل "برهن" و "تسلطن" (سر الليال ص ٢١).

(ز) مشكلات جمع التكسير:

اعتبر الشدياق جمع التكسير من صعوبات اللغة العربية لما يأتي:

١- أنه أكثر من أن يحصر وربما كان للاسم الواحد عدة جموع كالناقة والعبد مما يقضي بالعناء والجهد (سر الليال ص٣).

٢-أنَّ الجمع قد يختلف باختلاف معنى المفرد فكلمة "حاجب" بمعنى بواب تجمع على حُجّاب وحَجَبة ، وكلمة حاجب للعظم فوق العين تجمع على حواجب (السابق ص ٤٢١).

كذلك يفترق معنى "عباد" عن معني "عَبيد" مع أن مفردها "عبد" فالعباد مختص بالله تعالى ، فيقال "عباد الله" والعبيد مختص بالناس فيقال "عبيد فلان" (الجاسوس ص ٢٠٥).

٣- أنَّ من جموع التكسير ما ليس جمعًا لمفرد ، بل جمعًا لجمع . فالسحاب الغيم مفرده سحابة وجمعه سُحُب . أما جمع السحابة فسحائب . والبيضة واحدة البيض، والبيض يجمع على بيوض (السابق ص ٢٠٦).

٤- أنَّ من جموع التكسير ما لا مفرد له مثل التجاويد والتعاشيب والتعاجيب والتباشير (السابق ص٢٠٧).

٥- أنَّ من جموع التكسير – مع اشتهاره –غير قياسي مثل جمع حاجة على "حوائج" (السابق ص ٢٢٨).

(ح) شيوع التصحيف في مرويات اللغويين:

لاحظ الشدياق شيوع التصحيف في المعاجم العربية وعزا ذلك إلى ثلاثة أسباب، اثنان منها يعودان إلى طبيعة الحرف العربي ، والثالث يعود إلى غفلة المعجمي ، وهذه الأسباب هي:

١-أنَّ كثيرًا من الكتابات القديمة وصلتنا بدون نقط أو شكل؛ لأن التصحيف لم يخطر لهم على بال ، أو كأنهم كانوا آمنين أن يطرأ على كلامهم تحريف أو غلط ، فلا تكاد تجد كتابًا قديما إلا على هذا النمط ، ومن هنا كثر الخلاف في الروايات واتسع المجال في التأويل ما بين نفي وإثبات واحتمال وإبتات" (الجاسوس ٣). كما أنه يَرُدُّ كثيرًا من أمثلة التصحيف فيما نقله الليث إلى هذا السبب فيقول: " ولا يخفى أن الكتابة في عهده لم تكن مضبوطة ، وخصوصًا في وضع النقط فأيسر شيء تبديل الفاء بالقاف والقاف بالفاء" (السابق ص٤١٤).

٢-أن حروف الهجاء العربية متشابهة في الرسم "كأنها نقوش أريد بها الزينة لما يرقم، كما يزين النقش الدرهم" (السابق ص٥) ، فلا عجب "أن تلتبس على قارئها وإن كان من أحذق الخلق .. فيقرأ المهمل منها معجمًا ، والمعجم مهملا" (السابق ص٣، ٤).

٣-أن اللغوي حين صادفته روايتان تحتملان التصحيف لتشابههما في الرسم لم يكن يجوز له أن يثبتهما أو يثبت إحداهما إلا بعد تحقق وتثبت يقوم على الأسس الثلاثة الآتية:

(أ)الاحتكام إلى القوانين الصوتية "فإن التعاقب إنما يكون من الحروف التي تكون من مخرج واحد مثل الباء والفاء، والتاء والطاء. فأما الراء والزاي فإنه جاء لفظ فيهما بمعنى واحد فمرجعه إلى التصحيف ، مثال ذلك قول المصنف: الشغربية: اعتقال المصارع رجله برجل آخر وصرعه إياه كالشغزبية.. وإنما حملته على التصحيف لأن اللفظة الأولى جاءت مقتضبة من دون فعل.. وقوله: اجترع العود: كسره، وهو تصحيف اجتزع؛ إذ ليس في مادة جرع مايدل على الكسر، ولم يحك هذا الحرف أحد غيره من أئمة اللغة (السابق ص١٨٦، ١٨٧).

(ب) الاحتكام إلى معنى كل مادة وترجيح إحدى الروايتين تبعًا لذلك ، وأكتفي بضرب المثالين الآتيين:

- قال الفيروزابادي في قاء: "وتقيأتْ تعرضت لبعلها وألقت نفسها عليه". وقد تشكك الشدياق في صحة هذه الكلمة وانتهى بعد مقارنة معنى كل من المادتين قاء وفاء إلى وقوع التصحيف فيها . ولندع الشدياق يعبر بكلماته: "قد طالما

أنكرت هذا الفعل المنكر ، واستوحشت منه ، إذا ليس من مناسبة بين القيء والدلال ، فهو مخالف لحكمة الواضع.. حتى راجعت لسان العرب فوجدت فيه في (فاء) ما نصه: تفيأت المرأة لزوجها تثنت عليه وتكسرت له تدللا وألقت نفسها عليه من الفيءِ وهو الرجوع. فسررت بذلك سرور من تتفيأ عليه امرأته. ولكن لم أقتنع بقول صاحب اللسان من الفيءِ، وهو الرجوع، فالأوْلى عندي أن يجعل من قولهم فيّأت المرأة شعرها إذا حركته من الخيلاء.. والريح تُفَيِّء الزرع والشجر أي تحركهما. ثم طالعت الأساس فوجدت فيه ما نصه: وفيأت المرأة شعرها. حركته خيلاء. وتفيأت لزوجها تكسرت له وتميلت غنجا. والمصنف ذكر فيأت المرأة شعرها في (سفه) لا في مادتها، فكأنه رأى السفاهة بها أولى مع عدم تحرجه من القيءِ". (السابق ص٤١٠، ١١ ٤).

- ذكر الفيروزابادي في مرد: "والمرداء: الرملة لا تنبت، والمرأة لا است لها".

وقد عقب الشدياق قائلا : "وهو تصحيف، والذي في اللسان والتكملة: وامرأة مرداء لا اسب لها بالباء الموحدة ، وهي شعرتها ا.هـ ، قلت: قد وقع المصنف مرة أخرى في هذا المضيق . وهو في مادة(مرد) غير معذور فإنها تدل على الخلو من الشعر وشبهه حتى قالوا إن المرداء للشجرة التي لا ورق عليها مجاز عن المرأة التي لا اسب لها فكيف لم يفطن لذلك؟" (السابق ص٤٤٠، ٤٤١).

ويعقب الشدياق على مثل هذا النوع من التصحيف قائلا : "ظهر لي بعد التروي أن كثيرًا من الألفاظ تصحف على أهل اللغة من دون أن يشعروا بها فمرت عليهم مرارًا ولكن بدون تعارف وما ذلك إلاَّ لأنهم لم يهمهم في الكلام التآلف" (السابق ص ١٨٤).

(ج) الاستيثاق من المصادر المختلفة والرجوع إلى أمهات كتب اللغة المطبوع منها والمخطوط، ومن أمثلة ذلك:

- رجوعه إلى اللسان والتكملة لإثبات التصحيف في عبارة "امرأة لا است لها" ورجوعه كذلك إلى مخطوطات أساس البلاغة للزمخشري لإثبات أن ما نسب إلى

الزمخشري غير صحيح: "فقد رأيت هذه الكلمة بالباء في ثلاث نسخ من الأساس إحداها في مكتبة المرحوم أسعد أفندي ، والثانية في مكتبة المرحوم عاشر أفندي وهما قديمتان صحيحتان ، والثالثة في مكتبة المرحوم محمد باشا الكوبريلي، فالزمخشري بريء مما نسب إليه" (السابق ص٤٤٠، ٤٤١).

- إثباته تصحيف الحُتُد إلى حُنُد بالرجوع إلى لسان العرب والصحاح والمحكم (السابق ص١٨٥).
- إثباته تصحيف اجتزع إلى اجترع بأنه "ليس في مادة جرع ما يدل على الكسر"، وبأنه " لم يَحْكِ هذا الحرف أحد غيره من أئمة اللغة" (السابق ص ١٨٧).
- رجوعه إلى الصحاح والعباب والأساس والمصباح والتهذيب واللسان وتاج العروس لإثبات التصحيف في تقيأت المرأة لزوجها ، إلى جانب الاحتكام إلى المعنى (السابق ص ٤١٠، ٤١١، وانظر كذلك سر الليال ص٤٦).

(ط) كيفية كتابة الهمزة:

يقترح الشدياق – على سبيل التسهيل – كتابة الهمزة بصورة واحدة . وقد تعرض لقضية الهمزة بشيء من التفصيل في صفحة كاملة من كتابه "الجاسوس على القاموس"، ومما جاء فيها:

١- أما رسمها في الخط وإبدالها من حروف العلة فيكاد يكون علما مستقلا يحوج إلى زمن طويل فلو أنها رسمت في الأصل بشكل مخصوص غير شكل الألف لاسترحنا من مشكلاتها ، فإني أرى المؤلفين غير متفقين على رسمها مع كثرة ما جعلوا له من القواعد والضوابط حتى إن بعضهم جعل الشاذ منه قاعدة كلفظة مسئول ومشئوم مثلا فجزم بأنه لابد من كتبها بالياء مع أن الياء لا مدخل لها هنا ، فالأولى أن تكتب بالواو مع بقاء واو مفعول وكذا رأيتها في الخطوط القديمة . ورأيت المرأة في النسخة الناصرية التي قرئت على المصنف من دون ألف ، وبعضهم يكتب التوأم بألف فوقها همزة وبعضهم يكتبها من دون ألف".

٢- بعد نقله الخلاف في كتابة لفظ "مئة" وقول بعضهم إنها كتبت "مائة" بالألف حتى لا تشتبه بكلمة "منه" عقب بقوله: "قلت: قوله للفرق بينها وبين (منه)، فهذا الفرق كان ينبغي مراعاته أيضًا في(فئة) فإنها تلتبس بـ(فيه) في نحو قولك: خرج من فيه بناء على ترك النقط . وقد أطربني جدًا ما حكاه الشيخ نصر الهوريني عن أبي حيان وهو قوله: وكثيرًا ما أكتب أنا مئة بلا ألف مثل كتابة فئة ، لأن زيادة الألف خارج عن الأقيسة".

٣- نقله عن أبي حيان قوله : "فالذي أختاره كتابتها بالألف دون الياء على وجه تحقيق الهمزة، أو بالياء دون الألف على وجه تسهيلها، قال وقد رأيت بخط النحاة (مأة) بألف عليها همزة دون ياء. وقد حكى كتب الهمزة المفتوحة ألفًا إذا انكسر ما قبلها عن حذاق النحويين منهم الفراء. روى أنه كان يقول: يجوز أن تكتب الهمزة ألفًا في كل موضع" (الجاسوس ص ٣٧).

(ى) التجمعات الصوتية المؤتلفة وغير المؤتلفة:

تحدث اللغويون القدماء ابتداء من الخليل بن أحمد عن التجمعات الصوتية التي تأتلف في اللغة العربية مكونة كلمات وعن الأخرى التي لا تأتلف ، ولا تدخل في تشكيل الكلمات ، فسموا الأولى مستعملة والأخرى مهملة.

وقد أشار الشدياق في كتبه إلى نفس الفكرة ، ولكنه زاد عليها فكرة جديدة وهي تقسيم التجمعات المؤتلفة إلى منتجة وعقيمة حسب كثرة فروع المادة ومشتقاتها أو قلتها.

وإذا كان اللغويون القدماء قد نسبوا عدم الائتلاف إلى قرب المخرج فإنه يبدو أن الشدياق لا يعتبر هذا السبب ولهذا عد من غائب اللغة العربية عدم وجود مواد مركبة من حروف خفيفة على اللسان: كلفظة ر س ت مثلا ، فإنها توجد أكثر اللغات ولا وجود لها في العربية ، وإنما توجد مركبة من كلمتين كقولك رست السفينة.. وقس عليه ج ر ت فلا تتألف : إلا بقولك: جَرَتْ، وجُرْت أنا. (سر الليال ص ٥).

أما إشاراته إلى المواد العقيمة فكثيرة منها:

١- غَـتّه في المـاء: غطّـه ، ومـثله غَسّه وغَمّتَه . وهو من الأفعال العقيمة (سر الليال ٢٨).

٢- ثم ولى رَتَّ: زَتَّ، وهذا التركيب عقيم (السابق ٣٠٢).

٣- تَـخَّ العَجـينُ تَخُوخـة: حمـض.. ثم تاخت الإصبع في الشيء.. ثم التخربوت ثم التخرور.. ثـم التخريص . ثـم التخوم . وهذا دليل آخر على أنه متى كان المضاعف عقيمًا كان ما بعده أيضًا كذلك" (السابق ص٢٧٩).

٤- تركيب سدأ عقيم (الجاسوس ص ٤٠٨).

٢- منهجيته المعجمية:

علـى الرغم من أن الشدياق لم يصرف همه إلى تأليف معجم عربي[١]، فإن العمل المعجمـي كان شغله الشاغل ، وعمله الدائب . وقد جاء اهتمامه بالمعجم نتيجة معايشته اليومية له سواء أثناء احترافه التدريس، أو اشتغاله بالترجمة واطلاعه على بعض المعاجم في اللغات التي يترجم منها أو ينقل إليها (انظر خلف الله: الشدياق ص ١١٠).

وبعد كتاباه "الجاسوس على القاموس"، و "سر الليال" من الأعمال المعجمية ؛ إذ خصـص الأول لـنقد القاموس المحيط وبيان أخطائه التي بلغت أربعة وعشرين خطأ، وقـدم له بدراسة عن التأليف المعجمي عند العرب ، وخصص الثاني لتحقيق فكرة راودته حـول المـادة المعجمـية تقـوم علـى رد الفـروع إلـى الأصول وتنسيق معاني المادة بطريقة تكشـف عـن مآخذهـا وعلاقاتهـا ومناسـباتها ، واتخـذ الفعـل المضـاعف أساسـا لهذا الترتيب.

ومعظـم آراء الشـدياق عـن المنهجـية المعجمية تجدها في مقدمة "الجاسوس" وفي ثـنايا نقداته للقاموس ، كما أنه أشار إلى بعضها في كتابه "سر الليال" ومن هذا وذاك يمكن أن نستخلص الأسس الآتية:

---

(١)سبق في ذكر مؤلفاته أنه ألف معجما ثلاثي اللغة (فارسي، تركي، عربي).

(أ)ترتيب المادة اللغوية:

ينتقد الشدياق ترتيب حروف المعجم "فإنه فصل بين الحروف الحلقية والمهموسة وغيرها ، وأنكرُ من ذلك أنه أقصى الواو عن الهمزة ، مع أنّ الواو كثيرا ما تقلب همزة لشدة ما بينهما من التآلف ، كما في التوكيد والتأكيد ، والتوقيت والتأقيت.. حتى قرر بعضهم أن كل واو كسرت أو ضمت فلك أن تقلبها همزة كما في وجوه وأجوه.. وغير ذلك مما لا يحصى، ولم نسمع قط أن الباء قلبت همزة مع أنها في الترتيب تاليتها. وأنكر من هذا وذاك أنهم جعلوا الياء آخر الحروف ونحن نرى الأطفال ينطقون بها وبالهمزة أول ما تنفتح أفواههم للنطق ، ولا يخفى أن معظم الأفعال المعتلة واردة من المهموز، وأن الهمزة كثيرا ما تقلب حرف علة (سر الليال ص ٢٢).

ولكنه لم يفطن إلى أن الترتيب الصوتي الذي اتبعه الخليل في معجم العين يحقق القدر الأكبر من مطالبه ، إذ يجمع الأصوات المتحدة المخارج معًا ، ويضع الهمزة إلى جانب الواو والياء. فكان حقه أن يتبنى في منهجيته الترتيب الصوتي ، وهو ما يبدو أنه رفضه لصعوبته (الجاسوس ص ٢٣) ؛ ولذا فإنه حين جاء إلى الاختيار اختار الترتيب الهجائي الذي نقده وأخذ يوازن بين طريقتي الصحاح وأساس البلاغة ثم اختار طريقة الأساس . يقول الشدياق في "سر الليال" بعد أن بين أن المضاعف هو الأصل وأن المعاني تدور على فاء الكلمة وعينها: "وبذلك تعلم أن هذا النسق لم يجر على ألسنة العرب عفوا، وأن تبويب الكلام في كتب اللغة على أواخر حروفه مفرّق لمعاني الألفاظ ومشتّت لمبانيها" (ص ٢٧). ويعيد نفس الفكرة في كتابه "الجاسوس" فيقول: "لا جرم أن الترتيب الذي جرى عليه الصحاح واللسان والقاموس مسهل للمطلوب وخصوصًا جمع القوافي، إلا أنّه فاصل لتناسق معانيها ومُوار لأسرار وضعها ومبانيها" (ص ٢٦).

ثم يقول: "فالأَوْلى عندي ترتيب الأساس للزمخشري والمصباح للفيومي أعني مراعاة أوائل الألفاظ دون أواخرها" (ص ٢٦، ٢٧). ويرد على من فضل طريقة الصحاح قائلا: "فإن قيل إن هذا الترتيب (الترتيب على الأوائل) لا يعين الشاعر على جمع الألفاظ التي تأتي على روي واحد فالأولى ترتيب الصحاح قلت الخطب هين . فعلى اللغويين أن يبينوا سرّ الوضع وعلى الشعراء أن يؤلفوا كتابًا في القوافي" (ص٢٧).

وإلى جانب اختيار الشدياق لترتيب مادة المعجم على الأوائل طبقًا للترتيب الهجائي المعروف قدم طريقة أخرى طبقها بمهارة في كتابه "الساق على الساق" وهي طريقة المجالات أو الحقول المعجمية . هذه الطريقة تقوم على تقسيم مادة اللغة إلى مفاهيم أو موضوعات يضم كل واحد منها الكلمات التي تندرج تحته مع بيان معنى كل لفظ وتوضيح علاقته بالكلمات الأخرى المصاحبة له في نفس المجال . (انظر علم الدلالة للدكتور أحمد مختار ص ٧٩ وما بعدها).

وليس "الساق على الساق" معجما حتى نتوقع منه أن يستوعب كل المجالات المعجمية ، وإنما هو كتاب في السيرة الذاتية تناول حياة مؤلفه حتى قدومه الآستانة فقط (يوسف نجم: أحمد فارس الشدياق ص ١٠٥). ومع هذا نجد المؤلف في المقدمة يغفل هذا الغرض الأساسي ، ويشير إلى غرضين: أولهما نص في العمل المعجمي والآخر استطاع بثقافته اللغوية الخصبة أن يحوله إلى عمل شبه معجمي . يقول الشدياق: "جميع ما أودعته في هذا الكتاب مبني على أمرين: أحدهما إبراز غرائب اللغة ونوادرها . ويندرج تحت جنس الغريب نوع المترادف والمتجانس والقلب والإبدال وإيراد ألفاظ كثيرة متقاربة اللفظ والمعنى . والأمر الثاني ذكر محامد النساء ، ومذامّهن فمن هذه المحامد ترقي المرأة في الدراية والمعارف، وحركات النساء الشائقة، وضروب محاسنهن المتنوعة التي لم يتصور منها شيء إلا وذكرته في هذا الكتاب(الساق ص٤ تنبيه).

ولهذا لا تغفل عين القارئ للكتاب عن هذا الغرض المعجمي الذي تغلغل في ثنايا مادة الكتاب حتى طغى على هدفه الأساسي غير المعلن. وقد تنبه الدكتور محمد يوسف نجم إلى هذه الحقيقة فذكر أن من أهداف الكتاب إيراد الألفاظ المترادفة والمتجانسة التي رتبها حسب المواضيع (ص ٨٦)، وأن ما ورد منها يشكل مجموعات طريفة من موضوعات مختلفة تتعلق بالفرد والكون والمجتمع مثل ألفاظ الأصوات والعشق، والناسك، وأسماء آلات الحرب، والنجوم، والفرش، والآنية، والطعام، والشراب وسواها(ص ١٠٤).

ويقول ناشر الكتاب في مقدمته :"رأيته قد اشتمل على فوائد جزيلة من سرد ألفاظ كثيرة من المترادف والمتجانس.. وخصوصًا لاشتماله على أخص ما يلزم معرفته من

الآلات والأدوات ، واستيفائه لجميع أصناف المأكول والمشروب ، والمشموم ، والملبوس والمفروش والمركوب والحلي والجواهر مما لم يوجد في كتاب غيره على هذا النمط".

ولم يكتف الشدياق بعرض الألفاظ المترادفة في أماكنها مصنفة حسب الموضوعات، فاستدرك ما أغفله منها في بابه" في الجدول المبين للألفاظ المترادفة " (مقدمة الناشر).

وهذه نماذج لكيفية تناوله لألفاظ المجالات، وهي في معظم الأحيان تأتي عرضًا أثناء الحديث عن أحد الموضوعات ومن ذلك:

١- ما أتى عليه من أسماء الجواهر استطرادًا بعد حديثه عن تفضيل النساء على الرجال، مثل:

- القصب: ما كان مستطيلاً من الجوهر، والدر الرطب، والزبرجد الرطب المرصع بالياقوت.
- الكبريت: الياقوت الأحمر، والذهب.
- المرجان: صغار اللؤلؤ.
- الخريدة: اللؤلؤة لم تثقب.
- الفريدة: المثْذر يفصل بين اللؤلؤ والذهب، والجوهرة النفيسة، والدر.
- الجُذاذ: حجارة الذهب.
- التبر: الذهب والفضة أو فتاتهما قبل أن يصاغا.
- السِّيراء: الذهب الخالص.
- الشَّذْر: قطع من الذهب تلقط من معدنه بلا إذابة، أو خرز يفصل بها النظم.
- النُّضار: الجوهر الخالص من التبر.
- الجَزَع: الخرز اليماني الصيني.
- اليَنَع: ضرب من العقيق.
- الصَّريف: الفضة الخالصة.
- الجُمان: اللؤلؤ، أو هنوات أشكال اللؤلؤ من فضة، أو خرز بُيّض بماء الفضة (ص٢٩٠ وما بعدها).

٢-ما ذكر من الثياب مثل:

- الجلباب: القميص، وثوب واسع للمرأة.
- القَصَب: ثياب ناعمة من كتان.
- المُعرَّجة: المخطَّطة في التواء.
- المُجَسَّدة: المصبوغة بالزعفران.
- الدثار: ما فوق الشعار من الثياب.
- السابرية: الثياب الرقيقة الجيدة.
- الصِّدار: ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشى الصدر (ص٣٠٧ وما بعدها).

٣- ما تناوله من ألفاظ الحب ودرجاته ، وسأنقله بنصه:

"ولا بأس للمتزوجات بقراءة كتابي هذا وأمثاله لأنه كما أن من ألوان الطعام ما يباح للمتزوجين دون غيرهم فكذلك هي ألوان الكلام. والظاهر أن اللغة العربية شَرَك للهوى إذ يوجد فيها من العبارات الشائقة المتصبِّبة ما لا يوجد في غيرها. فمن قرأتْ مثلا في شرح المشارق لابن مالك أن مراتب العشق ثمانية أدناها الاستحسان وينشأ عن النظر والسماع ثم يَقْوى بالتفكّر فيصير مودة وهي الميل للمحبوب، (أي المحبوبة) ثم يقوى فيصير محبة وهي ائتلاف الأرواح. ثم يقوى فيصير خُلّة وهي تمكن المحبة في القلب حتى تسقط بينهما السرائر . ثم يقوى فيصير هوى بحيث لا يخالطه تلوّن ولا يداخله تغير. ثم يقوى فيصير عشقًا وهو الإفراط في المحبة حتى لا يخلو فكر العاشق عن المعشوق (أي المعشوقة) وأنه يقوى فيصير تتيُّما وفي هذه الحالة لا ترضى نفسه سوى صورة معشوقه (أي معشوقته). ثم يقوى فيصير ولها وهو الخروج من الحد حتى لا يدري ما يقول ولا أين يذهب وحينئذ تعجز الأطباء عن مداواته. قلت: وإن من أنواعه أيضًا الصبابة وهي رقة الهوى والشوق والغرام وهو الحب المستأسر. والهُيام وهو الجنون من العشق. والجوى وهو الهوى الباطن. والشوق وهو نزاع النفس. والتُّوقان وهو بمعناه. والوجد وهو ما يجده المحب من هوى المحبوب (أي المحبوبة). والكَلَف وهو الولوع. والشَّغَف وهو إصابة الحُبّ الشَّغاف أي غلاف القلب أو حجابه أو حَبَّته أو سُوَيداءه. والشَّعف وهو أن يغشى

الحب شَعَفة القلب وهو رأسه عند معلَّق النياط منه. والشَّعْف وهو بمعناه. والتَّدْليه وهو ذهاب الفؤاد عشقًا – لم تتمالك أن تحس بهذه المراتب السنية كلها حالا بعد حال"(ص ٦٥).

(ب) الترتيب الداخلي للمادة :

أكثر ما ضايق الشدياق في المعاجم العربية ، غياب النسق في عرض مفردات اللغة تحت المادة الواحدة . فما دامت المعاجم العربية قد اختارت طريقة الجذور في ترتيب الكلمات، وكانت هذه الطريقة تقتضي سوق العديد من الفروع والاشتقاقات تحت المدخل الواحد ، فقد كان من المنطقي أن تتفطن هذه المعاجم إلى طريقة لترتيب هذه الفروع، وهو ما لم تفعله.

وقد ألح الشدياق على هذه النقطة في كتابيه "سر الليال" و " الجاسوس على القاموس" وبين الانعكاسات السلبية لهذه الفوضى على مستعمل المعجم. واقترح للخروج من هذه الفوضى منهجًا للترتيب الداخلي يقوم على أساسين هما اعتبار جانب اللفظ بتقديم المجرد على المزيد، والثلاثي على الرباعي، وجانب المعنى عن طريق البدء بالحسي قبل المعنوي، والحقيقي قبل المجازي واستيفاء معاني الكلمة قبل الانتقال إلى كلمة أخرى.

وهذه هي آراؤه في نصوص كلماته:

١- فيما يتعلق بالفوضى في سرد الكلمات يقول الشدياق: "إن من أعظم الخلل وأشهر الزلل في كتب اللغة جميعًا ، قديمها وحديثها ، ومطولها ومختصرها ، ومتونها وشروحها ، وتعليقاتها وحواشيها خلط الأفعال الثلاثية بالأفعال الرباعية والخماسية والسداسية ، وخلط مشتقاتها . فربما رأيت فيها الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي ، أو رأيت أحد معاني الفعل في أول المادة وباقي معانيه في آخرها.

ففي مادة (عرض) التي هي في القاموس أكثر المواد اشتقاقًا وتشعبًا ذكر الجوهري المعارضة التي بمعنى المقابلة بعد المعارضة التي بمعنى المجانبة بثلاثة وثلاثين سطرًا.

وصاحب القاموس أورد (احتمل الصنيعة) أي: تقلدها في أول المادة ، ثم (احتمل) أي اشترى الحميل للشيء المحمول من بلد الى بلد في آخرها ، وبينهما أكثر من ثلاثين سطرًا ، والشارح أورد في تاج العروس (اختلج) بمعنى تحرَّك بعد اختلج بمعنى نكح بنحو ستة وخمسين سطرًا. ولهذا أنصح مطالعي كتب اللغة ألا يقتصروا على فهم اللفظ في موضع واحد ، بل لا بد لهم أن يطالعوا المادة من أولها إلى آخرها . لا جرم أن هذا التخليط والتشويش في ذكر الألفاظ ليذهب بصبر المطالع ويحرمه من الفوز بالمطلوب فيعود حائرًا بائرًا" كما ذكر أن من سلبيات هذه الفوضى أنها تحوج الباحث إلى قراءة المادة كلها فيعود نشاطه ملالا ، وجده كلالا ، "وربما تصفح المادة كلها وأخطأه الغرض بخلاف ما إذا كانت الأفعال مرتبة على ترتيب الصرفيين فإنه ينظر أولا إلى الفعل الثلاثي ومشتقاته في أول المادة ، وإلى الخماسي والسداسي ومشتقاتهما في آخرها وإلى الرباعي ومشتقاته في وسطها، فلا يضيع له بذلك وقت ولا يكل له عزم، ولا يخيب سعي" (الجاسوس ص ١٠، ١١).

واعتبر من هذا النوع كذلك عدم بدء المادة بالفعل دائمًا: "ومن ذلك أنهم يبتدئون المادة باسم الفاعل أو المفعول أو الصفة المشبهة أو اسم المكان والآلة، عوضًا عن الابتداء بالفعل أو المصدر كقول الجوهري في أول مادة جزر: الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى ثم قال بعد أربعة عشر سطرًا: وجزرت الجزور واجتزرتها: إذا نحرتها وجلدتها فالجَزور على هذا فعول بمعنى مفعول فما معنى ذكره قبل الفعل؟ (الجاسوس ص ١٤).

بل رد الشدياق معظم ما فات اللغويين من ألفاظ صحيحة فصيحة إلى هذه الفوضى الداخلية فتراه يقول عن صاحب القاموس: "إن المصنف أهمل كثيرًا من الألفاظ التي ذكرها الجوهري مبسوطة مشروحة ، وأغربه ما كان في المواد القليلة الاشتقاق نحو (سهد) فإن المصنف أهمل فيها السهاد مع أن الجوهري ابتدأ المادة به.

وأعظم أسباب هذا الإهمال أنه لم ينسق ترتيب الأفعال ومشتقاتها على نسق الصرفيين . فمن يخلط في ترتيب الكلام على هذا المثال فلا بد وأن يفوته منه شيء" (الجاسوس ص١٠٧، ١٠٨).

٢- أما بالنسبة لضرورة بدء المعاني بالحسي منها فإن الشدياق يقول:

- ابتدأ الفيروز ابادي مادة عبر بعبرت الرؤيا ، والجوهري بالعبرة من الاعتبار، والفيومي بعبرت النهر. وهو الصواب لأن احتياج العرب إلى قطع النهر والوادي أشد من احتياجهم إلى تفسير الأحلام (سر الليال ص ٦١).
- "قد أجمعوا على أن المهذب للرجل الكامل مأخوذ من تهذيب الشجرة بناء على أن الأمور المعنوية أو العقلية مأخوذة من الأشياء الحسية ضرورة أن الحواس الظاهرة هي التي تبعث الحواس الباطنة على التفكير والتخيل وتقرير ذلك أن العقل مأخوذ من عقلت البعير ، والحِكْمة من حكَمة اللجام والذكاءِ لتوقد الذهن من ذكاءِ النار . وأصل معنى الإدراك من أدرك الرجل أحدًا إذا لحقه..."(سر الليال ص ١١).

٣- ويرى الشدياق كذلك ضرورة بدء المعاني الحسية بأبسطها فيقول: "واعلم أنه متى ما اجتمع معنيان في فعل من الأفعال الكثيرة الوقوع والاستعمال ينبغي تقديم الأبسط منها، كما في سبح مثلاً، فإنه يدل على العوم والحفر فنقول إن الحفر أول المعنيين لأنه أدنَى إلى الأحوال الطبيعية وألزم إلا أن كثرة الاستعمال غلبت المعنى الأول. وهذا الأمر قلما يعتبره أصحاب اللغة وخصوصًا صاحب القاموس، فإنه يبدأ بمتفرعات معنى المادة ويترك الأصل إلى آخرها" (سر الليال ص ١٣).

٤- ومما يراه الشدياق ضروريًا لتحقيق الترتيب الداخلي ذكر المعنى الحقيقي قبل المعنى المجازي ، ولهذا اعتبر من خلل المعاجم العربية "تقديم المجاز على الحقيقة ، أو العدول عن تفسير الألفاظ بحسب أصل وضعها".

ومثل لذلك بمادة "كتب" حيث بدأ "صاحب القاموس بقوله: كتبه كَتْبًا وكتابا خطه ، ومثله صاحب المصباح والزمخشري ، مع أن أصل الكَتْب في اللغة للسقاء . يقال: كتب السقاء أي خرزه بسيرين، وهو من معنى الضم والجمع ومنه الكتيبة للجيش. ثم نقل هذا المعنى إلى كتب الكتاب ، وحقيقة معناه: ضم حرف إلى آخر" (الجاسوس ص ١١).

ويطرح الشدياق اعتراضًا قد يوجه إلى هذا المبدأ ويرد عليه قائلا : "فإن قيل إن أئمة اللغة إنما يبتدئون المادة بأشرف ما فيها من المعاني، قلت كان عليهم بعد الفراغ من المجاز إذا كان أشرف المعاني أن يقولوا مثلا : وأصل هذا المعنى من قولهم كذا وكذا. لا جرم أن الابتداء بالأصل لا يخل بالترتيب فإن الجوهري ابتدأ مادة (خلق) بخلق الأديم وهو تقديره قبل قطعه.. وزاد الزمخشري على أن جعل خلق الله الخليقة مجازًا عنه" (الجاسوس ص ١١).

(ج) الربط بين المعاني الجزئية للمادة بمعنى عام يجمعها:

يرى الشدياق أن من واجبات المعجمي أن يقوم في كل مادة بالتماس المعنى العام أو المعاني العامة التي ترد إليها جميع المعاني الجزئية للمادة ، وهو ما يذكرنا بصنيع ابن فارس في معجمه المقاييس. بل قد حاول ما هو أكثر من هذا في كتابه "سر الليال"، حين قام بعملية الربط هذه بين المواد التي تختلف في بعض حروفها وتتفق في بعضها الآخر أو تختلف في ترتيبها ، وهو ما يذكرنا من جهة بالاشتقاق الأكبر عند ابن جني ، وما سماه بتصاقب الألفاظ لتصاقب المعنى من جهة أخرى (الخصائص ١٣٣/٢، ١٤٥).

والأمثلة كثيرة على النوع الثاني ، ونكتفي منها بالمثالين الآتيين:

١- يقول الشدياق: البحت الصرف ، والخالص من كل شيء ومثله: المحت والحتم والمحض (سر الليال ص ٤٧).

٢- ويقول:"لا بد من التسليم بأن العرب تعمدت معنى من المعاني ثم نسقت عليه الأفعال المتفقة حروف فائها وعينها نسقًا متفننا فيه ، فتارة قصدت نسبته إلى المعقول، وتارة إلى المحسوس ، مثال ذلك لفظة (كَسٌّ) أي دق دقًا شديدا فقد صاغت منه لفظة (الكسيس) للخبز المكسور، ثم قالت(كساً) بمعنى ضرب ، و (كسْء) من الليل : قطعة منه، فأجرت معنى الكسر على شيء غير محسوس، ثم قالت (كسب) فإذا تأملته وجدته لم ينقطع عن معنى الكسر أو القطع ثم قالوا (كسد) الشيء أي لم ينفق فضمنوه معنى القطع عن البيع ، ثم قالوا (كسر) ومعناه ظاهر، ثم (الكسط) بمعنى الغبار فبقيت مناسبة الكسر فيه ، ثم (كسعه) بالسيف ورجل (مكسَّع) إذا لم يتزوج فضمنوه معنى منقطع عن الزواج،

ثم (الكسفة) القطعة من الشيء . (وكسفت) الشمس والقمر . احتجبا فضمن معنى الانقطاع عن النور ، ثم (الكسل) فضمن معنى الانقطاع عن النشاط. وانظر أيضًا إلى غمّ وغمت وغمد وغمر وغمس وغمص وغمض وغمط وغمق وغمل وغمن وغمى فإنها كلها تدل على الستر والتغطية مع اختلاف المعاني."(سر الليال ص ٢٧، وانظر ص ٤، ٥).

أما النوع الأول الذي يقوم على ربط معاني المادة الواحدة بمعنى عام يجمعها، فهو الذي يهمنا هنا ، وهو الذي ينبغي على المعاجم العربية أن تتفطن إليه ، وأمثلته في كتبه المتعددة كثيرة ، ولذا سنقتصر على النماذج الآتية منه:

١- تغليط الفيروزابادي في اشتقاقه السُّرَية من السر للجماع ، وذهابه في اشتقاقها إلى أنها من السُّر بمعنى السرور. (السابق ص١١).

٢- اشتقاقه العمامة من عمَّ بمعنى شمل ، لأنها تعم الرأس (السابق ص ٢١).

٣- رده معنى" العبد" إلى عبد بمعنى غضب لأنه يغضب لمالكه (سر الليال ٥٨).

٤- قوله إن "حمو الرجل" و"حمو المرأة" مأخوذ من حمو الشمس وحقيقة معناه: من به حمو للغيرة على المرأة . ومثله لفظ الصهر للقرابة ولزوج بنت الرجل وزوج أخته فإن معناه في الأصل من الحرارة (السابق ص٥٨).

٥- ذكره أن للجبر معنيين أصليين هما ضد الكسر، والإجبار على الشيء. ثم أطلق الجبر على الملك والشجاع ويصح أن يكونا من كلا المعنيين، ثم على الغلام لأن فيه جبرا لأبيه. ثم قيل من المعنى الأول: جبر العظم ، وجبر الفقير ، والمتجبر : الأسد، والجبار: الله تعالى لتكبره، والنخلة الطويلة الفتية، والجبيرة.. إلخ (السابق ص٩٩).

٦- رده معنى "الفيء" إلى الرجوع ، ومنه سمي الظل فيئًا لرجوعه من جانب إلى جانب ، ومن معنى الرجوع أيضًا: الغنيمة والخراج ، وفي الحديث: الفيء على ذي الرحم ، أي العطف عليه والرجوع إليه بالبر (السابق ص ٢٦٣).

٧-رده معنى "السبت" إلى القطع . ومنه جاء السبت بمعنى حلق الرأس ، وضرب العنق ، ويوم من أيام الأسبوع لانقطاع الأيام عنده ويوم الراحة لانقطاع الإنسان عن العمل (السابق ص ٢٦٤).

(د) وضوح التعاريف وتعدد طرق التفسير:

يشترط الشدياق لصحة التعاريف شروطًا ثلاثة هي:

أولا: وضوحها ، وعدم إيقاعها في لبس.

ثانيا: تعدد طرقها.

ثالثا: خلوها من الدور والتسلسل.

أما بالنسبة لوضوح التعاريف فقد ألح عليه في كتبه وبخاصة في "الجاسوس" (المقدمة ٣) ، وعد من عدم الوضوح إيراد ألفاظ في التعريف لا ترد في مظانها مع توقف المعنى عليها كقول الجوهري في ربح: ربح في تجارته أي استشف ، ولم يذكر استشف في بابها ، وقول ابن سيده في بلد: البلد: كل قطعة مستحيزة من الأرض . ولم يذكر استحاز في حوز ولا في حيز (الجاسوس ص١٤ ، وانظر سر الليال ص ٢٦٠). كما عد منه ذكر اللفظ دون تفسيره كقول الفيرزابادي في بعر: "والبعار: الشاة تباعر حالبها ، وككتاب الاسم"، قال الشدياق: "ولم يفسره . وعبارة المحكم: باعرت الناقة والشاة إلى حالبها: أسرعت ، والاسم البعار". (الجاسوس ص٥٧).

وكقوله في صيف: "صيفت الأرض كعني فهي مصيفة ومصيوفة" قال الشدياق: "ولم يفسره ، وعبارة الصحاح: صيفت الأرض فهي مصيفة ومصيوفة إذا أصابها مطر الصيف. وعبارة المحكم: الصيف: مطر الصيف ونباته ، وصيفت الأرض فهي مصيفة إذا أصابها الصيف" (السابق ص٥٩).

وعد منه كذلك غموض عبارة الشرح كقول الفيروزابادي: "بخُس وتبخُس نقص ولم يبق إلا في السلامى والعين" قال الشدياق: "وهي عبارة مبهمة والواضح ما قاله الجوهري: بخُس المخ تبخيسًا: أي نقص ولم يبق إلا في السلامى والعين ، وهو آخر ما يبقى" (سر الليال ص ٥٥) . ولهذا قسا على الفيروزابادي في مقدمة جاسوسه لأنه في نظره – يبدل عبارة المعاجم الفصيحة إلى عبارة غامضة مبهمة حشوها عجمة قبيحة. ومن كان شأنه هكذا قلت به الثقة . لأن تعريف الكلام العربي ينبغي أن يكون فصيحًا مبينا، محكما رصينا ، وإلا مجه السمع ، ونبا عنه الطبع. (الجاسوس ص ٥٤).

وفي مكان آخر يعقب على عبارة للفيروزابادي بعد نقدها – يعقب بقوله: "فإن كتب اللغة ليست ألغازًا" (ص٤٩).

وأما بالنسبة لتعدد طرق التفسير، فقد ذكر منها المرادف، والمضاد، ووضع الكلمة في سياقاتها المختلفة . وليس له طريقة محددة يفضلها على غيرها فتارة يقنع بالمرادف وتارة يفضل المضاد عليه كتفضيله تفسير الحبس بضد التخلية على تفسيره بالمنع (سر الليال ص ٤٢) كما أنه في كثير من الأحيان يحذر من التعريف بالمرادف لعدم وجود التطابق التام في اللغة . (انظر ما سبق عن رأيه في الترادف) ، ولأنه ربما تعددت معاني اللفظ المفسِّر فلا يُعلم المراد منه بالتحديد ، ولهذا فهو ينصح بالحذر في استعماله.

والاقتباسات الآتية تكشف عن صعوبة التفسير بالمرادف في نظر الشدياق:

١- وصف الشدياق ابنة أحد الأمراء فقال: "كانت ذات طلعة بهية وشمائل مرضية تامة الظرف ، ناعسة الطرف". ولكنه استدرك على وصف طرفها بالنعاس فقال: "ولكن ليس المراد من ذلك أنها كانت لا تبصر من يحبها كما يكون من به نعاس ، وإنما المعنى أنها ذابلته". ولكنه عاد فاستدرك قائلا : "حتى ولا هذه العبارة مفصحة عما أريد أن أقوله فإنها توهم أنها كانت ذابلة مع أنها كانت غضة بضة" وعقب بمقصوده من الكلمة قائلا : "بل المقصود أن أقول إنها كانت تنظر عن تحشيف" وعاد فاستدرك قائلا : " ولكن مادة حشف لا تعجبني لأنها تدل على اليبوسة والخساسة والرداءة ، بل المراد أنها كانت تكسر جفنيها عن النظر"، واستدرك للمرة الرابعة قائلا : "ولا الكسر أيضًا لائق بها ، فلا أدري كيف ألحن للقاريء ما أردت . ولعل الأوفق أن يقال إنها كانت ترمي بسهام من عينيها ولم يكن صغر سنها مانعا من تتبيل من ينظرها" (السابق ص ٦٢).

٢- عد الشدياق من قصور المعاجم أنها حين تعرف لفظة بأُخرى لا تهتم بذكر الفرق بينهما بالنظر إلى تعديتهما بحرف الجر كقول الجوهري مثلا : الوجل: الخوف ، مع أن وجل يتعدى بمن وخاف يتعدى بنفسه . وكقوله أيضًا الجنف: الميل . وهو يوهم أنه يقال جنف عنه وعليه وإليه كما يقال مال عنه وعليه وإليه.. (الجاسوس ص ١٢).

٣- أخذ الشدياق على القاموس أنه يفسر الكلمة بكلمة أخرى لها معان مختلفة فلا يعلم المتعين منها ، كقوله: البغس: السواد ، وهو يطلق على اللون المعروف ، وعلى

الشخص ، والمال الكثير ، وعلى القرى ، والعدد الكثير، وغير ذلك. وقوله :البند: العلم الكبير ، وهو يطلق على الجبل والراية ، وسيد القوم ، وغير ذلك (السابق ص٢٠١).

أما وضع الكلمة في سياقاتها اللغوية المختلفة فهو أفضل وسيلة عند الشدياق ، وهو بذلك يتفق مع أصحاب المدرسة السياقية الذين يرون أن معنى الكلمة هو تسييقها ، أو وضعها في سياقاتها اللغوية المتعددة . والأمثلة كثيرة على حرص الشدياق على توضيح معنى الكلمة بذكر استعمالاتها المتنوعة والنص على مصاحباتها من الألفاظ، نذكر منها:

١- عرضه الفعل باع في تعبيراته السياقية المتعددة ، فيقال: باع زيدا الدار ، وقد يقتصر على المفعول الثاني، ويجوز الاقتصار على المفعول الأول عند أمن اللبس كقولك: بعت الأمير ، وقد تدخل " من" على المفعول الأول كقولك "بعت من زيد الدار" وربما دخلت اللام مكان "من" كقولك: بعتك الشيء، وبعته لك (سر الليال ص٦٤).

٢- ذكره لكلمات الألوان التي تأتي وصفًا للفظ الموت مثل:

- الموت الأحمر: وهو أن يتغير بصر الرجل من الهول فيرى الدنيا في عينيه حمراء وسوداء.
- الموت الأغبر: وهو الموت جوعًا . لأنه يغبّر في عينيه كل شيء.
- الموت الأسود: وهو الموت في غمة الماء .
- الموت الأبيض: وهو موت العافية ، أو موت الفجاءة ، لأنه يأخذ الإنسان ببياض لونه (السابق ص ٣٣٧).

٣- يمدح الشدياق الصحاح ويميزه على القاموس لحرصه على جملة أشياء منها "تعليم المركب من الكلام فضلا عن تعريف المفردات". ويمثل لذلك بقوله: "ما كنت عَمًا ، ولقد عممت عمومة ، وبيني وبين فلان عمومة ، كما يقال أبوّة وخؤولة ، وعُمّم الرجل: سُود لأن العمائم تيجان العرب ، كما قيل في العجم تُوّج"، وقوله: "أية غول أغْول من الغضب" ، وقوله: " دعني وعليّ خطئي وصوبي ، أي صوابي"، وقوله: "الإسجاح: حسن العفو ، يقال ملكت فأسجح ، ويقال: إذا سألت فأسجح ، أي سهّل ألفاظك وارفق".

ويفضل أساس البلاغة على جميع المعاجم لحرصه على عرض الألفاظ في تراكيبها فيقول: " وأشهر من تحرى تعليم المركبات مع السجع الزمخشري في أساس البلاغة ، فهذا الأسلوب انتهى إليه" (الجاسوس ص ٨١).

أما بالنسبة للشرط الثالث ، وهو خلو التعاريف من الدور والتسلسل ، فقد تناوله أكثر من مرة في كتابه "الجاسوس" واعتبر عدم التزامه من خلل القاموس يقول الشدياق في مقدمة كتابه: "ومن تعريفه الدوري والتسلسلي: باحة الدار: ساحتها، ثم قال في فصل السين: ساحة الدار باحتها...، تسنيم القبر: خلاف تسطيحه ، وفي سطح: تسطيح القبر: خلاف تسنيمه..، تسور الحائط: تسلقه: وفي سلق: تسلق الحائط تسوره" (ص ٨٦).

ويقول في نقده الرابع للقاموس: "في روح: الروح ما به حياة الأنفس وقال في تعريف النفس: إنها الروح، فيكون حاصل المعنى: الروح: ما به حياة الأرواح. فلو قال: الروح ما به حياة الإنسان أو الجسد لسلم من العجمة" (ص ٢١٧). ويقول تعقيبًا على قوله: "الضرس : السن": وقال في باب النون:السن: الضرس ، وهو تعريف دوري . والضرس غير السن ، وهو المتعارف بين الناس (ص٢٢٥). كما خصص النقد الثالث عشر من نقوده لتعريفات الفيروزابادي الدورية والتسلسلية وضرب أمثلة كثيرة عليها (ص ٣٠٢ -٣٠٣).

(هـ) الوقوف عند اختصاص المعجم:

يرى الشدياق أن على المعجمي أن يقصر مادته على ألفاظ اللغة غير القياسية، ولذلك اعتبر من قبيل التجاوز لوظيفة المعجم أن يهتم المعجمي بما يعد من المعلومات الموسوعية ، أو بما يعتبر من المشتقات القياسية ، أو بما يدخل في باب الفضول أو الاستطراد الذي لا فائدة فيه . وقد انصب كثير من نقده للقاموس على هذه النقطة التي اعتبرها من أقبح أنواع الخلل فيه.

وقد اعتبر من باب المعلومات الموسوعية التي يجب أن يتجرد منها المعجم "خواص الأشياء ومضارها ومنافعها مما حرص عليه صاحب القاموس كل الحرص؛ فكل

يعلم أن موضعها كتب الطب لا كتب اللغة" (سر الليال ص٦٠٧ وانظر الجاسوس ص ٣١٧). وكذلك المعلومات الجغرافية التي جعلت القاموس"عبارة عن كتاب في الجغرافية" (الجاسوس ص ٣٢) وذكر الأعلام "كأسماء المحدّثين والفقهاء وغير ذلك مما لم تكن العرب تعرف له عينا ولا أثرًا ، حتى إن المصنف من شدة تهافته على ذكر الأعلام أهمل ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف. ففي مادة رحم أهمل الرحمن والرحيم واجتزأ عنهما بذكر محمد بن رحمويه.. ورحيم كزبير.. ومرحوم العطار" (السابق ص ٨٠ ، ٨١ وانظر ص ٣٠٥ - ٣٠٨).

وقد اعتبر الشدياق تعرض الفيرزابادي إلى ما ليس من اختصاصه السبب في وقوعه في الأخطاء والأوهام التي لا تكاد تقع تحت حصر: "إن حق اللغة اقتصّ من مصنفه فإنه ربكه في أغلاط كثيرة في ذكر تلك الأعلام التي فضلها على كلام العرب . حيث جعل الابن أبا، والأب ابنا، والرجل امرأة، والمرأة رجلا ، والمدينة جبلا ، والجبل مدينة والغرب شرقًا، والشرق غربًا" (السابق ص٨١).

واعتبر الشدياق كذلك من باب الفضول واللغو ذكر ما يمكن الاستغناء عنه من المشتقات لقياسيته ، ولضرورة العلم به كإيراد الفعل المبني للمجهول بعد الفعل المبني للمعلوم ، وكذكر مصدر غير الثلاثي ، وكالنص على اسم المرة أو الهيئة أو الزمان أو المكان . ومن الأمثلة الكثيرة التي ذكرها نلتقط ما يأتي:

١- قال الجوهري: حابيته البيع محاباة . ولو حذف المصدر وأتى بلفظة تفسر الفعل لكان أولى لأن المصدر قياسي لا يلزم ذكره (سر الليال ص ٤٦).

٢- أهل اللغة لا يستوفون من كل فعل ثلاثي مشتقاته ومزيداته ، إذ لم أر في القاموس والصحاح: استبخله: عده بخيلا ، ولا باخله: غالبه بالبخل ، ولا تباخل: كما تقول تمارض وتباله (السابق ص٥٧).

٣- إيراد الفعل المجهول بعد الفعل المعلوم لغو لأنه حيثما وجد المعلوم المتعدي وجد المجهول . نعم إذا ثبت أن العرب لم تنطق بفعل إلا مبنيًا للمجهول فحينئذ يتعين ذكره (الجاسوس ص٢٤١).

٤- عقد الشدياق فصلا سماه "فيما ذكره من قبيل الفضول والحشو والمبالغة واللغو" ضمنه كثيرا من الصيغ القياسية التي لم يكن هناك داع لذكرها. (الجاسوس ص ٣٠٣ وما بعدها).

أما ما يدخل في **باب الفضول والاستطراد** ، ولا يعد من باب اللغة في شيء، ولذا لا يصح للمعجمي أن يذكره فقد استقى الشدياق أمثلته من القاموس الذي بلغ الغاية في ذلك حتى تجاوز كل حد ومن ذلك:

١- قول الشدياق : لم يزد القاموس شيئًا على العباب والمحكم إلا ما كان من قبيل الخرافات ، التي لا يتلفت إليها الثقات الأثبات، وذلك كخرافة الفقنس واللوف والزبعري والرخ والجزائر الخالدات ، وغير ذلك من المحالات (الجاسوس ص ٥٤).

٢- وقال الشدياق: ومما تصدى له من الحكايات التي لا تعلق لها باللغة أصلا حكاية ثلاث بنات كن لهمام بن مرة وكان أبى أن يزوجهن فأنشدت كل واحدة منهن بمسمعه بيتا ينبئ عن اغتلامها . وهي حكاية سخيفة تنبو عنها كتب المجون. ذكر ذلك في قنف ومثله ما ذكره في زول (السابق ص ٣١١ وما بعدها).

٣- ومن ذلك ذكره أسماء أصحاب الكهف (ص ٣٠٥) وأسماء جماعة من المخنثين (ص ٣٠٧).

٤- وكذلك قول الفيروزابادي: شحيثا كلمة سريانية تنفتح بها الأغاليق وقد عقب الشدياق قائلا : "قال المحشي: أي مناسبة بين هذا وبين كلام العرب ولغاتهم على أنه لغو من الكلام وباطل فلا تفتح به الأغاليق ولا ينبغي ذكره من المصنف لو كان صحيحًا ولا يليق" (ص ٣٠٩).

وقد أوقع تعرض الفيرزابادي لما ليس من اللغة في معجمه – أوقعه في الوهم والتخليط مما فتح الباب أمام الشدياق ليخصص نقده الثاني والعشرين لأوهام الفيروزابادي فيما خرج عن اللغة ، وعد منه حديثه عن النسطورية والبطريق ، وشمعون الصفا ، والذبيح ، والسقالبة ، والإسكندر وغيرها ، وكشف عن خلطه فيها واتخذه مادة للسخرية (الجاسوس ص٣٩٦ - ٤٠٣).

(و) وضع اللفظ المشتبه أصله في مظانه المختلفة:

هناك كلمات كثيرة في اللغة العربية يشتبه أصلها ومعرفة جذرها على اللغوي المتخصص فضلا عن ابن اللغة العادي. وقد كان هذا النوع من الكلمات محل خلاف بين المعجميين ، ولذا اختلفت مواضعه في المعاجم.

وكان رأي الشدياق وضع أمثال هذه الكلمات حسب احتمالاتها المختلفة في مظانها المختلفة مع الربط بين هذه المظان ، واعتبر من الخطأ الاقتصار على احتمال واحد. ومن أمثلة ما رأي وضعه في أكثر من موضع الكلمات الآتية:

١- كلمة "أثفية" التي وضعها الفيروزابادي في (أثف) و (ثفي) وله وجه. لأنه يقال: أثف القدر وآثفها وأثفاها وثفاها. وجاء من الأول: أثفه: تبعه وطرده وطلبه. وجاء من الثاني: ثفاه يثفيه ويثفوه . غير أن وزن الأثفية من أثف فعلولة ، وجمعها على فعاليل ومن ثفي أفعولة وجمعها على أفاعيل (الجاسوس ص٣٢).

٢- كلمة مكان التي أوردتها المعاجم في (مكن) و (كون)، وفسر ابن منظور وضعها في المكانين بقوله: "المكان: الموضع والجمع أمكنة وأماكن توهموا الميم أصلا .." (كون) ، وقوله "وقيل الميم في المكان أصل كأنه من التمكن دون الكون" (مكن) (السابق ص ٣٢، ٣٣).

٣- كلمة "ترجمان" التي أوردها اللسان في (ترجم) و (رجم) على اعتبار أصالة التاء أو زيادتها (السابق ص٢٩).

واعتبر الشدياق من التعنت الاقتصار على احتمال واحد أو تخطئة من اختار الاحتمال الآخر . ولهذا يقول عن كلمة كبريت ونحوها: "ذكر الكبريت في باب التاء.. بناءً على أصالة التاء لقولهم: كبرت بعيره: إذا طلاه بالكبريت والجوهري أورده في (كبر) فعامله معاملة العفريت . والمصنف تابعه على ذكر العفريت في (عفر) مع أنه ذكر له فعلا وهو تعفرت.. فكان ينبغي له أن يذكره في التاء أيضًا وينبه على أن أصله (عفر). كما قال في (رعش): الرعشن في النون وإن كانت النون زائدة ، لكني ذكرتها على اللفظ

وبينت الزيادة . ولكنه لم يبين زيادة النون في الضيفن. وهما من باب واحد" (السابق ص ٢٨٨ ، ٢٨٩).

ويقول عن كلمة "توأم" التي وضعها الجوهري في فصل التاء: "ذكر (الفيروزابادي) التوأم في مادة على حدتها بقوله: التوأم من جميع الحيوان المولود مع غيره في بطن ثم أعاده في (وأم). إلى أن قال: ووهم الجوهري في ذكر التوأم في فصل التاء . فانظر كيف يخطئ الجوهري وهو متابع له" (السابق ص ٣٩٣).

ويقول عن كلمة "مرهم" التي وضعها الجوهري في (رهم): "ذكر (الفيروزابادي) في (رهم) المرهم: طلاء لين يطلى به الجرح. ثم قال في تركيب (مرهم): المرهم دواء مركب للجراحات ، وذكر الجوهري له في رهم وهم والميم أصلية لقولهم مرهمت الجرح. قلت: قوله: "لقولهم مرهمت الجرح قد يقال إن ذلك على توهم أن الميم أصلية وهو من أساليبهم كقولهم تمكحل وتمذهب". (السابق ص٣٩٤ - ٣٩٥).

ويرى الشدياق أن ضرورة وضع الكلمة في مظانها المختلفة لا يستلزم التكلف في التحليل، ولهذا فهو ينتقد من وضع كلمة "استكان" في "سكن" ويرى أنها من الأجوف وأن مكانها (كين) يقول الشدياق: "ذكر استكان بمعنى ذل وخضع في (سكن)، افتعل من المسكنة أشبعت حركة عينه مع أنه ذكر كان يكين بمعنى ذل وخضع فالأوجه أن يكون استكان: استفعل منه . والإشباع إنما يرتكب لضرورة الشعر . والبيضاوي جعل اشتقاق استكانوا من (سكن) أصله استكن ، أو من استكون من الكون لأنه يطلب من نفسه أن تكون لمن تخضع له . وفيه من التكلف ما لا يخفى . والراغب ذكرها في كان الواوي" (السابق ص٢٩١).

ويرى الشدياق أنه في حالة تعدد المظان يجب على المعجمي الربط بين المظان المختلفة والإشارة إلى كل منها في الموضع الآخر ، ولذلك عقد فصلا في كتابه "الجاسوس" بعنوان: "النقد الحادي والعشرون: فيما ذكره في موضعين غير منبه عليه ، وربما اختلفت روايته فيه"، ذكر فيه كلمات مثل: أول ، واست ، وآنق ، وذرية ، والبذيء ، ودكان، وبستان، وربّان، واللات، وهات، ولِدة، وحاش (لله) وغيرها (ص ٣٧٢ وما بعدها).

ويحدد الشدياق أصولا معينة يكثر الخلط فيها، وهي المشتملة على علة يصعب ردها إلى الواو أو الياء مثل جبىَ جبا مما يؤدي كثيرا إلى الخلط بين الواوي واليائي (وانظر: أبى ، وذرى ، وروح ، ورنا ، وشكا).

وكذلك يكثر الخلط بين المعتل والمهموز مثل ذرية التي يشتبه وضعها في ذرأ أو ذري، وفئة التي يشتبه وضعها في فيأ أو فأو. ويكثر الخلط أيضا في الهمزة والنون: "وأكثر ما يزلق فيه أئمة اللغة من حيث إيراد الألفاظ هو ما كان فيه الهمزة والنون. فمزلقة الهمزة أن بعضهم يراها أصلية وبعضهم يراها منقلبة عن حرف علة"، " ومزلقة النون أطمّ وأعم فإنها تلتبس في أوائل الألفاظ وأواسطها وأواخرها ، مثال الأول: لفظة نرجس . ومثال الثاني: لفظة الحنزاب أي الديك . وقس عليه العنصر والعندل والعنصل، ومثال الثالث الربان والدكان والبرهان والبستان والعنوان وما لا يحصى من نظائرها" (انظر الجاسوس ص ٣٣، ٣٨، ٢٨٦ وما بعدها و ٣٧٢ وما بعدها).

(ز) وضع المعرب تحت لفظه:

سبق أن عرضنا رأي الشدياق ضرورة التثبت قبل ادعاء تعريب الكلمة . فإذا ثبت لدى المعجمي أن الكلمة معربة وجب عليه أن يعامل حروفها كلها على أنها أصلية ويضعها تحت لفظها دون ادعاء بوجود زوائد فيها . يقول الشدياق منتقدا الفيروزابادي لوضعه كلمة إستبرق في (برق) والأرجوان في (رجو): "ومن أمثلة الإجحاف : إيراد المصنف لفظة الإستبرق في برق فأنزل الألف والسين والتاء فيها وهي نصف الحروف منزلة استخرج . وكذلك أورد الأرجوان في رجو فأنزلها منزلة الأفعوان والأقحوان مع أنها عجمية فكان ينبغي أن تعامل معاملة العنفوان وبهذا الاعتبار أبعدها عن أصل وضعها، وحجبها عن طالبها، لأن الطالب يعتقد أن الهمزة والواو والنون فيها أصلية، وأن حكم (سألتمونيها) لا يجري على الألفاظ العجمية. وفي المطالع النصيرية أن الألف أصلية غير مبدلة من شيء في الحروف والأسماء المبنية والأسماء العجمية لأنها غير مشتقة ولا متصرفة فلا يعرف لها أصل غير هذا الظاهر فلا يعدل عنه من غير دليل"، ثم يقول: "وفي الواقع فإن اعتبار زيادة الحروف في الألفاظ العجمية أمر غريب لأن شأن المزيد أن

يستغنى عنه بالأصل الذي زيد عليه ، وهنا ليس كذلك إذ لا شيء من الهمزة والألف والنون في أرجوان زائد" (الجاسوس ص ٢٧، ٢٨).

ويقول منتقدا بعض اللغويين الذين يبحثون عن اشتقاقات عربية لكمات أعجمية: "ثم إن اعتبار هذه الزيادات أغرى الإمام ابن سيده والإمام النواوي باشتقاق الأندلس من مادة الدلس وهو الظلام، واعتبار النون لا محالة زائدة" ثم يمضي قائلا : "فما معنى كون النون لا محالة زائدة واللفظة عجمية. فهل يقال إذن إن النون والهمزة في إسرافين زائدتان حتى يرجع أصلها إلى السرف أو إن الهمزة في إسحاق زائدة حتى يرجع إلى السحق؟" (السابق ص ٢٩، ٣٠).

(ح) بيان درجة اللفظ في الاستعمال:

اعتبر الشدياق من وظيفة المعجم النص على درجة اللفظ في الاستعمال فقال: "من عادة المحققين من اللغويين أن ينبهوا على الفصيح من الكلام، وعلى غير الفصيح، وعلى الغريب، والحوشي، والمتروك، والمهمل، والمذموم، واللثغة، ونحو ذلك" ولذلك عاب على صاحب القاموس "إيراده الألفاظ إيرادا مطلقا من دون أن ينبه عليها" في حين أن غيره نبه على درجتها.

- فمما أطلقه صاحب القاموس ونبه عليه بعضهم بقوله: ليس بثبت ، أو لا أدري صحته، أو لا أحقه: الإردب: القناة التي يجري فيها الماء في باطن الأرض (الجاسوس ص١٣٠).
- ومما أطلقه ونبه غيره على أنه مختص ببعض القبائل العربية: الهَبَيْخة الجارية الناعمة وهي بلغة حمير (السابق ص١٣١).
- ومما ذكره من لغة العوام: "أعطني شحتلة من كذا أي نتفة" مع أن الصاغاني نبه على أن هذه الكلمة ليست من كلام العرب وأنها من كلام أهل بغداد. وقد تساءل الشدياق قائلا : "فإذا ساغ أن يروي عنهم الشّحتلة ساغ أيضًا أن يروي عن أهل الشام الشحتول والمشحتل بمعنى الصعلوك.. وساغ أيضا أن يروي عن غيرهم إلى ما لا نهاية (السابق ص ١٣٢، ١٣٣).

- ومما ذكره مطلقا مع نص غيره على أنه لثغة أو لهجة غير فصيحة قوله: "النات: الناس"، وقوله "الديش: الديك"، وقوله: " الثلتان: السلطان"، وقوله: الثابّة : الشابة وقوله: " اعتثم به بمعنى اعتصم" (السابق ص ١٣٤، ١٣٥).
- ومما ذكره مطلقا وهو نادر أو ضعيف جمع حدأة على حِداء بالمد ، وإثبات رقأ في الدرجة: صعد فيها ، والمعروف رقى ، وإثبات اسم المفعول من قرأ: مقريّ.. (السابق ص ٣٢١ وما بعدها) وإثبات كلمة "الأعصج" بمعنى الأصلع مع قول ابن سيده في المحكم: " رجل أعصج: أصلع، لغة شنعاء لقوم من أطراف اليمن لا يؤمن بها" (السابق ص ١٣٢).

٣- مواصفات المعجمي الناجح:

اشترط الشدياق فيمن يتقدم للعمل المعجمي جملة شروط رآها ضرورية لتحقيق الدقة المطلوبة . وقد رد إلى فقد هذه الشروط أو بعضها ما شاب العمل المعجمي العربي من هنات ، وأهم هذه الشروط:

(أ) تفرغه التام وإخلاصه للغته:

يرى الشدياق أن على المعجمي أن يتعامل مع اللغة تعامل المحب مع محبوبه ، فلا يشغل باله إلا بها، ولا يصرف همه عنها إلى غيرها، وهو يصور حبه لغته فيقول: "إن يكن المتقدمون قد اشتغلوا بهذه اللغة الشريفة فإني قد عشقتها عشقا ، وكلفت بها حقا، حتى صرت لها رقا. فأزهرت لها ذبالي ، وسهرت فيها ليالي." (سر الليال ص٢).

ويرد كثيرا من أخطاء اللغويين إلى عدم تفرغهم لها فيقول: "هذا الخلل فاش في غيره (غير القاموس) أيضا. وسببه توزيع أوقات هؤلاء المؤلفين على مصالح مختلفة. فينبغي لمن تصدى للغة ألا يشتغل بشيء آخر غيرها ، فإن اللغة العربية كالحرة تأبى الضرة" (السابق ص٢١) ويكرر نفس المعنى في كتابه الجاسوس فيقول: "من يتصدى للتأليف في اللغة العربية ينبغي له أن يقتصر عليها ولا يشرك بها شيئا فإنها كالزوج الحرة تأنف من الضرة" (ص ٧٣).

وينسب كثرة ما وقع فيه الليث من تصحيف إلى أنه "كان غنيا وعائشا بين ضرتين وهاتان الخطتان تحملان الإنسان على أن يرتكب ما هو أعظم من التصحيف والتحريف (الجاسوس ص ٤١٧).

كما ينصح من يؤلف في اللغة ألا يوزع فكره بين أكثر من عمل في وقت واحد ، لأن العمل اللغوي يحتاج إلى تروٍ ومراجعة وحسن تدبر "أعتقد أنه لم يكن لخلل كتابه (القاموس المحيط) من سبب سوى أنه كان رحمه الله في خلال تأليفه له مشتغلا بتأليف كتب أخرى ، فقد ذكر له الشارح في تاج العروس نيفا وأربعين مؤلفا فكان لا يراجع ما يكتبه في القاموس. وأعظم شاهد لذلك أنه لم ينسق الواو والياء في المعتل وكثيرا ما يكرر اللفظة في مادتها أو يحيل ذكرها في موضع ولا يذكرها فيه ، شأن من تنازعته الأشغال وتجاذبته خوالج البال" (السابق ص٧٣).

(ب) استنفاد المراجع الممكنة والتزام الأمانة العلمية:

يرى الشدياق أن على المعجمي أن يستنفد كل المراجع الممكنة قبل أن يثبت كلمة في معجمه ، وأن يذكر اختلاف الأقوال فيما يتعرض له من مسائل ، وألا يخفي شيئا من مصادره أو يحجب أسماء بعضها، وهو من أجل هذا يقسو على الفيروزابادي الذي كثيرا ما أخل بهذه الشروط فيقول: "فإن من تصدى للتأليف في العربية تعين عليه أن يذكر اختلاف الأقوال فيما يحرره من المسائل ولا يقول فيها بهوى نفسه ، ولا يعتمد فيها على حدسه ، ألا ترى أن شراح الحديث الشريف إذا أوردوا حديثا ذكروا الخلاف في لفظه ومعناه ، وكذلك المفسرون يذكرون اختلاف القراءات والتأويل فما ضر المصنف لو كان تروى في (تقيأت) وذكر الخلاف فيها. فإن قيل: إنه لم يكن عنده نسخة من التهذيب ولسان العرب وأساس البلاغة قلت هذا من قبيل قولهم: عذر أقبح من ذنب. أما أولا فلأنه شهد على نفسه بأنه جمع كتابه من المحكم والعباب، وصاحب العباب لم يذكر هذا الحرف فكان ينبغي له أن يفكر في سبب ذلك لأن العباب من الكتب الجامعة. والثاني أنه ألف قاموسه في زبيد بعد أن زار مصر وأخذ عن علمائها. فكيف يحتمل أنه لما كان بمصر لم يسمع بذكر اللسان ، وبالتنويه به؟ فليس من المحتمل أنه سافر من مصر من دون الحصول على نسخة من اللسان ، فمن ثم أقول: إما أنه لم يكن عنده نسخة من

اللسان وهو قصور ، وإما أنه كان عنده ولم ينقل منه حسدا فالقصور أعظم. ولكن إذا لم يكن عنده التهذيب واللسان في جملة كتبه فما معنى قوله في خطبة القاموس إنه صريح ألفي مصنف من الكتب الفاخرة. وأغرب من ذلك أنه مع شدة حرصه على ذكر أسماء الفقهاء والمحدّثين في مشارق الأرض ومغاربها لم يذكر الأزهري وابن منظور في جملتهم ولا في جملة المؤلفين. (الجاسوس ص ٤١٨). كما كان دائب الانتقاد للفيروزابادي لتجاهله هذين العالمين الجليلين فيقول عن الأول: "يتبين من كلام الشارح أن المصنف كان عنده التهذيب للأزهري فكيف قال إذن في الخطبة: (وكنت برهة من الدهر ألتمس كتابًا جامعا بسيطا. ولما أعياني الطلاب شرعت في كتابي الموسوم باللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب؟) (الجاسوس ص ٤٤١) ويقول عن الثاني: فأجدر بمن يأتي هذا الإسهاب لغير طائل أن يذكر ابن منظور الذي شرف أمة الإسلام بلسانه ، وأوضح مشكلات اللغة ببيانه وإنما هو الحسد. كم أضنى من جسد، وأذكى من كمد، وأوهى من جلد، وألقى في كبد "(السابق ص٤١٩).

(ج) تمكنه من قواعد الصرف:

لما كان أساس ترتيب الكلمات في المعجم تجريدها من الزوائد وردها إلى أصولها فإن على المعجمي أن يكون على دراية كافية بقواعد تصريف الكلمات. وتمييز مجردها من مزيدها ، وتحديد أحرف الزيادة من بين حروفها ، وعلى معرفة بالأصول الواوية واليائية، وعلى مقدرة في تمييز المعتل من المهموز. وقديما عيب على ابن دريد كثرة أخطائه الصرفية في معجمه الجمهرة حتى قال عنه ابن جني: "فيه أيضا من اضطراب التصنيف وفساد التصريف ما أعذر واضعه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر. ولما كتبته وقعت في متونه وحواشيه جميعا من التنبيه على هذه المواضع ما استحييت من كثرته" (الخصائص ٢٨٨/٣).

وقد مرت أمثلة كثيرة للكلمات التي تشتبه أصولها. ونضيف الآن أمثلة للكلمات التي أخطأ المعجميون في معرفة أصولها ، كما ذكر الشدياق:

١- وضع آنقني الشيء ، أي أعجبني في "أنق" و "نيق" والصواب أن يذكر في أنق فقط. فإن أصله أأنقني فقلبت الهمزة الثانية ألفا كما قلبت في آمن. ولو كان من نيق لقلت: أناقني ، كما تقول أصارني وعلى الأصل أنْيقني.
٢- وضع الفيروزابادي حرف (ي) مقابل مادة رنا، وهي واوية.
٣- ذكر الفيروزابادي "الحارة" في "حير" وموضعها في الواو.
٤- وضع "التميمة" في "تمم" و "تيم" والصواب ذكرها في تمم فقط لأنها تفاؤل بتمام عمره.
٥- التخليط في إيراد مضعف الرباعي فهم يوردونه تارة في مضعف الثلاثي على مذهب الكوفيين، كما فعل الفيروزابادي في "شلشل" وتارة يفردونه بمادة على حدتها كما فعل الفيروزابادي في "سلسل".
(الجاسوس ص٢٩٠-٢٩٣، ٥٠٠ وانظر سر الليال ص ٣٢).

ويدخل كذلك في التمكن من قواعد الصرف المعرفة بأجناس الكلام كاسم الفاعل والمفعول وصيغة المبالغة والمصدر واسم المصدر. وقد عاب الشدياق على الفيروزابادي خلطه بعض الأجناس ببعض كخلطه المصدر باسم المصدر (انظر الجاسوس ص ١٩٦ - ١٩٨) ، ويدخل كذلك توزيع الجموع على مفرداتها فلا يقع فيما وقع فيه الفيروزابادي حين قال: " الرزيئة: المصيبة كالرزء...ج أرزاء ورزايا" فالأول جمع الرزء ، والثاني جمع الرزيئة" (السابق ص ٢٠٥).

(د) معرفته بعدد من اللغات الأجنبية وبخاصة السامية:

يجب على اللغوي أن يعرف عددًا من اللغات الأجنبية لأنه يحتاج إليها في:
١- الحكم بتعريب كلمة أو عربيتها.
٢- الاستعانة بالأصل السامي في تفسير الكلمة أو ردها إلى أصلها.
٣- الوصول إلى جذر الكلمة بناء على الحكم بعربيتها أو عجميتها.
٤- نسبة الكلمات المعرّبة إلى لغاتها الأصلية.

والاقتباسات الآتية من نص كلام الشدياق تدل على ما ذكرنا:

- ذكر صاحب المصباح.. النرجس في رجس ، وقال إن النرجس معرب ونونه زائدة باتفاق . قال الشدياق: "والغرابة هنا.. أنه أقر أولا بأنه معرب ، ثم قال إن نونه زائدة ، وهو عندي تناقض محض ، لأن نونه في أصله أصلية لأنه معرب نركس كما في العباب ، فهل يقال إنه بعد التعريب صارت نونه زائدة؟ " (الجاسوس ص ٢٨).

- أورد الفيروزابادي الكروبيين بخففة الراء في "كرب" وفسرها بسادة الملائكة. قال الشدياق: "وهي لفظة عبرانية أصلها كروبيم ومفردها كروب فإن الياء والميم في هذه اللغة علامة الجمع . وقد ذكرت في التوراة غير مرة وترجمت إلى سائر اللغات بهذا اللفظ ، واشتقاقها من فعل يدل على القرب" (السابق ص ٢١١).

- أخطأ الفيروزابادي في كثير من محاولاته رد المعرّب إلى أصله وقال الشدياق: "كقوله في الترياق إنه من اليوناني.. مع أن القاف لا توجد في لغة اليونان ولا في غيرها" (السابق والصفحة).

- قال الشدياق: "النعت بالصفا (شمعون الصفا) لقب أحد الحواريين المشهور باسم بطرس . وكان يقال له أولا شمعون فشبهه عيسى عليه السلام بالصخرة وهي في اللغة اللاتينية واليونانية بتروس فعرّبها نصارى الشام بطرس ، واستعملوا مرادفها في العربية وهو صفا ، وهو في أصل اللغة جمع صفاة وهي الصخرة الملساء ، فليس هو مصدرًا لصفا يصفو كما توهمه المصنف" (السابق ص٣٩٨، ٣٩٩).

- قال الفيروزابادي إن اشتقاق الاسم "موسى" من الماء والشجر، فمو: الماء، وسا: الشجر. وقال صاحب الكليات: إنها من السريانية. وقال صاحب اللسان: هي بالعبرانية موشى، ومعناه الجذب، لأنه جذب من الماء. وعقب الشدياق على هذه الآراء قائلا :

١- لا دخل للسريانية هنا.

٢- الأحرى أنه من لسان القبط القديم فإن ابنة فرعون لم تكن يهودية حتى يكون اللفظ عبريًا.

٣- عبارة التوراة: ولما كبر الصبي جاءَت به أُمه إلى ابنة فرعون فاتخذته ابنًا لها وسمته موسى ، قالت لأني انتشلته من الماء.

٤- اسم موسى في التوراة: موشى بغير إشباع ومعناه منشول.

٥- لفظ موسى لايدل على الماء وإنما تدل عليه قرينة الحال (السابق ص٣٩٩).

(هـ) تنبهه لاحتمالات التصحيف:

من أهم مواصفات المعجمي العربي يقظته الشديدة ، وحساسيته المرهفة وتنبهه لاحتمالات التصحيف أو التحريف حين يبدو أحد المعاني نافرًا عن القواعد الصوتية أو الاشتقاقية ، أو عن المعنى العام للمادة.

وقد سبق التمثيل لذلك أثناء الحديث عن منهجيته المعجمية ، ونضيف هنا تشبيهًا طريفا استعمله الشدياق وهو تشبيه من يروي الكلمات محرفة أو مصحفة "بتاجر يبيع الخرز على أنه ياقوت" (الجاسوس ص١٣١).

(و) غوصه على المعاني ودقته في ربط ما يبدو منها متنافرًا:

من أهم مواصفات المعجمي العربي كذلك قدرته على التجريد ، والربط بين المعاني الجزئية أو المتنافرة وقد سبق التمثيل للمعاني الجزئية أثناء الحديث عن منهجيته المعجمية.

أما ربط المعاني المتنافرة فيتمثل بوضوح في الكلمات ذات المعاني المتضادة. وقد أجاد الشدياق التمثيل لهذا النوع من الكلمات والتماس الأسباب التي أدت إلى وجوده، ومن ذلك تفسيره التضاد على أنه من باب حمل النقيض على النقيض، وقوله"والغالب في هذا الأسلوب أن يكون المعنى المنفور منه هو الأصل ، ثم تستعمله العرب بنقيض معناه جبرًا له عما فاته ، وهو على حد قولنا للأعمى بصير. والسبب

الثاني: اختلاف الرأي والنظر في موصوف ما. والسبب الثالث كون صيغة الفعل من أصله تحتمله كما في باع الشيء بمعنى باعه وبمعنى اشتراه فإن أصله من مد اليد. " (سر الليال ص ٣٣).

وتفسيره إطلاق الأبَد على الولد الذي أتت عليه سنة بأنه من قبيل التفاؤل بأنه يعيش أبدًا (السابق ص٣٤).

وتفسيره التضعيف بمعنى الزيادة على الشيء والنقص منه بأن"بناء الزيادة من الضَّعف بمعنى المثل ، وبناء النقص من الضُّعف الذي هو ضد القوة".(الجاسوس ص٢٩٨).

مراجع البحث

١-أحمد فارس الشدياق – د. محمد يوسف نجم – رسالة دكتوراة من الجامعة الأمريكية ببيروت ١٩٤٨.

٢-أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية – د. محمد أحمد خلف الله معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٥.

٣-الجاسوس على القاموس – أحمد فارس الشدياق – القسطنطينية – طبع الجوائب ١٢٩٩ هـ.

٤-الخصائص – ابن جني - دار الهدى – بيروت – ط. ثانية.

٥-الساق على الساق فيما هو الفارياق – أحمد فارس الشدياق باريس ١٨٥٥ .

٦-سر الليال في القلب والإبدال – أحمد فارس الشدياق الآستانة ١٢٨٤ .

٧-علم الدلالة – د. أحمد مختار عمر - دار العروبة بالكويت – ١٩٨٢ .

٨-القاموس المحيط للفيروزابادي.

٩-كنز الرغائب في منتخبات الجوائب – مجموعة مقالات كتبها أحمد فارس الشدياق وجمعها ابنه سليم الآستانة سنة ١٢٨٨هـ وما بعدها.

ابن منظور اللغوي

العالم الحائر بين مصر وليبيا وتونس*

مـن أعلام اللغة والأدب الذين تفخر بهم الأمة العربية جمعاء ، وتعتز بانتسابهم إلـيها: عبد الله محمد بن المكرَّم أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي القاسم الملقب بجمال الدين والمشهور بابن منظور.

ولا تـرجع شُـهْرة ابـن مـنظور إلـى معجمـه الموسـوعي الضـخم "لسـان العرب" فحسـب، وإنمـا كذلـك إلى مئات الكتب والمجلدات التي تركها بخطه ، وبعضها تأليف، وبعضـها اختصـار. يقول الصفدي في "نكت الهميان": "لا أعرف في الأدب وغيره كتابًا مطـولا إلا وقـد اختصـره". ويقـول السـيوطي: "واختصر كثيراً من كتب الأدب المطولة كالأغـاني والعقـد والذخيرة ومفردات ابن البيطار. ونقل أن مختصراته خمسمائة مجلد". ومن آثار ابن منظور المطبوعة – إلى جانب لسان العرب – مختار الأغاني ، وأخبار أبي نواس، وثمار الأزهار في الليل والنهار. أما المخطوطة فمنها: مختصر تاريخ دمشق، وتواريخ الشعراء، وتهذيب الخواص من درة الغواص، ومختصر مفردات ابن البيطار[١].

وقد ولد ابن منظور في شهر المحرم من عام ٦٣٠ هجرية[٢] (يوافق شهر نوفمبر من عام ١٢٣١ ميلادية)[٣]. وتوفى عام ٧١١هجرية (يوافق ١٣١١م) ، فيكون قد عاش نحوا من واحـد وثمـانين عامـا هجـريا. وقـد كان امتداد عمره ، إلى جانب نشأته في أسرة علمية عـريقة ، مـن أهم الأسباب التي مكنت ابن منظور من إنجاز هذه الأعمال الضخمة التي خلفهـا مـن ورائـه. يقـول الأسـتاذ أبـو القاسم كرو متحدثًا عن أسرة ابن منظور: "ابن منظور من أسرة علمية عريقة، اشتغل معظم أبنائها بالقضاء، وكان لهم في العلوم الدينية

---

* نشر في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد.

(١) انظر : ملتقى ابن منظور ص ٤٢-٤٦ .

(٢) الدرر الكامنة ٣١/٥ ونكت الهميان ص ٢٧٥ .

(٣) راجع The Muslim Christian Calendars

والأدبية مكانة محترمة". وقد ذكر من أفراد أسرته خمسة رجال تولى منهم أربعة منصب القضاء ، وتلقبوا جميعهم بألقاب أهل العلم والقضاء في تلك العهود ، فقد لقب والده بجلال الدين وأخوه بشرف الدين وجده بنجيب الدين ، وابنه بقطب الدين. ويحدثنا ابن منظور عن أحد مجالس والده فيقول: "كنت في أيام الوالد - رحمه الله - أرى تردد الفضلاء إليه ، وتهافت الأدباء عليه . ورأينا الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف التيفاشي في جملتهم وأنا في سن الطفولة لا أدري ما يقولونه"[١].

* * *

وقد ظل ابن منظور في جميع المراجع القديمة وحتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري يحمل نسبتين اثنتين فقط هما " المصري" و "الإفريقي". وقد وردت نسبة "الطرابلسي" أول ما وردت في كتاب يحمل اسم "المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب" لأحمد بك النائب الأنصاري ، ظهر جزؤه الأول عام ١٣١٧هـ= ١٨٩٩م ، فقد ترجم هذا المؤلف (وقد توفي عام ١٨٩٧م) لابن منظور ضمن علماء طرابلس وقال عنه "الطرابلسي نزيل مصر"[٢].

وتلقف بعض المعاصرين الليبيين هذه النسبة فأخذوا يلحون عليها ، ويحاولون إثباتها بشتى الطرق . وأشهر هؤلاء:

١- الأستاذ علي مصطفى المصراتي ، الذي قال في كتابه "أعلام من طرابلس[٣]": "ابن منظور صاحب لسان العرب طرابلسي نشأة وأصلا ، وفرعا ومتنا".

٢- الشيخ الطاهر الزاوي الذي قال في كتابه "أعلام ليبيا"[٤] ما خلاصته:

---

(١) ملتقى ابن منظور ص٢٩، ٣٠ .

(٢) ١٦٩/١ .

(٣) ص ٦٩ .

(٤) ص ٣٠١، ٣٠٢ .

أ- لم يذكر أحد ممن ترجموا له أنه طرابلسي إلا أحمد النائب المؤرخ الطرابلسي.

ب- لا نسيء الظن بغير النائب ، ولكنهم جهلوا ما علمه. فالنائب طرابلسي عالم بعلماء طرابلس وبالأسر الطرابلسية ، وقد أدرك بعض أفراد أسرة ابن مكرَّم مما جعله يجزم بأن ابن مكرم طرابلسي.

جـ- ذكر أكثر من ترجموا له أنه تولى قضاء طرابلس ، ويبعد أن يكون ولد بمصر ثم جاء إلى طرابلس وتولى بها القضاء عدة سنين ثم رجع إلى مصر ومات بها.

د- أسرة ابن مكرم تنتمي إلى رويفع الأنصاري، ورويفع كان أمير طرابلس، ولاه معاوية إياها سنة ٤٦هـ .

هـ- أقرب الآراء إلى القبول أنه بعد أن تولى قضاء طرابلس واتسعت مداركه العلمية رأى أن إشباع رغبته العلمية لا يتسع له المحيط الطرابلسي فانتقل إلى مصر وتولى فيها رياسة ديوان الإنشاء ، وبقي بها حتى توفي.

و- يجب الرجوع إلى ما قاله النائب لأنه أمين فيما نقل وعالم فيما كتب ، وابن منظور لا يضيره أن يكون طرابلسيا، كما هي الحقيقة.

٣- الأستاذ علي الفقيه حسن الذي لم يترك فرصة إلا تحدث فيها عن ابن منظور بوصفه ليبيا ، وكتب عدة مقالات لمحاولة إثبات ذلك. وهو في حججه لا يخرج عما ذكره الأستاذ الزاوي ولكنه أضاف أن أسرة ابن مكرَّم كانت معروفة بطرابلس وانقرضت منذ قرن تقريبًا[1].

ورغم أنني لست ممن يحبون نسبة العلماء – وبخاصة في العصور الإسلامية الأولى – إلى إقليم بعينه ، لأنهم بعلمهم يتجاوزون الحواجز ، ويتخطون الحدود المصطنعة ، ورغم أنني أومن بأن من الصعب أن ينسب العالم العربي – فيما قبل العصور الحديثة- إلى بلد معين نظرًا لكثرة الأسفار فيما مضى وعدم الإقامة في مكان واحد وحب التنقل من بلد إلى بلد – أقول رغم هذا وذاك فإنني أرى ضروريًا الوقوف أمام دعوى

---

(١) انظر مثلا مجلة المجمع العربي بدمشق مجلد ٣٢-٣/٤٦٦ وما بعدها .

أحمد النائب ومن تبعه لمناقشتها ، لا تعصبا ، وإنما قصدا للتمحيص التاريخي، ومحاولة للوصول إلى الحقيقة ، خصوصًا وأن صلة ابن منظور بطرابلس الغرب – حتى على سبيل الإقامة الجزئية– مشكوك فيها ، بل يكاد ينفيها التمحيص التاريخي نفيًا باتًا.

١- وأول شيء لا مجال للشك فيه ما سبق أن ذكرناه من أن أحمد النائب هو أول من أطلق هذه النسبة: الطرابلسي ، وهو قد أطلقها دون أن يقدم أي إثبات أو دليل.

٢- قد يقال كما قال الزاوي "إن النائب طرابلسي ، عالم بعلماء طرابلس وبالأسر الطرابلسية". ولكن قد يكون مفاجأة للقارئ إذا قلنا إن ترجمة النائب ليس فيها كلمة واحدة جديدة، وأنه لم يضف فيها حرفًا واحدًا على ما ذكره غير الطرابلسيين. وهو ينقل نقلا حرفيًا عن كتب التراجم السابقة مثل بغية الوعاة للسيوطي، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، ونكت الهميان في نكت العميان لخليل بن أيبك الصفدي.

وقد أحس الأستاذ علي مصطفى المصراتي نفسه بعدم قيمة هذه الترجمة ، فقال في مقدمة تحقيقه لكتاب "نفحات النسرين" لأحمد النائب ما نصه: "اكتفي بمجرد الترجمة العادية ، تلك الترجمة المتداولة والتي لاكها السيوطي وغيره"[١]. واعترف بأن أحمد النائب لم يقدم دليلا على دعواه ، واتخذ من عدم إشارة ابن غلبون[٢]إلى ابن منظور دليلا على تثبت ابن غلبون أكثر من النائب[٣]. فأين إذن ثمرة علم النائب بالأسر الطرابلسية؟

---

(١) نفحات النسرين ص ٤٧ .

(٢) في كتابه المسمى: التذكار فيمن ملك طرابلس، وما كان بها من الأخبار. وقد كان ابن غلبون أقدم من أحمد النائب إذ عاش الأول في القرن ١٢هـ . في حين عاش الثاني في القرنين ١٣، ١٤ هـ .

(٣) نفحات النسرين ص ٤٦، ٤٧ .

٣- أما كون ابن منظور ينتمي إلى رويفع بن ثابت الأنصاري.. ورويفع كان أمير طرابلس من قبل معاوية.. فليس فيها ما يدل على طرابلسية ابن منظور. فرويفع كان من قبل يسكن مصر ، واختط بها دارا[١]. وبين رويفع وابن منظور ما يزيد على ستمائة وخمسين سنة ، وهي فترة يكفي عشر معشارها إلى انتقال أسرة من بلد إلى بلد.

٤- وأما ما يقال عن دفن جده الأعلى رويفع في برقة ، فليس يعني – لو صح تاريخيًا– أي شيء على الإطلاق . فما بالك إذا كان الخبر مشكوكًا فيه . وقد شك فيه ابن منظور نفسه حين قال بمادة "جرب" من لسان العرب ما نصه : " فيقال مات بالشام، ويقال مات ببرقة ، وقبره بها".

ويزيدنا شكا قول العياشي[٢]عن برقة: "بها قبر مشهور يزار. ويزعم أعراب البلد أنه قبر نبي. والغالب أنه قبر صحابي. ولعله رويفع بن ثابت بن السكن الأنصاري النّجاري من الصحابة ، أو زهير بن قيس البلوي ، وكلاهما صحابي..". فصاحب المقام ليس معروفًا على وجه التأكيد.

٥- من الثابت تاريخيًا أن ابن منظور قد ولد بمصر[٣]وأنه نشأ وترعرع بها ، وقد حدثنا هو نفسه عن مجالس أبيه بمصر التي كان يحضرها العلماء والأدباء. ومن الثابت كذلك أنه ولي ديوان الإنشاء بمصر مدة طويلة عبر عنها المؤرخون بقولهم " طول عمره"[٤]، وأنه حدث بمصر ودمشق ، وأنه توفي – أخيرًا – بالقاهرة[٥].

---

(١) لسان العرب – مادة جرب.

(٢) الرحلة العياشية طبع فاس ١٣١٦ . مقتبسة في "ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات" ص ٢١٩.

(٣) تاج العروس للزبيدي – مادة كرم .

(٤) الدرر الكامنة ٣٢/٥ .

(٥) شذرات الذهب ٢٦/٦، ٢٧ والسلوك للمقريزي جـ ٢ قسم ١ ص١١٤ .

٦-كذلك فإن والده – على ما ذكر الأستاذ أبو القاسم محمد كرو – من مواليد القاهرة أما جده الأدنى فمن مواليد إفريقية ، ومن ناحية باجة[١]بالذات[٢]. ومن المؤكد أن المجالس التي حدثنا ابن منظور عنها وكان يحضرها التيفاشي – كانت تعقد بالقاهرة. فمن المعروف أن التيفاشي مع أنه قد ولد بقفصة قام بزيارة مصر عدة مرات وأنه استقر بها نهائيًا منذ عام ٦٣٠هجرية[٣]، وهو العام الذي ولد فيه ابن منظور وقد توفي التيفاشي بالقاهرة عام ٦٥١هـ.

٧- أما ما يقال من وجود أسرة بطرابلس تحمل اسم ابن مكرم وانقراضها منذ قرن تقريبًا ، فليس هناك من دليل على أن هذه الأسرة من نسل ابن منظور. فهناك كثيرون حملوا لقب "المكرَّم"، فهو لقب اشتهر في العالم الإسلامي شرقًا وغربًا. كما أنه لم يشتهر من نسل ابن منظور سوى ابنه الملقب بقطب الدين الذي ولد بمصر عام ٦٧٠، وكان كأبيه أحد كتاب ديوان الإنشاء بالقاهرة. ثم جاور في مكة مدة طويلة وانتقل إلى بيت المقدس حيث توفي ودفن بها.[٤]

٨- وبقي بعد هذا ما تردده بعض المراجع التاريخية من أنه" ولي قضاء طرابلس[٥]" أو أنه "ولي نظر طرابلس"[٦]. فكم من عمره قضاه – لو صح – بطرابلس؟ ومتى حدث ذلك؟ وأي طرابلس؟ لم تتفق المراجع أولا على ذهابه إلى طرابلس . وعلى فرض ثبوته لم تحدد زمنه ولا مقداره ، وإن كان من المعقول أن يكون لفترة وجيزة تتناسب

---

(١) في معجم البلدان: باجة في خمسة مواضع منها بلد بإفريقية بينها وبين تونس يومان. وهي المقصودة هنا. وكلمة "إفريقية" في هذا النص تعني البلاد التونسية، كما كانت تعرف في القديم.

(٢)انظر ملتقى ابن منظور – مقدمة الأستاذ كرو ص ٥، ٦ .

(٣) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية لحسن حسني عبد الوهاب –القسم الثاني ص ٤٥٠ .

(٤) السلوك جـ ٢ قسم ٣ من ص ٨٥٦ ونكت الهميان ص ٢٧٦ وملتقى ابن منظور ص ٣٥.

(٥) الدرر الكامنة ٣٢/٥ .

(٦) نكت الهميان ص ٢٧٥ .

مع قولهم إنه تولى ديوان الإنشاء بمصر طول عمره . فلنسلم إذن أنه تولى قضاء طرابلس فترة ما من الزمن ، ولكن يظل سؤالنا قائمًا: أي طرابلس؟ طرابلس الشام أم طرابلس الغرب؟ إن الخلط بين البلدين وعلمائهما معروف لمن اشتغل بالتراجم والتاريخ . ويكفي أن أشير إلى الشاعر الطرابلسي المشهور باسم ابن خراسان (اسمه أحمد بن الحسين بن حيدرة) صاحب الأبيات الجميلة التي منها :

أحبابنا غير زهد في محبتكم ... كوني بمصر وأنتم في طرابلس
إن زرتكم فالمنايا في زيارتكم ... وإن هجرتكم فالهجر مفترسي
ولست أرجو نجاحا في زيارتكم ... إلا إذا خاض بحرا من دم فرسي

فمعظم المراجع تنسبه إلى طرابلس الشام ونسبه ياقوت في "معجم البلدان" إلى طرابلس الغرب.

وإذن فالمسألة في حاجة إلى ترو وتمحيص . وقد هدانا البحث والتنقيب إلى أن "طرابلس" هذه لا يمكن أن تكون طرابلس الغرب ، ولابد أن تكون طرابلس الشام للأسباب الآتية:

أ- أن ابن منظور كان شافعي المذهب كما نص على ذلك المقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك[1]، وقد وصفه بقوله "وكان من أعيان الفقهاء الشافعية" فكيف يتولى القضاء في بلد يدين بالمذهب المالكي أو الحنفي، ولا يعرف المذهب الشافعي، بل لا ينظر إليه نظرة تقدير. يقول المقدسي: "بسائر المغرب – ما عدا الأندلس – إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي رحمه الله ، إنما هو أبو حنيفة ومالك . وكنت يوما أذاكر بعضهم في مسألة فذكرت قول الشافعي ، فقال : اسكت !! من هو الشافعي؟ إنما كانا بحرين: أبو حنيفة لأهل المشرق ، ومالك لأهل المغرب ، أفتتركهما وتشتغل بالساقية؟ ورأيت أصحاب مالك يبغضون الشافعي ، قالوا أخذ العلم عن مالك ثم خالفه . وما

(١) ج ٢ قسم ١ ص ١١٤ . وقد لفتني إلى هذا المرجع أبو القاسم كرو ص ٥٥ .

رأيت فريقين أحسن اتفاقًا وأقل تعصبًا منهم . وسمعتهم يحكون عن قدمائهم في ذلك حكايات عجيبة حتى قالوا: إنه كان الحاكم سنة حنفيا وسنة مالكيا..."[١].

أما المذهب الشافعي ، فمن المعروف أن مصر والشام كانا من أهم مراكزه . وفي هذا يقول السبكي "هذان الإقليمان مركز ملك الشافعية منذ ظهر المذهب الشافعي. اليد العالية لأصحابه في هذه البلاد لا يكون القضاء والخطابة في غيرهم"[٢].

ب- لم يكن إقليم طرابلس (الغرب) من الناحية الإدارية تابعًا لمصر ، على خلاف إقليم برقة. وفي فترة حياة ابن منظور كانت طرابلس الغرب تحت حكم الحفصيين (من عام ٦٢٥- ٧٢٤هـ) الذين كانوا يتولون الحكم من قبل أمير تونس[٣].

أما صلة طرابلس الشام بمصر فمعروفة ثابتة . وقد ثبت أن ابن منظور رحل إلى دمشق رفقة السلطان قلاوون سنة ٦٨٢ و ٦٨٣هـ وعاد معه إلى مصر[٤]. كما ثبت أن ابن منظور قد حدث بدمشق[٥]. فمن المعقول إذن أن يكون توليه القضاء بطرابلس الشام. ومن المعروف تاريخيًا أن السلطان قلاوون استرد مدينة طرابلس الشام من الصليبين عام ٦٨٨هـ ، فيكون احتمال تولي ابن منظور قضاءها قد وقع في هذه السنة أو بعدها[٦].

جـ- لو كان ابن منظور قد ولي قضاء طرابلس الغرب ، لما غفل عن ذكر ذلك الرحالة الذين زاروا طرابلس في خلال تلك الفترة ، ومن بينهم ابن رشيد السبتي (قام بها

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٣٧ .

(٢) الشافعي لمحمد أبو زهرة ص ٣٧١ .

(٣) ولاة طرابلس للطاهر الزاوي ص ١١٣ وما بعدها .

(٤) ملتقى ابن منظور ص ٥٥ نقلا عن تاريخ ابن الفرات .

(٥) شذرات الذهب ٦/٢٦ .

(٦) ملتقى ابن منظور ص ٥٥ .

سنة ٦٨٥هـ) والتجاني (قام بها بين عامي ٧٠٦، ٧٠٨)[١].

* * *

فإذا كانت نسبة ابن منظور إلى طرابلس (الغرب) محفوفة بالشك إلى هذا القدر بل يكاد يُقطع بانتفائها ألبتة فهل يبقى لمنصف من مسوغ للتمسك بانتمائه إلى ليبيا؟ وهل غنى مصر بالشخصيات العلمية والأدبية وفقر ليبيا – على حد تعبير أحد الأدباء الليبيين– يكفي مبررا لسلخ ابن منظور من وطنه الأم وحمله على بلد لم يعش فيه ولم يتربّ بين ربوعه؟. وكأنما أحس الأستاذ علي المصراتي بهذه المعاني فعبر عنها بشكه في كلام أحمد النائب – الذي تولى كبْر هذه القضية من أولها إلى آخرها – فقال "المؤلف يذكر أن ابن منظور من طرابلس الغرب، وكان بودنا لو ساق دليلا يؤكد به أن هذا العالم اللغوي طرابلسي"[٢]، وبتصويره صنيع أحمد النائب في صورة "من يشد بقوة بتلابيب ابن منظور"[٣].

وبعد:

فمن الغريب حقًا أن تخلّد ليبيا اسم "ابن منظور" – وهو ليس لها إلا بمجرد الشبهة – فتطلق اسمه على معهد المعلمين بها الموجود بطرابلس ، وتحيي أثره لبنان فتسمي إحدى دور النشر بها نفسها باسم أشهر مؤلفات ابن منظور "لسان العرب"، وأن تحتفل تونس كذلك بابن منظور ، وتعقد اللقاءات والندوات لتخليد ذكراه[٤] – وهو لا ينتسب لها إلا عن طريق جده – ثم تفرّط مصر – أوْلى البلاد العربية به – فلا تعبأ لذكراه ،

---

(١) انظر ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات ص ١١٧ ورحلة التيجاني وملتقى ابن منظور .

(٢) مقدمة نفحات النسرين ص ٤٦.

(٣) مقدمة نفحات النسرين ص ٤٦.

(٤)من ذلك الملتقى الأول – ملتقى ابن منظور الإفريقي من ٩ إلى ١٩٧١/٤/١١ وكذلك تشكيل جمعية شباب ابن منظور القفصي ، ظنًا أن ابن منظور من أبناء قفصة . وقد طبع ما ألقي في ملتقى ابن منظور الأول بتونس عام ١٩٧٢ – دار المغرب العربي .

ولا تقيم المهرجانات للاحتفاء به والتنويه باسمه . ومن أحق منه بالتخليد؟ وأولى بالتكريم؟ ومن المفارقات أن يحمل والد ابن منظور لقب "المكرّم" ثم يغفل بلده عن تكريمه في شخص ابنه رائد التأليف الموسوعي في المعاجم العربية.

وتظل – بعد هذا – نسبتا ابن منظور المصري والإفريقي باقيتين، أما أولاهما فتدل على مكان مولده ونشأته وعمله ووفاته ، وأما الثانية فتشير إلى ارتباط بعض أجداده بتونس أو إفريقية ، كما كانت تسمى في ذلك الوقت.

الانتصار لسيبويه منَ المبَرد

لابن ولاد*

ت٣٣٢هـ - ٩٤٣ م

١-ابن ولّاد(١)

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد ، الذي ولد بمصر ، وعاش شطرًا كبيرًا من حياته في القرن الرابع الهجري، وهو قرن النهضة العلمية في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وقد نشأ ابن ولاد في بيت علم ، فأبوه وجده كلاهما من علماء اللغة الأعلام، وكلاهما درس في غير مصر ، وقرأ أمهات كتب اللغة والنحو على المتخصصين ، وله أخ اشتغل كذلك بالنحو وله ترجمة في كتب الطبقات(٢). وقد تتلمذ ابن ولاد الحفيد على عدد من الأساتذة المتخصصين من مصريين وأجانب ، وعلى رأسهم والده (٣)، وأبو جعفر

---

* نشر في مجلة كلية المعلمين– الجامعة الليبية ١٩٧٠.

(١) انظر ترجمته في الزبيدي ٢٣٨ وما بعدها ، والقفطي ٩٩/١ وما بعدها و٢٢٤/٣ وما بعدها، والبغية ١٦٩ ، وشذرات الذهب ٣٣٢/٢ .

(٢) اسمه أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الوليد، وقد اشتهر بعد وفاة أخيه، وكان في حوزته نسخة موثقة من كتاب سيبويه جلس لتدريسها . ومن تلاميذه الزبيدي المؤلف الأندلسي المشهور .

(٣) هو أبو الحسين محمد بن الوليد، ولد عام ٢٩٨هـ. درس في بغداد وترك كتابا في النحو سماه "المنمَّق" .

أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة[١]، وأبو إسحاق الزجاج ، وأبو جعفر أحمد بن رستم الطبري[٢]. وحين لمع اسمه وجلس للتدريس قصده التلاميذ من كل مكان ، وكان من أشهرهم أبو الحسين علي بن أحمد المهلبي[٣]، والقاضي منذر بن سعيد الأندلسي[٤]، وأبو عبد الله محمد بن يحيى الرباحي الأندلسي[٥]، وأبو عبد الله محمد بن الحسين اليمني[٦].

ولم يكن ابن ولاد مكثرًا في تأليفه ، كما لم يكن متنوع الثقافة . وكل ما عرف له من مؤلفات أربعة كتب - بالإضافة إلى كتابنا هذا - "المقصور والممدود"[٧]، "وكتاب النقائض"، وكتاب رابع مات بعد أن شرع في تأليفه وهو "معاني القرآن".

٢-نقد المبرد لسيبويه

أشار المؤرخون وكتاب التراجم إلى عديد من الكتب التي اتخذت كتاب سيبويه محورًا لها وتناولته أو تناولت بعض مسائله بالشرح والتحليل. ولكن هناك كتابًا فريدًا من بينها له طابع خاص ، وهو واحد من خمسة كتب ألفها المبرد حول كتاب سيبويه . هذا

---

(١) ولد في بغداد ودرس كتب والده ووفد إلى مصر عام ٣٢١هـ حيث جلس لتدريس كتب والده بالإضافة إلى كتاب سيبويه .

(٢) من كبار القراء والنحويين في بغداد. له من المؤلفات "غريب القرآن" و "المقصور والممدود" و "كتاب النحو" .

(٣) توفى عام ٣٨٥هـ، وله تعليقات على كتاب "المقصور والممدود" لابن ولاد. ولد عام ٢٦٥ هـ وتوفي عام ٣٥٥هـ. وقد كانت له أسفار في طلب العلم .

(٤) انظر معجم الأدباء ١٨٣/١٩ والقفطي ١٠٣/١ والزبيدي ٢٤٠ ونفح الطيب ٣٣٧/١ .

(٥) توفي عام ٣٥٨ هـ وإليه يرجع الفضل في انتقال أمهات الكتب المصرية إلى الأندلس .

(٦) توفى عام ٤٠٠هـ وكان ضمن أساتذة "دار العلم" التي أسسها الفاطميون في مصر، وكتب عدة مؤلفات .

(٧) وصلنا هذا الكتاب وقد طبع مرتين حتى الآن .

الكتاب وصلنا اسمه واقتباسات كثيرة منه في كتب متأخرة ولم يصلنا نصه ، وقد خصصه المبرد لنقد سيبويه والاعتراض عليه. وقد ذكر ابن جني أن المبرد سماه "مسائل الغلط"[١]، وذكر ياقوت أنه سماه "كتاب الرد على سيبويه"[٢].

وقد كان لصدور كتاب المبرد هذا رد فعل قوي لدى النحاة ، إذ استكثروا جميعًا هذا الهجوم وانبرى بعضهم للدفاع عن سيبويه والانتصار له . ولا نجد أثرًا لأي كتاب ألف للانتصار للمبرد وأخذ جانبه . وقد كان من بين من دافعوا عن سيبويه وانتصفوا له من المبرد تلامذة مخلصون للأخير مثل أبي إسحاق الزجاج الذي دافع عن سيبويه في كتابه "شرح أبيات سيبويه" كما يتضح من الاقتباسات العديدة التي نقلها البغدادي في "خزانة الأدب" عن هذا الكتاب[٣]. وممن دافعوا عن سيبويه أيضًا أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) في كتابه " شرح كتاب سيبويه" كما يتضح من الاقتباسات التي أخذها البغدادي كذلك من هذا الكتاب[٤].

وقد كان مثار دهشة وعجب أن يأتي أقسى هجوم على سيبويه من المبرد رأس المدرسة البصرية في عهده، وأن يتعرض المبرد لسيبويه بالهجوم ويتعقب زلاته ويؤلف كتابًا في مخالفته والرد عليه ، في حين أن شهرته جاءت من دراسته لسيبويه وتدريسه لكتابه، بالإضافة إلى ما كان يتقاضاه من مبالغ طائلة في مقابل شرح كتابه وتصحيح النسخ عليه. ومن أجل هذا حاول بعضهم أن يبرئ المبرد من تهمة التعرض لسيبويه وادعوا بطلان نسبة هذا الكتاب إليه ومنهم من ادعى أن ما اعترض به المبرد على سيبويه حدث أيام الشباب وأنه عاد فرجع عنه[٥] وكلتا الدعويين في رأينا باطلة . أما الأولى فلأن الإشارة إلى عمل المبرد ورد عن طريق تلامذته الذين كانوا يلازمونه ويعرفون كل صغيرة وكبيرة عنه،

---

(١) الخصائص (ط الهلال) ٢١٣/٢ .

(٢) معجم الأدباء ١٠٦/١٩ .

(٣) انظر ٤٥١/١ و ١٣٠/٢، ٤٣٥ و ٦٢٩/٣ و ٤٣٦/٤ (بولاق ط أولى) .

(٤) انظر ١٩٣/٢، ١٩٤، ٤٣٠-٤٣٢، ٤٣٥و ٤٣٥/٤، ٤٣٦ .

(٥) انظر الخصائص (ط الهلال) ٢١٣/١، والمزهر (ط أولى تحقيق جاد المولى ٣٧٢/٢) .

والذين كانت لديهم الفرصة للتحقق إذا وجد أدنى شك في صحة نسبة هذا الكتاب إليه. وأما الدعوى الأخرى فلم تصح إلا في مسائل قليلة معدودة ، ربما لا تتجاوز مسألة أو مسألتين رجع المبرد عن رأيه فيها وأخذ برأي سيبويه[1].

٣-كتاب الانتصار

نسخه:

توجد من هذا الكتاب نسخة وحيدة مخطوطة تحفظها دار الكتب المصرية برقم ٦٠٥ نحو تيمور . وهناك ملخص لهذا الكتاب مدون على هامش نسخة الزيتونة من كتاب سيبويه . وهذا الملخص مكتوب بخط عالم من علماء العربية هو ابن الحاج الأزدي الإشبيلي ناسخ الكتاب . ويبدو أن ابن الحاج لم يكتف بتلخيص مسائل الخلاف وإنما أسقط بعضها، لأن عدد المسائل في مخطوطة القاهرة ١٣٤ مسألة وفي مخطوطة الزيتونة ١١٥ مسألة فقط.

الهدف من تأليفه:

يتضح من عنوان الكتاب سواء كان "الانتصار لسيبويه من المبرد" كما سماه بعضهم ، أو "نقض ابن ولاد على المبرد في رده على سيبويه" كما سماه بعض آخر – ومن مقدمته أن الهدف من تأليفه الدفاع عن سيبويه في المسائل التي ثار الخلاف فيها بينه وبين المبرد، وليس الهدف التوسط بينهما وأخذ جانب الحياد منهما . وفي ذلك يقول ابن ولاد في مقدمة كتابه "هذا كتاب ألفناه لنذكر فيه المسائل التي زعم أبو العباس المبرد أن سيبويه غلط فيها ونبينها ونرد الشبه التي لحقت فيها". ويؤدي تصنيف مسائل الكتاب إلى نفس النتيجة، إذ أننا نجد ابن ولاد يأخذ جانب سيبويه في ١٣١ مسألة من جملة المسائل البالغ عددها ١٣٤ . أما الثلاثة الباقية فقد اتخذ في واحدة منها جانب المبرد، وفي واحدة جانب الحياد، وأما الثالثة فكان النقد فيها موجهًا – في الحقيقة – إلى الأخفش لا إلى سيبويه.

---

(١) انظر الانتصار لابن ولاد ص ٩٩ ، ١٨٢ .

وصفه:

يبدأ الكتاب بمقدمة قصيرة – لم تتجاوز الصفحة الواحدة – تحدثت عن موضوعه، وهو مناقشة مسائل الخلاف بين المبرد وسيبويه ، وأشارت إلى اتخاذ جانب الحياد في الخصومة واختيار رأي المبرد إن بدا أنه الصواب[1]، كما دافعت عن مسلك المؤلف نحو المبرد وبررت هجومه عليه إذ قالت : " ولعل بعض من يقرأ كتابنا هذا ينكر ردنا على أبي العباس المبرد . وليس ردنا عليه بأشنع من رده على سيبويه ، فإنه رد عليه برأي نفسه ورأي من دون سيبويه". وبعد ذلك انتقل المؤلف إلى مسائل الخلاف فذكرها مسألة مسألة بادئًا باقتباس رأي سيبويه على النحو الذي رواه المبرد ومثنيًا بنقد المبرد ثم منتهيًا برأيه هو.

هل تناول ابن ولاد جميع مسائل الخلاف؟

يبدو من النظرة الأولى أن الإجابة ستكون "نعم" ما دام ابن ولاد لم يناصر سيبويه في كل المسائل . ولكن يعكر على هذه الإجابة ما ثبت لديّ من أن هناك مسائل كثيرة لم يتعرض لها ابن ولاد ، ومن تلك المسائل ما رواه البغدادي في "خزانة الأدب" من مسائل الخلاف بين المبرد وسيبويه دون أن يكون له وجود في كتاب ابن ولاد هذا . ومن تلك المسائل:

الخلاف بينهما حول كلمة "بِشْر" في قول الشاعر:

أنا ابن التارك البكريّ بشر

هل هي منصوبة أو مجرورة .

٢، ٣- الخلاف بينهما حول محل الضمير بعد "لولا" و "عسى" في الأبيات:

---

(١) يبدو أن ابن ولاد لم يكن صادقا في هذه الدعوى ، وأنه رمى من ورائها إلى عدم مجابهة القارئ منذ اللحظة الأولى بهجومه على المبرد .

وكم موطنٍ لولاي طحتَ كما هوى
بأجرامـــه من قُلة النيق منهـــوي
ولي نفـــس أقـــول لها إذا ما
تنـازعـــني لعـــلي أو عســاني

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه المسائل الثلاث قد أجاد أبو جعفر النحاس شرحها من وجهة نظر سيبويه ، وأن المسألتين الأخيرتين قد دافع الزجاج عن رأي سيبويه فيهما[1]، والزجاج – كما سبق أن ذكرنا – من أساتذة ابن ولاد .

وتثير هذه الحقيقة سؤالاً هو : لماذا إذن أسقط ابن ولاد هذه المسائل وغيرها من كتابه مع أن وجهة نظر سيبويه فيها قوية؟ يبدو أن السبب يتمثل في أن المبرد كتب "الرد على سيبويه" في حياته المبكرة ، ثم اكتشف مسائل أخرى فيما بعد فضمنها كتبًا أخرى له ، ومن ذلك ما حواه كتاب الكامل من تخطئات لسيبويه رغم قلة مسائل النحو فيه . وحينما فكر ابن ولاّد في تأليف كتابه رأى أن يقصر نفسه على المسائل التي وردت في كتاب "الرد على سيبويه"، فتناولها بالمناقشة مسألة مسألة . وعلى هذا فإن المسائل الأخرى التي نجدها في "خزانة الأدب" ليست واردة في كتاب المبرد، "الرد على سيبويه"، وإنما في كتب أخرى له ، وهي مسائل لم يهتم ابن ولاد بتتبعها وحصرها والرد عليها.

كيف انتصر ابن ولاد لسيبويه؟

بذل ابن ولاد أقصى ما في وسعه لنصرة سيبويه والدفاع عنه . وقد وفق في ذلك إلى حد كبير ونجح في إقناع القارئ بأن يتعاطف معه . وقد استعان ابن ولاّد من ناحية باستقراء الأساليب العربية وتتبع المادة اللغوية المسجلة – وما أغزر معلوماته في هذا الخصوص – ومن ناحية أخرى استخدم طاقته في التعليل والربط والفلسفة مستعملاً المنهج العقلي المنطقي الذي كان المبرد يجيد استخدامه . ومن مجموع هذين المنهجين بنى دفاعه

(١) انظر خزانة الأدب ١٩٣/٢، ١٩٤، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٥ .

عن سيبويه . وبشيءٍ من التفصيل يمكننا أن نقسم وسائل ابن ولاد في الدفاع عن سيبويه إلى ما يأتي:

١- الرجوع إلى المادة اللغوية المسجلة عن الثقات بدون اعتبار للقياس النظري. وعلى هذا الأساس انضم ابن ولاد إلى سيبويه في منعه أن يقال "السقي لك" و "الرعي لك" بدلاً من "سقيا لك" و "رعيا لك" مخالفًا المبرد في إجازته ذلك اعتمادًا على أنه لا فرق في القياس بينهما وبين "الحمد لله" و "العجب لزيد". وقد بنى ابن ولاد رأيه على أساس أن العرب لم تتكلم بهاتين العبارتين مع الألف واللام وأن سيبويه لم يمنع من طريق القياس وإنما من قبيل السماع ، وأنه لا يصح النظر إلى القياس وترك ما تتكلم به العرب، لأن العرب يمتنعون عن التكلم بالشيء ، وإن كان القياس يوجبه ويتكلمون بالشيء وإن كان القياس يمنعه.

وفي مسألة أخرى انضم ابن ولاد إلى سيبويه في إجازته أن يقال "قال فلانة"، لأن هذا التعبير قد نقل عن العرب الفصحاء.

٢- من المعروف أن المبرد بنى كثيرًا من اعتراضاته على أسس نظرية بحتة . ومن أجل هذا كان لا بد لابن ولاد أن يستعمل نفس السلاح في معرض الرد ، وأن يقرع الحجة بحجة مماثلة . ولتوضيح هذه الاتجاه نقتبس ما قاله ابن ولاد انتصارًا لسيبويه في إجازته أن يقول "زيدٌ ضربْتُ". قال ابن ولاد – بعد احتجاجه بروايات لبعض أهل البصرة والكوفة – "وأما طريق المقايسة فإنه أجاز العرب أن تنصب المفعول إذا تقدم وقد شُغل الفعل عنه بالهاء ، كقولهم زيدًا ضربته . فعديل هذا في الحاشية الأخرى أن تجيز زيدٌ ضربت فترفعه ولم يشغل الفعل عنه بالهاء في اللفظ كما نصبته وقد شغلت الفعل بالهاء لأنهما حاشيتان متحاذيتان في الجواز وإن كانت أخراهما أكثر في كلام العرب من الأولى".

واستعمل ابن ولاد سلاح المنطق مرة أخرى في رده على المبرد الذي رفض قول سيبويه "لا تستغني هذه الحروف التي للمعاني عن الاسم والفعل ، ويستغنيان عنها". قال ابن ولاد منتصرًا لسيبويه: "إن سيبويه أتى بحكمين فلم يقابل المبرد واحدًا منهما بنقض وذلك أنه قال: الحروف التي للمعاني لا تستغني عن الاسم والفعل ولا بد لها من أحدهما، وسبيل التناقض لهذا القول أن يطرح حرف النفي ويجعله موجبًا فيقول إنه قد

يستغني عن الاسم والفعل في حال. ولن يجد ذلك لأن الحرف لا يوجد في كلام العرب إلا متشبثًا باسم أو فعل . والحكم الآخر أن الاسم والفعل قد يستغنيان ، فكان نقض هذا بالنفي هو أن يقول: لا يستغنيان في حال ، وقد استغنيا في مثل قولنا قام زيد"[١] .

٣- وفي بعض الحالات لم يكن المبرد دقيقًا في اقتباس سيبويه ، وبالتالي لم يكن على صواب في الحكم الذي بناه على هذا الاقتباس المحرف . وقد كان ابن ولاد على وعي بهذه الحالات ، وكان رده يتلخص في تصحيح النص وتحرير عبارة سيبويه . ومن أمثلة ذلك المسألة رقم ١٢٤ وخلاصتها أن المبرد نقل عن سيبويه أنه قال: "يكون على مُفْعَل في الأسماء نحو مصحف ومخدع وموسى ولم يكثر في كلامهم ولا نعلمه صفة". ثم اعترض المبرد على سيبويه قائلاً "هذا المثال من أكثر ما جاءت عليه الصفات... وأحسب هذا في الكتاب غلطًا عليه بل لا أشك في ذلك". ثم جاء رد ابن ولاد مقررًا ما يأتي:

أ- هذا غلط من المبرد على الكتاب وليس على سيبويه ، لأنه اعترف بأنه ليس من كلام سيبويه وإنما غلط عليه في كتابه.

ب- نظرنا في عدة نسخ من الكتاب فوجدنا الكلام صحيحًا مستقيمًا على غير ما حكى المبرد. وليس المبرد عندنا ممن يكذب ، ولكن موضع ظننا أنه تجاوزه نظره لأن هذا الكلام الذي ذكره يتلوه بسطر في مثال مخالف لذلك المثال .

جـ- نص سيبويه "ويكون على مُفْعَل نحو مصحف ومخدع وموسى ولم يكثر هذا في كلامهم اسمًا وهو في الوصف كثير . والصفة قولهم مكرم ومدخل ومعطى. ويكون على مُفْعُل نحو منخل ومسعط ومدق ومنصل ولا نعلمه صفة"[٢]. فوزن مُفْعُل هو الذي عند سيبويه أنه لا يعمله صفة.

٤- وأحيانًا كانت تخطئة المبرد لسيبويه ترجع إلى سوء فهمه لعبارة سيبويه ، فكان عمل ابن ولاد يتلخص حينئذ في شرح عبارة سيبويه وبيان المراد منها. ومن أمثلة ذلك المسألة الثانية عشرة ، ونحن ننقلها باختصار هنا:

---

(١) الانتصار ص ٣١٠ .

(٢)المرجع ص ٣١٦-٣١٨ .

سيبويه: الرفع بعد "إذا" و "حيث" جائز في مثل "حيث زيد لقيته فأكرمه" و"إذا زيد تلقاه فأكرمه".

المبرد: أما "إذا" هذه فابتداء الاسم بعدها محال لأنك لا تقول: "اجلس إذا عبد الله جالس". وقد نقض هذا قوله : إذا كانت ظروف الزمان في معنى"إذا" فلا تضفها إلا إلى الفعل . وقد أجاز في غير هذا الباب الرفع في البيت: لا تجزعي إنْ منفس أهلكته... ولا يجوز الرفع على ما ذكر لأنه يرفعه بالابتداء والقول فيه متى رفع أن يكون على إضمار "هلك".

ابن ولاد: هذا لا يجوز بهذا اللفظ ولا هو الذي أجازه سيبويه ، وإنما يجيز مثل قولك: اجلس إذا عبد الله جلس ، فتكون الجملة بعد "إذا" مبنية من اسم وفعل إلا أن تقديم الاسم على الفعل يقبح من جهة الترتيب . وبهذا يكون سيبويه لم يضف "إذا" إلا إلى الفعل فلا تناقض . ومعنى إضافة إذا للفعل إضافتها للجملة الفعلية . فهو إذا قدم الاسم أو أخره إنما يضيف إلى تلك الجملة بعينها ، لأنه لا فرق بين قولنا"زيد قام" و"قام زيد" في المعنى[1].

٥- وأخيرًا فقد رفض ابن ولاد في كتابه أن يضع أي نحوي في مركز أقوى من مركز سيبويه ، وبالتالي رفض أن يحتج على سيبويه برأي قاله نحوي آخر . ومثال ذلك ما ذكره المبرد من أن سيبويه منع تصغير كلمة "اللائي"، ثم رده ذلك بإجازة الأخفش لهذا التصغير قياسًا . وقد كان رد ابن ولاد يتلخص في أن ما حكاه الأخفش إنما أجازه قياسًا لا سماعًا . وقياس مثل هذه الأمور سهل على سيبويه وعلى من هو دونه[2]. وفي مسألة أخرى رفض ابن ولاد أن يعتبر ما سماه المبرد (إجماعًا) بدون وجود سيبويه ، ذاكرًا أن

---

(١) الانتصار ص ٣٤-٣٧ .

(٢) المرجع ص ٢٧٧-٢٧٩.

الإجماع لا يتحقق إلا بوجود سيبويه[١].

قيمته:

لهذا الكتاب قيمة خاصة تتلخص فيما يأتي:

١- أنه أول كتاب يخصص للدفاع عن سيبويه ضد هجمات المبرد، وربما كان الكتاب الوحيد الذي يخصص لهذا الغرض ، إذا استثنينا ما ذكره ياقوت في معجم الأدباء من أن هناك نحويًا اسمه عبيد الله بن محمد ابن أبي بردة القصري قد ألف كتابًا بعنوان "الانتصار لسيبويه على أبي العباس المبرد في كتاب الغلط"[٢]. ولكن ياقوتًا لم يلق أي ضوء على هذا المؤلف المجهول ولا على كتابه.

٢- أصالة المؤلف في هذا الكتاب وظهور شخصيته . وعلى الرغم من أن أستاذه الزجاج قد سبقه في مهمة الدفاع عن سيبويه إلا أنه يبدو أن ابن ولاد لم يستفد كثيراً من هذا الدفاع . ودليلنا على هذا أمران: أولهما ما ذكره القفطي من أن الزجاج كان يضع ثقته في تلميذه ابن ولاد وأنه كثيراً ما كان يسأله رأيه في بعض مشكلات "الكتاب" وأن الزجاج كثيرًا ما كان يختار تفسير ابن ولاد وينضم لرأيه[٣]. وثانيهما أننا لو قارنا دفاع ابن ولاد بأي دفاع للزجاج لظهر الفرق بين الدفاعين واضحاً. فأما دفاع الزجاج فمختصر جدًا وغير كاف وأما دفاع ابن ولاد فدفاع شامل مستفيض وفي نفس الوقت مقنع وسديد. ويكفي أن نحيل القارئ إلى الخلاف بين المبرد وسيبويه في "إنْ" في قول الشاعر:

---

(١) المرجع ص ٢٧٥.

(٢) معجم الأدباء ٥٩/١٢، ومعجم البلدان ١١٢/٤ .

(٣) القفطي في إنباه الرواة ٩٩/١ .

سقته الرواعد مِنْ صيّف وإن مِنْ خريف فلن يعدما

أهي "إمَّا" حذفت منها "ما" أم هي "إنْ" الجزائية . أما دفاع الزجاج فلم يشغل أكثر من بضعة أسطر من كتاب الخزانة، وأما دفاع ابن ولاد فقد شغل ثلاث صفحات كاملة من مخطوطة الانتصار[١].

٣- أن ابن ولاد في هذا الكتاب أثار عدة مشكلات تتعلق بكيفية تقعيد القواعد، ومهمة النحوي في ذلك ورسم الطريق لمن يتصدى للدرس النحوي ، وأسهم في وضع أسس ذلك العلم الذي عرف فيما بعد باسم "أصول النحو". ومن أهم الأسس التي نادى بها ابن ولاّد وطبقها في كتابه ما يأتي:

أ- أنه لا يصح الطعن على العربي ، أو رميه باللحن أو الخطأ ، أو تقديم القياس النظري على المادة اللغوية المسموعة. وفي هذا يقول ردًا على المبرد "إن كانت التخطئة لمن قال ذلك من العرب فهذا رجل يجعل كلامه في النحو أصلاً وكلام العرب فرعًا فاستجاز أن يخطئها إن تكلمت بفرع يخالف أصله" ويقول: الذي للنحوي أن يفعله أن يمثل ويعتل لما جاء عن العرب فأما أن يرده فليس ذلك له"[٢].

ب- أنه يجب الوقوف عند المادة المسموعة ، ولا يجوز تصحيح ما لم يرد عن العرب بمقتضى القياس النظري. فهناك من الأساليب والكلمات ما يصح في القياس ولكنه لم يسمع فيجب أن نقف عند ما قالته العرب ولا نغيره . وفي هذا يقول: "سبيل النحويين اتباع كلام العرب إذا كانوا يقصدون إلى التكلم بلغتهم . فأما أن يعملوا قياسًا وإن حسن يؤدي إلى غير لغتها فليس ذلك لهم ، وهو غير ما بنوا عليه صناعتهم" ، ويقول "لا بد من متابعتهم إذا كان يريد التكلم بلغتهم دون ما يطرد لنا ويحسن من مقاييسنا"[٣].

جـ- أن تعدد الروايات في البيت الواحد لا يسقط حجيتها ، وأن كل رواية – ما دامت قد نقلت عن ثقة – يصح الاستشهاد بها . وهو يقول في ذلك: "الرواة عن الفرزدق

---

(١) راجع خزانة الأدب ٤/٤٣٥، والانتصار ٧٤-٧٧ .

(٢) الانتصار ص ١٢٠، ١٢١ .

(٣) المرجع ص ٢٣٧، ٢٣٨ .

وغيره من الشعراء قد تغير البيت على لغتها وتروبه على مذاهبها مما يوافق لغة الشاعر ويخالفها ولذلك كثرت الروايات في البيت الواحد... ولغة الرواة من العرب شاهد كما أن قول الشاعر شاهد" ويقول "مجيء الروايات في البيت الواحد يجعل كل رواية حجة إذا رواها فصيح لأنه يغير البيت إلى ما في لغته فيجعل ذلك أهل العربية حجة"[١].

د- أنه لا يصح تأويل كلام العرب وصرفه عن ظاهره وادعاء الحذف والإضمار بدون داع . وهو لهذا يخالف المبرد في إعرابه قوله تعالى" ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين". فقد كان المبرد يقول إن فاعل "بدا" مصدر مقدر ، وتأويل الآية: ثم بدا لهم بُدُوٌّ ولكن حذف بدوّ من الكلام لأن "بدا" تدل عليه . أما ابن ولاد فيقول: ليس الأمر كذلك لأن "ليسجننه" جملة في موضع الفاعل... وأما قوله إنه يضمر فيه البدو فإنا إنما نضمر إذا كان الكلام محتاجًا إلى الإضمار ناقصًا عن التمام . فأما إذا كان الكلام تامًا مفيدًا..فلا حاجة بنا إلى الإضمار[٢]..

٤- ولعل خير ما يدل على تقدير القدماء لهذا الكتاب وإعجابهم به تلك الاقتباسات العديدة الطويلة التي نجدها في كتب المتأخرين منهم. ويكفينا أن نشير إلى "خزانة الأدب" للبغدادي[٣]وإلى نسخة الزيتونة من كتاب سيبويه، التي سبق الحديث عنها.

---

(١) المرجع ص ١٩، ١٩٣ .

(٢) المرجع ص ٢١٢، ٢١٣ .

(٣) انظر على سبيل الخصوص ١٧٤/١ و ١٣١/٢ و ٤٣٦/٤ . وانظر كذلك ٢٨٧/١، ٣٩٤، ٣٩٥ و ٦٢/٢، ٢٧٥ و ٢٠٢/٣، ٣٨٨ و ١٣٧/٤ .

الفصل الثاني

كلمات عن اللغة

الاتّصال اللُّغوي
عن طريق الجلد*

إن أهـم وظيفة للاتصال اللغوي هي تلقي أفكار الآخرين ومشاعرهم، أو نقلهـا إلـيهم. ولا تقـف وسـائل الاتصـال اللغـوي عـند حـدود الألفـاظ والكـلمات؛ فهناك وسائل كثيرة غير لفظية يستخدمها الإنسان، أو تصدر عنه، بهـدف نقـل المعلومـات أو الأفكار أو المشاعر، أو بهدف المساعدة على نقلها، أو الدقة في التعبير عنها.

وتـتعدد الوسـائل غير اللفظية لتشمل الحركات الجسمية لكامل الجسم، أو لعضو معـين من أعضائه(مثل الرأس أو الوجه أو العين أو الكتف أو اليد..) مما يمكن إدراكه بحاسـة البصـر، كمـا تشـمل الإمكانـيات الصـوتية (مـثل علو الصوت، ودرجته، ومعدل سرعته، وكميته، وكيفيته..) مما يمكن إدراكه بحاسة السمع. وتشمل أخيرا بعض الأنظمة غير المرئية أو المسموعة مثل اللمس والشم.

وكـل وسـيلة مـن هـذه الوسـائل نظـام تواصلي متكامل، يمكن أن يؤدي وظيفته مسـتقلا عـن غـيره، ومستقلا عن الوسيلة اللفظية، كما يمكن أن يؤديها في صحبة وسيلة أخرى لتحقيق مستوى أعلى من الدقة أو الوضوح أو التأثير.

وقـد ذهـب بعـض الباحـثين إلى أن نسبة ما تحمله الألفاظ في الحوار المباشر من معـان لا تزيد على ٣٥٪ من مجموع الرسالة، ولذا فقد أعطى الوسائل غير اللفظية ثقلا أعظم في أي حوار بين شخصين interpersonal بل هناك من بالغ في تحديد هذا الثقل للوسائل غير اللفظية فرفع نسبته إلى ٩٣٪ من التأثير الكلي للرسالة.

---

* نشر في مجلة العربي- أغسطس١٩٨٨.

وتتفوق الوسائل غير اللفظية على نظيرتها اللفظية في أنها غالبا ما لا تقع تحت سيطرة المتصل أو تحكّمه أو وعيه، ولذا فهي عادة ما تكون صادقة خالية من الخداع أو التشويه أو التضليل. وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن الأفراد يعتمدون – حين تتعارض الإشارات- على الإشارات غير اللفظية؛ كما لو عقّب شخص على كلامك بقوله: " رأيك واضح جدًا عندي"، ولكنه في نفس الوقت أخذ يصدر إشارات تدل على غير ذلك، كأن أخذ يحكّ رأسه بقوة، أو أبدت ملامح وجهه أمارات الحيرة. فأنت عادة ما تعتمد على تعبيرات الوجه والإشارات غير اللفظية باعتبارها المؤشر الحقيقي للمعنى الذي يدور في ذهن سامعك.

كما تتفوق كذلك في المواقف العاطفية التي تعتمد على التأثير والإيحاء. ولما كانت طبيعة بعض المواقف الاتصالية عاطيفة كان التعبير عنها بصورة غير مباشرة (عن طريق ابتسامة، أو إيماءة، أو تربيتة على الكتف، أو نحو ذلك) أفضل من التعبير عنها بصورة مباشرة. ومن أجل هذا يعتمد المعلنون على الإشارات غير اللفظية في التأثير على الناس، والإيحاء إليهم بما يريدون.

أهمية اللمس في الاتصال اللغوي:

يعد الجلد من أهم أعضاء الإحساس في التواصل بين الأشخاص. ومن العلماء من اعتبر الجلد أهم هذه الأعضاء، ولا غرابة في هذا فكثير من علماء الفسيولوجيا يعتبرون اللمس هو الحاسة الوحيدة التي يمكن أن تردّ باقي الحواس إليها. فالسمع يبدأ بلمس موجات الصوت للأذن الداخلية. والتذوق يبدأ بلمس مادةٍ ما لأعضاء الذوق. والرؤية تتم عن طريق ضوء يصل إلى العين.. وهكذا.

ويمكن تصور القيمة التواصلية الهائلة للّمس بتصور حالة Helen Keller التي تغلبت على صممها وفقد بصرها باستخدام حاسة اللمس. وقد استطاعت أن تتعلم أسماء الأشياء عن طريق ضغط الألفبائية اليدوية على راحة يدها. كما استطاعت أن تتعلم الكلام عن طريق وضع أصابعها على حنجرة أستاذتها Anne Sullivan لتحس

ذبذبات صوتها (لكنها رغم تعلمها الكلام فقد كانت في حديثها العام تحتاج إلى مترجم لأن صوتها لم يكن واضحا بدرجة كافية). وأخيرا تعلمت القراءة والكتابة بطريقة Braille وهي نظام كتابي يعتمد على توزيع عدد من النقاط البارزة (من ١-٦) على شكل سداسي، وتقرأ هذه الرموز عن طريق إمرار الأصابع على النص.

وقد عبر بعضهم عن حالة Helen Keller قائلا: "كان من المشكوك فيه لو أنها فقدت حاسة اللمس –حتى لو كانت قد استعادت حاستي السمع والبصر- أن تحقق موهبتها وعزيمتها شأنا كهذا".

وحتى عهد قريب لم يكن العلم يعرف شيئا ذا بال عما يمكن أن يقوم به الجلد من تواصل حتى توصل العلماء المهتمون بدراسة الجلد إلى حقيقة أن مقدار ونوع التلامس الذي يتلقاه الحيوان والإنسان حتى فترة بلوغه يملكان تأثيرا قويا على سلوكه؛ لأن الدراسة أثبتت أن حاسة اللمس هي أم الحواسّ؛ وأن أثرها يبدأ منذ يتشكل الشخص جنينا في بطن أمه. ويكتسب الطفل كثيرا من معلوماته عن نفسه وعن العالم من حوله من خلال اللمس، وبخاصة لمس المحيطين به، والذين يقومون على رعايته وإرضاعه وهدهدته.. ونظرا لإمكانات الجلد الإحساسية فإن الخبرات التي يكتسبها الشخص عن طريق جلده تفوق ما يمكن أن يتصوره الكثيرون منا. وقد أظهرت التجارب أن نضج الشخص العادي يتطلب قدرا مركزا من التلامس سواء كان في شكل مداعبة أو تربيت أو تقبيل أو حتى لمس مجرد. وهكذا انكشفت مغاليق الإمكانيات الاتصالية للجلد، وظهر أمام أعين الباحثين أن الجلد ليس فقط أكثر الأعضاء حساسية، ولكنه كذلك وسيلتنا الأولى للاتصال.

الجلد كناقل للرسالة :

كلنا يعلم أهمية المعلومات التي يمكن الوصول إليها عن طريق ملاحظة لون الجلد. فهناك تقسيم للجنس البشري إلى شعوب على أساس ألوان جلودها. ومن ذلك التقسيم العربي القديم للأجناس إلى أسود (العرب)، وأحمر (العجم)، وأصفر (الروم). وفي الحديث الشريف: "بعثت إلى الأحمر والأسود". كما أن هناك تغييرات تطرأ على لون الجلد في المواقف المختلفة كالاكتئاب ، أو الغيظ، أو الخجل، أو

السرور، أو الضعف.. وقد ورد لذلك في التراثين الديني والشعبي نماذج كثيرة كقوله تعالى: "وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظَلّ وجهُه مُسْوَدًّا وهو كظيم"، وقوله تعالى: "وأما الذين ابيضّتْ وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون". وفي الحديث النبوي: "وكان ذلك الرجل مصفرّ اللحم" (من الإعياء والمرض). وفي ألف ليلة وليلة: " فلما سمعْتُ هذا الكلام اصفرّ لوني" (من الخجل)، وفيها : " أخذه الوجد والهيام واصفرّ لونه" (من الذبول والضعف)، وفيها: "رُدّ لونه واحمرّ وجهه" (من الصحة والقوة الجسمية)، وفيها: "احمرّت وجنتاه" (من الخجل)

كذلك يستعين الأطباء بلون الوجه أو الجسم أو العضو المعين في تشخيص بعض الأمراض، ونجد أمثلة لذلك في كتاب" القانون" في الطب لابن سينا، كما نجد أمثلة له في الطب الحديث حين يصل الأطباء من لون اللسان الأبيض إلى معاناة المريض من عسر في الهضم أو إصابته بالدفتريا، ومن لونه الأحمر إلى معاناته من حالة بولينا متأخرة. وحين يستنتجون من صفرة الوجه وجود أمراض بالكبد، ومن حمرته إصابة المريض بارتفاع في ضغط الدم.

ولكنّ الشيء الطريف توصل العلماء بعد الدراسة المعملية التجريبية إلى لغة يبث بها الجلد حديثه العاطفي. وقد توصلت إلى ذلك Barbara Brown بعد أن طرحت السؤال: هل يمكن أن يبث الجلد رسالة أو ينقل معنى؟ وبعد أن ردت بالإيجاب ذكرت أن كل ما نحتاجه لنستمع إلى حديث الجلد عدد من الأقطاب الكهربائية تثبت في الجلد، وآلة تسجيل خاصة. وسوف يقوم الجلد بالإخبار عن وجود الانفعال –حين يوجد- وعن درجة قوته، وإلى أي مدى كان الشخص انفعاليا. بل سيخبرنا كذلك متى لجأ الشخص إلى الكذب. ويمكن أن ينوع الجلد من أشكال رسائله تبعًا لتنوع قوة التيار الكهربائي الصادرة عنه. ويمكن عن طريق جهاز بسيط تحويل هذا التيار الكهربائي المتنوع الصادر عن الجلد إلى تسجيلات كتابية مرئية.

وقد أمكن استخدام هذه القدرة التواصلية للجلد في تطبيقات كثيرة منها:

١- توظيفها في العلاج النفسي عن طريق استخدام الرسائل التي يبثها الجلد لتحديد المشاكل العاطفية عند المريض.
٢-الاسترشاد بها في تحديد مدى صدق المتكلم أو كذبه، وما إذا كان الانفعال الذي يرسله الجلد- والذي يعبّر عن حالة صادقة واقعية- يتطابق مع الانفعال الذي يحاول الشخص أن يعبر عنه بوسائل أخرى مثل تعبيرات الوجه. وقد قام بتركيب أول جهاز لكشف الكذب John Larson عام ١٩٢١، واستخدمته الشرطة بنجاح منذ عام ١٩٢٤ أثناء استجواب المتّهمين. وهو جهاز تقوم فكرته على تسجيل التغيرات في المقاومة الكهربائية للجلد الناتجة عن فعالية الغدد العَرَقية التي تستثيرها المثيرات المسببة للانفعال، وعلى مراقبة التغيرات في معدلات ضغط الدم والنبض والتنفس التي تتأثر بحالات الشخص الانفعالية. ويتم ذلك بشدّ أنبوب حول صدر الشخص لتسجيل حركات الصدر عند التنفس، ووضع حزام حول ذراعه لتحديد ضغط الدم والنبض، وتقوم أكثر من ريشة بتسجيل موجات الحركات على ورقة رسم بياني تتحرك بواسطة مولّد كهربائي صغير.

الجلد كمستقبل للرسالة:

لا أحد يجادل في أهلية الجلد للقيام بهذه الوظيفة نظرا لقدراته الاتصالية العجيبة. وقد أشار العلماء إلى أن ما يكتسبه الإنسان من خبرات عن طريق جلده أهم بكثير مما يتصور معظمنا. ذلك أن الجلد الإنساني يملك الملايين من نقاط الاستقبال والألياف العصبية المهيأة لمعرفة مادة الشيء والإحساس بالضغط والحرارة والألم والوخز وغيرها.

ولكن الكثيرين لا يتصورون الجلد كوسيلة استقبال متقدمة قادرة على فك مغاليق الأفكار والعواطف المتشابكة التي تصله من مصدر خارجي .

ويرجع الفضل في اكتشاف قدرات الجلد الاتصالية إلى البحوث التي قام بها Frank Geldhard وزملاؤه من "معمل الاتصالات الجلدية" في برنستون. وقد تبين لـ Geldhard وزملائه أنه لكي نصل إلى استخدام فعال لإمكانيات الاتصال عن طريق الجلد- لابد من وضع وسيلة لإرسال موجات كهربية عبر الأعصاب إلى أجزاء مختلفة من

الجسم. هذه الموجات الكهربية ترمز إلى الأفكار والانفعالات التي يمكن للجلد أن يفك شفرتها.

ولوضع نظام شفري قابلة أجزاؤه للتمييز، أو "لغة" يفهمها الجلد فقد قام Geldhard وزملاؤه بتحديد الأبعاد المختلفة القادرة على استثارة الجلد عن طريق موجات كهربية يستقبلها الجلد كذبذبات. وقد توصوا إلى وجود أبعاد أربعة هي الموقع، والكثافة (وتحددها قوة الذبذبات)، والاستمرار (ويشير إلى الوقت الذي تستغرقه الذبذبة)، والتردد.

أما بالنسبة للموقع فقد حددوا سبعة متذبذبات توضع في تجويف الأضلاع البطنية بواسطتها يمكن للشخص بنسبة ١٠٠٪ التعرف على هذه المواقع عن طريق الذبذبات الواصلة إلى الجلد. وأما بالنسبة للكثافة فقد أظهرت الدراسة المعملية قدرة الشخص المستقبل على تمييز خمس عشرة درجة منها. وأما بالنسبة للاستمرار فقد حددوا مجاله من ١٠/١ثانية إلى ثانيتين، وبينهما امتداد يمكن للملاحظ العادي أن يميز عليه خمسًا وعشرين درجة من الاستمرار. وأما التردد فيمكن تنويعه أثناء إرسال الرسالة إلى الجلد، ويحتاج ذلك إلى تحكم عالي الدقة، حتى لا يحدث خلط بين الكثافة والتردد، وحتى لا يؤدي تغيير التردد إلى تغيير" درجة الذبذبة" مما قد يسبب صعوبة للمستقبل. فكل من الأذن (الذبذبات الصوتية الصادرة عن الجهاز النطقي) والجلد (ذبذبات الجلد الناتجة عن طريق النبضات الكهربية) تعتمد على درجة الصوت، أو تردد الذبذبات لتحديد معاني الرسائل.

وللتغلب على هذه الصعوبات التي ترتبط ببث الرسائل إلى الجلد عن طريق الذبذبات فقد تم تركيب جهاز للبثّ ووضعت له ألفبائية شفرية لنقل كلمات وجمل إلى الجلد. واسم هذا الجهاز Opthapt (انظر الشكل) ويتكون من آلة كاتبة ذات لوحة أزرار لكتابة الألفبائية الشفرية التي يتم تحويلها إلى تتابعات وتجمعات من النبضات التذبذبية التي توزع على مواقع مختلفة من الجسم.

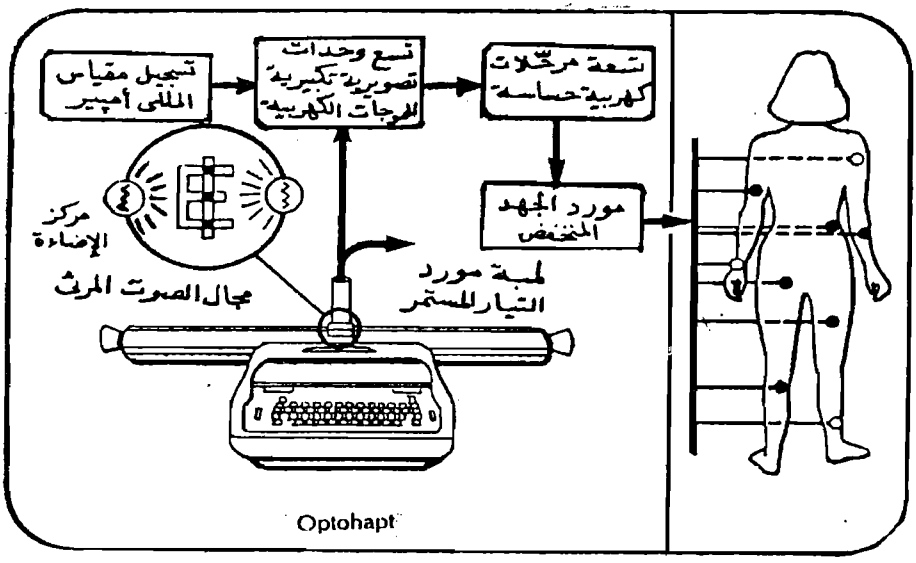

ومن الممكن استخدام مثل هذا الجهاز في مجالات تطبيقية متعددة، وبخاصة من الأشخاص الذين قد يتعرضون لتعطل حاستي السمع والبصر، مثل قائد الطائرة الذي قد تصاب أجهزته بخلل يوقف أجهزته وتتعطل معها كل وسائل الاتصال بالعالم الخارجي مما يعرّض الطائرة لكارثة محققة. فحين يكون جسم الطيار مزودًا بعدد من المتذبذبات فإنه سيمكنه التقاط التعليمات والتوجيهات التي سيبثها مركز التحكم في المطار من خلال النبضات الكهربية المرسلة إليه عن طريق جهاز التحكم عن بعد.

الجلد كنظام اتصال مستقل:

إذا كان معمل الاتصالات الجلدية في برنستون قد تعامل مع الجلد باعتبار قابليته لاستقبال الرسائل واستخدم وسائل ميكانيكية لبثّ هذه الرسائل إليه، فإنّ هناك فريقا من العلماء قادته Alma Smith سار بالبحث خطوة هامة إلى الأمام حينما قام بدراسة كل من القدرات الإرسالية والاستقبالية للجلد الإنساني، واعتبر الجلد نظاما اتصاليا بشريا مستقلا.

وقد بدأت Alna Smith دراستها بفرضية عامة تقول إن الاتصالات ذات المعاني العاطفية يمكن أن يقوم بها اللمس في غياب أي إشارات حسية أخرى، بمعنى أنها رأت أن اللمس يمكن أن يوظف بفاعلية كنظام اتصالي مستقل. ولاختبار صحة هذه

الفرضية كان عليها أن تقوم بمهمة ذات شقين: أولهما أن تتوصل إلى بعض الرسائل التي يمكن بثها عن طريق اللمس، والآخر أن تبتكر منهجًا عمليًا لبث رسائل كهذه عن طريق اللمس. وقد أوصلتها دراستها الاستطلاعية إلى النتيجة الآتية: حينما يضع شخص يديه على يدي شخص آخر (حتى مع وجود عازل بينهما يمنع وصول أي مؤثرات أخرى) فإنه يكون قادرًا على توصيل عدد من الانفعالات أو المشاعر المختلفة. ثم قامت بعد هذا باختيار خمسة منها رأت أنها أكثر قابلية للنقل عن طريق اللمس وهي: الشعور بالعزلة- الحنان- الخوف – الغضب – المزاح. وقد طلبت من أحد خبرائها المدربين أن يقوم بنقل هذه المشاعر إلى عدد من الأشخاص –الواحد بعد الآخر- عن طريق اللمس باليد، مع تغيير حركاتها. وقد قام الخبير بتوصيل يديه بيدي كل شخص، وعن طريق الحركات المختلفة ليديه حاول أن يوصل هذه المشاعر (مع وضع عازل بينه وبين مستقبل الرسالة).

ولتحديد درجة الدقة في الإدراك فقد أضافت Alma Smith إلى تجربتها خطوة هامة بتطويرها ما يمكن أن يسمى "قائمة الاتصال اللمسي" (انظرها بعد). وقد مرّ ذلك بمراحل ثلاث:

في المرحلة الأولى طلبت من عدد من الأشخاص المجرَّب عليهم أن يقترحوا الصفات الملائمة للمشاعر والانفعالات المنقولة إليهم، كالإرهاق والحنان والشعور بالعزلة. ثم قامت باستخلاص الصفات الخمس الأكثر ترددًا لكل انفعال وأعطت لكل صفة وزنها حسب مرات اختيارها لكل انفعال. وعلى هذا فإذا كان الوصف "مهتم" قد ورد ضعف عدد مرات الوصف "متعاطف" بالنسبة لانفعال "الحنان" فإن الأول منهما (مهتم) يعطي نقطتين ، في حين يعطي الآخر (متعاطف) نقطة واحدة.

وفي المرحلة الثانية طلبت من الأشخاص المجرَّب عليهم أن ينظروا إلى"قائمة الاتصال اللمسي" أثناء محاولة الخبير نقل مشاعره إليهم عن طريق إمساك اليد، وأن يختاروا الكلمات الخمس التي يشعرون أنها تمثل بصورة أفضل الانفعال المنقول إليهم.

وفي المرحلة الثالثة استخدمت نظام النقاط (انظر نظام النقاط لقائمة الاتصال اللمسي). فلو افترضنا أن الخبير أراد أن ينقل انفعال "الحنان" وطلب من الشخص المجرَّب عليه أن يختار خمس كلمات (من قائمة الاتصال اللمسي) يرى أنها أفضل ما

يصف الانفعال. إذا اختار المجرَّب عليه الاهتمام والارتياح والوقاية والحذر والتفهم فإنه سيحصل على عشر نقاط، وهي الحد الأقصى الذي يمكن الحصول عليه لهذا الانفعال، وهذا يعني أن الخبير نقل الانفعال بدقة. وإذا لم يختر المجرَّب عليه أي كلمة من تلك الموجودة أمام "الحنان" فإنه سيحصل على صفر. وهذا يعني أن المجرَّب عليه لم يستقبل أي جزء من الرسالة.

وبذا استطاعت Alma Smith أن تقدم وسيلة مفيدة وموضوعية لقياس مستوى الاتصال اللمسي عند الأفراد.

قائمة الاتصال اللمسي:

مرتبة هجائيا حسب حروفها

آمن	غير آمن	متعاطف	مرتاح	مهتاج
حار	غير ودي	متفهم	مرتعش	مهتم
حذر	فرح	متوافق	مستمتع	نشط
خائف	قاس	مجنون	مغضب	هادئ
دفاعي	لا مبال	محايد	ممتعض	هازئ
دمث	مؤمِّل	محب	مفعم بالحياة	هامّ
عديم الشعور	مبتهج	محتاج إليه	منتم	واقٍ
غاضب	متألق	محزون	منعزل	ودود

نظام النقاط

لقائمة الاتصال اللمسي

الحنان		النشاط		الخوف		الانعزال		الغضب	
مهتم	٢	مبتهج	٢	خائف	٣	لا مبال	٢	غاضب	٢
مرتاح	٢	مستمتع	١	دفاعي	٢	منعزل	٢	قاس	١
دمث	١	مهتاج	١	محزون	١	متوافق	٢	دفاعي	١

الحنان		النشاط		الخوف		الانعزال		الغضب	
محب	١	ودود	١	دمث	١	محايد	٢	مغضَب	٣
واق	٢	هازئ	٢	غير آمن	٣	عديم الشعور	٢	مجنون	٢
متعاطف	١	فرح	٢	نشط	١	غير ودي	١	ممتعض	٢
حذر	٢	مفعم بالحياة	٢	غير ودي	١			غير ودي	١
متفهم	٢	نشط	٢						
حارّ	١	متألق	١						

مَنْ يلمس من؟ وأين؟

تختلف عادات الشعوب في نظرتها إلى التلامس، فبعضها يفرض حظرا عليه، وبعضها يسمح به. ويختلف البعض الثاني في درجة اعتماده على اللمس سواء مع النفس أو مع الغير. فقد لاحظ Sidney Jourard حركات التلامس بين المتصاحبين في بعض المقاهي بعدد من المدن، وجاءت نتائجه تشير إلى وقوع الأعداد الآتية في الساعة الواحدة:

بورتو ريكو	١٨٠ مرة
باريس	١١٠ مرات
فلوريدا	مرتان
لندن	صفر

كذلك أراد Jourard أن يعرف أي أجزاء الجسم تلمس غالبًا فأجرى استبيانا على عدد من الطلاب يحوي خريطة لجسم الإنسان تقسمه إلى أربعة وعشرين قسما. واقتصر في استبيان آخر على تقسيم الجسم إلى أربعة عشر قسما، كما في الشكل الآتي:

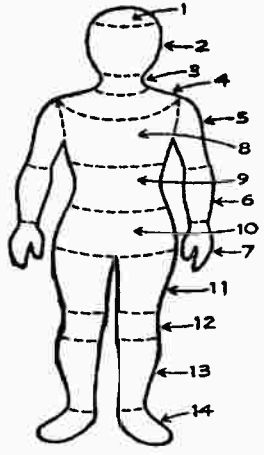

	a	b	c	d
1				
2				
3				
4				
5				
6				
7				
8				
9				
10				
11				
12				
13				
14				

وقد طلب الاستبيان من المجرَّب عليهم أن يحددوا جزء البدن الذي رأوا لمسه، أو الذي لُمس منهم، أو الذي قاموا هم بلمسه خلال الاثني عشر شهرا الأخيرة، وذلك بالنسبة لأربعة أنواع من الناس:

١- الأمّ (رقم a في صفحة الاستبيان).

٢- الأب (رقم b) .

٣- الصديق من نفس الجنس (رقم c) .

٤- الصديق من الجنس الآخر (رقم d).

وقد خرج من هذا الاستبيان بجملة من النتائج منها:

١- تعرض الإناث للّمس من كل الأشخاص أكثر من الذكور.

٢- قام الأصدقاء مختلفو الجنس، والأمهات بمعظم حالات اللمس.

٣- لم يقم كثير من الآباء بلمس أكثر من أيدي الطرف الآخر.

٤-تعرض الآباء والأمهات للمس قليل من النوع الحميم أو الودود.

٥-قامت الأمهات بكثير من اللمس من النوع الحميم أو الودود مع الآخرين.

٦-تحدث الرجال والنساء عن درجة أعلى من التلامس مع الوالدين والأصدقاء عن طريق الأيدي، وعن درجة أقل من التلامس معهم عن طريق أجزاء أخرى من البدن.
٧-قام الأصدقاء الذكور بلمسات كثيرة فوق منطقة الوسط.
٨-تمت أقل درجات الاتصال اللمسي بين الأب والابنة.
٩-هناك مناطق من الجسم اقتصر لمسها على العشاق أو الأزواج .
ويلخص مقدار اللمس لكل نوع الشكل الآتي:

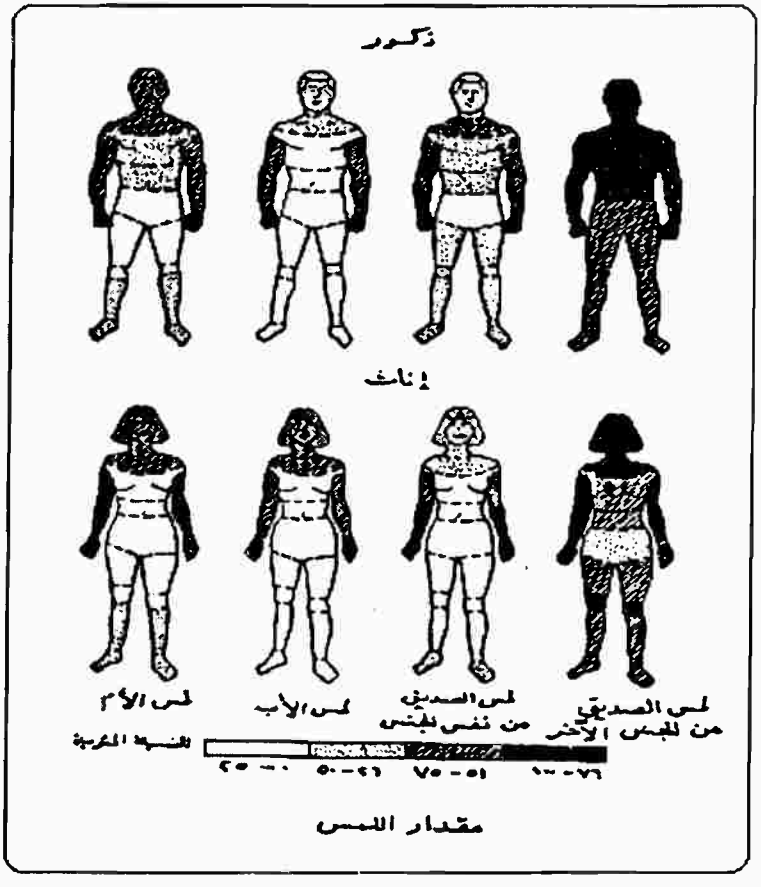

وقد خرجت بعض الدراسات للسلوك اللمسي في الولايات المتحدة بنتائج أخرى منها:

١-أن الأطفال يتلقون لمسات بين سن ١٤ شهرًا وعامين تزيد على ما يتلقونه في سنّ الرضاع.

٢-أن الأطفال الإناث يتلقين لمسات عاطفية أكثر مما يتلقى الذكور.

وفي دراسات نشرت أوائل الثمانينيات في الولايات المتحدة عن الاختلافات بين الجنسين في وسائل الاتصال غير اللفظية توصل الباحثون إلى النتائج الآتية:

١-خلال الأشهر القليلة الأولى لحياة الطفل يتلقى الذكور أنواعًا من السلوك الجسدي (تلامس - حمل - أرجحة..) أكثر مما يتلقى الإناث ولكن يتغير النموذج بعد الشهر السادس وينقلب إلى الضد.

٢-أكثر نماذج التلامس بالأيدي شيوعًا بين البالغين عند تلاقيهم خارج المنزل هو نموذج أ = ذكر- أنثى (بنسبة ٤٢٪) يليه نموذج ب= أنثى - ذكر (٢٥٪) يليه نموذج جـ= نفس الجنس ،ذكرًا كان أو أنثى.

وقد أيدت كثير من التجارب والدراسات غلبة النموذج رقم أ ، ومن ذلك ما ثبت من مراقبة السلوك غير اللغوي للمسافرين والمودعين في المطارات من أن الذكور (والأكبر سنا) يميلون إلى أن يبدأوا هم باللمس. وقد فسر ذلك بكون الرجال أكثر حرية في تصرفاتهم من النساء نتيجة فاعليتهم وإيجابيتهم ومركزهم الاجتماعي، وبأنه انعكاس للمقَوْلبات الثقافية عن الرجال والنساء ودور كل في المجتمع، وأخيرا بأنه نتيجة النظرة إلى اللمس على أنه عدوان جسدي، وهو ما يتوقع أن يحدث من الرجل أكثر من المرأة.

٣-في دراسة تمت على أطفال ما قبل المدرسة تبين أن البنات يلمسن الأولاد أكثر. وهذا يؤكد أن ما قيل عن تقدم الرجل على المرأة في مجال اللمس لم يظهر في جميع الأبحاث بصورة مطردة، وهو ما أكدته Judith Hall في دراستها التي نشرتها عام ١٩٨٤، وعللته بأن ذوي المكانة العليا من الأفراد ربما لا يحتاجون دائمًا إلى إثبات منزلتهم، أو قدرتهم على السيطرة على الآخرين، وأن الأفراد من ذوي المكانة الدنيا هم الأحوج إلى ذلك. ولذا فإن المرأة قد تبحث عن فرصة للملامسة لإثبات مكانتها، وتعويض عدم

تكافؤهـا في المركـز مع الرجل. كما أنها ذكرت أن المادة العملية التي تحت أيدينا ليست كافية- حتى الآن- لتلقي ضوءاً على نوعية الاختلافات في اللمس بين الرجال والنساء.

أنوع اللمس ومعانيه:

يـنظر الكثيرون إلى التلامس بين الأفراد على أنه مرادف للتعلق والتقارب وعمق الصـلة، كمـا أنـه قـد يكـون دلـيلا علـى الحب أو الرغبة الجنسية. ومع هذا فإن مدلول الرسـالة التي يستقبلها الجلد يختلف باختلاف عدد من المتغيرات مثل مدة اللمس، ودرجة قوته، والجزء الملموس، والقصد من اللمس، وطبيعة العلاقة بين المتلامسين، والموقف الذي يـتم فـيه الـتلامس، والمكـان الـذي يقـع فـيه (حفلـة – مكان عمل..)، وفوق هذا جنس المتلامسين.

وقـد أجريـت أكـثر مـن تجـربة علـى عـدد من طلاب الجامعة (ذكور وإناث – مـتزوجين وغـير مـتزوجين) سـئل كـل مـنهم أن يحدد ما تعنيه ملامسة صديق من الجنس الآخـر لأحـد عشـر جزءاً من أجزاء جسمه، وكان أكثر المعاني اختياراً هو الحب وعمق العلاقة، وتلاه الممازحة، والزمالة، واقتحام عزلة الشخص.

وإلـى جانـب هذا المعنى الأولى للمس توجد معان أخرى متعددة تختلف باختلاف طبيعة العلاقة بين المتلامسين:

١-فالـتلامس بـين غريـبين يعد من النوع العشوائي أو التصادفي، وهو الذي يتبعه عادة اعتذار صريح.

٢-أمـا الـتلامس الوظـيفي أو التخصصـي فـيقع حين أداء وظيفة أو مهنة معينة كملامسة الطبيب لمريضه حين الكشف عليه، أو الحلاق لزبونه عند قص شعره.

٣-وهـناك الـنوع الاجـتماعي الـتأدبي، وذلك مثل المصافحة عند التلاقي، ومثل تقبيل اليد في بعض المجتمعات.

٤-أمـا الـنوع الصداقي أو الحميمي فمثل تلامس العشاق أو تعانقهم أو تقبيلهم الخـد عـند التحـية أو الـتوديع. ويدخـل في ذلـك مـا يفعله الطبيب ليكتسب ثقة مريضه وصداقته من وضعه يده في يده ، أو يده على كتفه.

٥-وهناك نوع من اللمس يتّحد فيه اللامس والملموس وذلك حين يقوم الشخص بلمس جزء من جسمه. وهذا النوع من اللمس لا يحمل دلالة للآخرين إلا إذا رأوا الجزء الذي يُلمس من الجسم. ومن أمثلة ذلك إمرار الإصبع على الرقبة الذي يعني قطع رقبة الشخص. ومن أمثلته كذلك التحية أو الشكر بوضع الشخص يده اليمنى ممتدة عبر صدره، أو وضعه يده فوق فمه كما لو كان يمنع نفسه من الكلام أو الضحك، أو مسحه حول عينيه، وهي إشارة ترتبط عادة بحالة البكاء الحار بالدموع. وربما غطى الشخص عينيه ليبدو أنه لا يريد أن يرى ما لا يرضاه.

ويدخل في هذا النوع ما يعرف باللمس اللا إرادي الذي لا يقصد به تحقيق الاتصال، وعادة ما يحدث مع قليل من التنبه، أو بدون تنبه مطلقا. وتقتصر دلالة هذا النوع عادة على الكشف عن الحالة الداخلية للمرسل. ومن أمثلة ذلك العبث بالشعر (مع حركات مصاحبة مثل إمساك أي شيء على المنضدة والعبث به، ومثل إظهار التململ بحركات الوجه) مما يستنتج منه المشاهد وجود حالة من التوتر. ومن أمثلته كذلك حكّ موضع من الجسد، أو فرك العين، أو تسوية الشعر، أو تكرار إمرار اليد على الجبهة.

٦-وإلى جانب هذه المعاني الرئيسية لأنواع اللمس السابقة، فقد يحمل اللمس جملة من المعاني الثانوية أو الهامشية؛ مثل مركز الشخص، أو قوته، أو درجة نفوذه. فالطبيب أكثر حرية في لمس الممرضة، وليس العكس. وكذلك الحال بالنسبة للمدير مع السكرتيرة، والزبون مع النادلة، والأكبر سنا مع الأصغر. وفي كل هذه الحالات ثبت أن البادئ باللمس هو الأعلى مركزًا، أو الأكبر سنا.

وأخيراً: لعل أهم أنواع التلامس هو ذلك الذي يهدف إلى خلق التواصل، وكسر الحاجز النفسي، وتعميق الصلة بين الأفراد. إن هذا النوع يلعب دورا في إعطاء التشجيع، والتعبير عن الحب، وإظهار التأييد العاطفي. ولذا يفضله الكثيرون على التواصل باللفظ أو بالنظر.

كيف نشأت اللغة الإنسانية؟

لا أحد يعرف متى وأين وعلى أيِّ صورةٍ بدأ الكلامُ الإنسانيُّ على وجه الأرض، على الرغم من وجود نظرياتٍ كثيرة حولَ هذا الموضوع . ومن المؤكَّد أنه لا توجد على سطح الأرض أيُّ جماعة إنسانية- مهما قل حظُّها من الحضارة والمدنية- ليس لها لغةٌ تتفاهمُ وتتبادلُ الأفكارَ بها. وإن الكلام الإنساني لَيُمْكِنُ أن يستمرَّ بينما يباشرُ الإنسانُ عملا آخرَ يدويا، ويمكن أن يستمرَّ في الظلام. ولعل هذا هو السببُ في أن أجدادَنا القدماءَ فضَّلوا الحديث على غيره من طرق التفاهم مثل الإيماءات التي ولا شك كانت أسبقَ وجودا من الكلام، ومثل التعبير بالصور الذي ربما كان متأخرا في الوجود وأسلَمَ إلى اختراع الكتابة.

واللغة -أي لغةٍ بما فيها لغةُ الإنسان الأول- تتكون من أصواتٍ تصدرها أعضاءُ النطق البشرية. هذه الأصوات- لتصبحَ ذاتَ معنى- يجب أن تُوضَعَ بطريقةٍ معينة، وأن تكون محل اتفاقٍ بين أعضاء الجماعة اللغوية، باعتبارها قيمةً رمزية تستحضر في ذهنهم أفكارا معينة. وإن سرَّ العملية الكلامية كلِّها يكْمُنُ في تلك الصلةِ القائمة بين اللفظ ومعناه في عقول اثنين أو أكثر، وما عدا ذلك من العملية الكلامية فهو عنصرٌ عضوي طبيعي ميكانيكي. أما كيف تم في البداية عقدُ الارتباط بين اللفظ ومدلوله -حتى في أبسط صُوَره في عقل إنسانٍ فرد- فإنه ما يزال لغزا من الألغاز على الرغم مما قُدّم من افتراضات في هذا الموضوع. وسرٌّ آخرُ هو كيفيةُ امتدادِ هذا الارتباطِ من عضوٍ في الجماعة اللغوية إلى آخر، وكيفيةُ صيرورته ملكا عاما بين كل الناس.

وقد تمت كثيرٌ من التخمينات والمحاولات لاكتشاف الطريقةِ الأولى لإحداث الأصوات بقصد التفاهم مع الآخرين، والتي أخذت شكلا بُدائيا حتى تطورت هذا التطورَ الكبير وأخذت شكل لغات.

ومن هذه الفروض التي قدمت النظريةُ التي تَفترض أن اللغة نشأت نتيجة إلهام إلهي هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء.

وأهمُّ ما يعتمد عليه أصحاب هذا الرأي النصوصُ الدينية الواردة في القرآن الكريم وفي سفر التكوين. وهي نصوص في نظرنا ليست قاطعة وتقبل أكثر من تفسير. ومن ذلك قوله تعالى: " وعلَّم آدم الأسماء كلَّها" ففي رأينا أنه لا يعني أكثرُ من إقرار آدم عليه السلام وذريته على وضع الألفاظ.

وهناك فرضٌ ثان يقول إن اللغة قد ابتُدعت واستحدثت بالمصادفة وارتجال ألفاظها ارتجالا . ولا يوجد لهذا الفَرْض أيُّ سند عقليٌ أو نقليٌ أو تاريخيّ وهو يخالف النواميسَ العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية وهي القائمةُ على التدريج لا الارتجالِ والطفر.

وهناك فرض ثالث يزعم أن اللغة نشأت عن صَرَخاتٍ دهشة أو صَيْحات انفعال أو غيرها مما يعبِّر عن التأثر المفاجئ من ألم أو خوف أو فرحة، أو بدأت كسلسلة من التقبُّضات العَضَلية أو الأزيز الداخلي نتيجةً لإجهاد عضلي أو نتيجةً لتعبيرات سارة غيرِ لغوية.

أما الفرض الرابع فهو الذي يقرّر أن اللغة الإنسانيةَ نشأت أول ما نشأت تقليدا لأصوات موجودةٍ في الطبيعة مثل أصواتِ الحيوان وأصواتِ مظاهر الطبيعة مثل دويّ الريح وقصف الرعد وخرير الماء وحفيف الأشجار وما يحدث من صوت عن الضرب والقطع والكسر... وسارت في سبيل الرقيِّ شيئا فشيئا تبعا لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدُّم الحضارة، واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعددِ حاجات الإنسان... وكان الإنسان يستخدم عواملَ أخرى مساعدةً في أول أمره لتعوِّضَ قُصور لغته مثلَ الإشارات اليدوية والحركاتِ الجسمية.

وربما كان هذا الفَرْضُ أقربَ الفروض الأربعة إلى المنطق وأدناها إلى القَبول لأنه يتفق مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعةِ لها الكائناتُ والنظمُ الاجتماعية.

وإلى جانب ذلك سلك العلماء عدةَ طرقٍ علمية بقصدِ التوصل إلى خصائص لغة الإنسان الأول والاهتداءِ إلى الصورة التي ظهرت فيها وإن لم يحالفْهُمُ التوفيقُ كثيرا في ذلك.

ومن الطرقِ التي سلكها العلماء دراسةُ اللغاتِ القديمة مثل المصرية واليونانية والسنسكريتية والصينية ومقارنتها بعضِها ببعض بُغْيَةَ الانتهاء من ذلك إلى الاهتداءِ إلى الرَّطانة البُدائية التي كان يستعملها الإنسانُ الأول . ولم تنجحْ هذه المحاولةُ لأن اللغة كطاقةٍ بشرية يمتدُّ عُمْرُها إلى آمادٍ سحيقة لا يمكن حدُّها وتسبِقُ كثيرا أقدمَ اللغات المعروفة (التي يبلغ عمرها حوالي ٤٠٠٠سنة). ومن ناحية أخرى لأن استخدامَ الكتابة- التي هي الوسيلةُ الوحيدة لمعرفة اللغات البائدة- تُعتبر بالنسبة للكلام الشفوي وسيلةً حديثة جدا وأثرا من آثار الحضارة المتطورة المستقرة. وبهذا يمكننا أن نقولَ إنه بالقياس إلى أصل اللغة فإن كل لغةٍ معروفةٍ لنا تعتبر حَديثة ومهما أوغلنا في التاريخ فلن نصل إلا إلى لغاتٍ قد تطورت وتركت خلفها تاريخا ضخما لا نعرف عنه شيئا.

كذلك حاول العلماء الوصولَ إلى نتائجَ إيجابيةٍ عن طريق دراسة لغة الأطفال ومعرفةِ كيفية اكتساب الطفل للكلام وتعلمه. وتلك محاولةٌ لا تقل مجانبةً للصواب عن سابقتها؛ لأن الطفل يكتسب لغته الأمَّ في محيطٍ تعتبر فيه اللغة ثابتةً راسخة بالفعل، ومحددةَ الاستعمالات وواضحةَ التعابير لتلبية حاجات البيئة ورَغَباتِها الخاصة. وحتى إذا تُرك الأطفالُ وشأنَهُمْ لم يُلَقَّنوا كيفية التكلم – كما يحدث بالنسبة لكثير منهم- فإن حالتهم تختلف تماما عن حالة الإنسان الأول الذي يُفترض وجودُه في فترة نشأة اللغة وتكوّنها.

ومن الأشياء الطريفة التي حفظها لنا التاريخ تلك المحاولات التي تمت لعزل الأطفال منذ مولدهم، حتى يمكن الحكم ما إذا كان الطفل يستطيع أن يتحدث بلغة ليست في أصلها مبنية على محاكاته للكبار، ويمكن تحديد أقدم اللغات وجودًا؛ فروى هيرودوت أن الفرعون المصري "بسماتيك" قد أجرى هذه التجربة على طفلين ليبرهن على أن اللغة المصرية القديمة هي لغة الإنسان الأول، ومنها تفرعت اللغات الأخرى، ولكن

خاب ظنه من هذه التجربة. وقام فردريك الثاني- في مطلع القرن الثالث عشر – بتجربة مماثلة، ويقال إن الطفلين ماتا قبل أن يصل الباحثون إلى نهاية تجربتهم. وفي حوالي عام ١٥٠٠م قام جيمس الرابع ملك سكوتلاندا بتجربة مماثلة ادعى بعدها أن الأطفال الذين أقام عليهم تجربته قد استطاعوا أن يتحدثوا باللغة العبرية بطريقة مفهومة، وهو ادعاء واضح الزيف، وكل الدلائل تؤدي إلى رفضه.

وتمت محاولة ثالثة لجأت إلى دراسة طريقة التركيب والتأليف في اللغات التي توصف بالبُدائية والتوحش. وأهم نقد يوجه إلى هذه الطريقة أنها تقوم على أساس الطبقية المزعومة للغات البُدائية، وهذا تصور خاطئ لتلك اللغات. لغويا ليس هناك لغاتٌ بُدائية. نعم هناك لغاتٌ لمجتمعاتٍ ربما أَطْلَقَ علماء الانثروبولوجيا على ثقافتها وصفَ البُدائية، ويَعْنُون بذلك أنها في مجال التسابق على استغلال المصادر الطبيعية وما شابهها قد حققت مستوى هابطا. ولكنّ كلمة "بُدائي" على أي حال ليست وصفا مناسبا يمكن أن توصف به اللغة. وإن الدراساتِ اللغويةَ للغاتِ العالَم لا تقف في جانب الزعم بأن تركيب اللغاتِ يخضع لحجم الثقافة ويتفاوت بحسب حظِّ المجتمعات منها. وإن مفرداتِ اللغةِ في أي وقت إنما تصوّر بدقةٍ الثقافةَ المادية والمعنوية للمتكلمين، ولكنَّ اللغاتِ قد تتجاوب من ناحية المفردات مع التعديلات اللانهائية التي تصاحب التطور الثقافي، ثم تحتفظ في نفس الوقت بخصائصها الصوتية والنحوية القديمة بدون تغيير. وإنها لحقيقة ملموسة تثبتها الملاحظة في ميدان الدراسات اللغويةِ لتلك اللغات التي تُنْسَبُ إلى مجتمعات بُدائية – أن تلك اللغاتِ من الناحية الصوتية أو النحوية لا تقلُّ تنظيما وتناسقا عن تلك الموجودة في غربي أوربا أو في مجتمعاتٍ ذاتِ حظ وافر من الحضارة. كذلك ثبت أن عواملَ التغيير في تلك اللغات ليست أقلَّ نشاطا أو أبطأ فاعلية في حركتها بالنسبة للغات المجتمعات البُدائية عنها في غيرها. وربما كان العكس صحيحا، فإنه يمكن أن يقال إن استخدامَ وسيلةٍ للكتابة ووضع معاييرَ للصواب أو الخطأ كلَّ هذا يعوق التغيير اللغوي في مجالاتٍ خاصة ويجعل لغة الشعب المتحضر أقلَّ تطورا من لغةِ الشعب البُدائي.

إن كلَّ ما يمكن أن يُفعلَ وتُتَوَقَّعَ منه نتائجُ مفيدة، هو مقارنةُ اللغةِ الإنسانية ومكانتها في المجتمعات البشرية بما نجده في المجتمعات الحيوانية من وسائل اتصال ذاتِ شبهٍ كبير باللغة الإنسانية وإن أنظمةً كثيرة كهذه -أكثرُ أهميةً وتركُّبًا من كونها مجردَ صيحات- قد دُرست لكشف علاقاتها بالكلام الإنساني العادي. ونخص بالذكر منها رَقَصَاتِ النحل، والنداءاتِ المعيَّنة لبعض القرودِ في مواقف مختلفة... إلخ . ومن وجهة نظر علم وظائف الأعضاء فإن نداءاتِ القرود قريبةُ الشبه بالكلام البشري لكونها نِتاجَ أعضاءٍ تقابل أعضاءَ النطق في الإنسان، ولكونها تُستقبل ويُستجاب لها عن طريق أذنِ السامع. ولكن يجب ألا يغيبَ عن البال أن نُظُمَ السلوك لمثل هذه الأنواع من الاتصال تختلف كثيرا عن نظامِ اللغة، وبوجهٍ خاص من ناحية التنوع الواسع للكلام الإنساني، وطواعيتِهِ العظيمة، وإمكانياته اللانهائية لتغطية المدى الواسع للتجارب الإنسانية. كذلك تختلف في أن انتقال اللغةِ عَبْرَ القرون أعطى فرصةً لظاهرة التطور اللغوي أن تعمل. وليس هناك ما يجعلنا نفترض أنه خلال استمرار صَرَخاتٍ حيوانية معينة، أو رَقَصَاتٍ نحلية قد حدث أيُّ نوع من التغير، أو أن هناك أيَّ اختلاف بين وسائلِ مجموعةٍ حيوانية معينة في مكان ما عن وسائلِ مجموعةٍ حيوانية مماثلة تعيش في مكان آخر.

ومع هذا أمكن تعليم كثير من الحيوانات الأليفة كيف تستجيب لنداءات اللغة البشرية، وعُلِّمت طيور مثل الببغاء بعض كلمات اللغة.

ولكن ما هو أعجب من هذا أن الشامبانزي قد أمكن تعليمها عشرات من الكلمات بطريقة الرموز اللغوية، وعن طريق نماذج بلاستيكية أصبحت قادرة على أن تكوّن هذه الكلمات، وتجمع الأحرف في مجموعات تشبه الجمل التي يقدمها الطفل في حياته المبكرة.

وقد افترض بعض اللغويين مراحل ثلاثا متتابعة مرّت بها اللغة في نشأتها، وهي مرحلة الصراخ، ثم مرحلة المدّ أو استخدام الحركات، ثم مرحلة المقاطع التي ظهرت فيها الأصوات الساكنة. وكانت اللغة في أول أمرها تدل مفرداتها على معانٍ جزئية، ثم

انتقلت إلى التعبير عن المعاني الكلية، وظهرت فيها أولا أسماء الذوات، ثم الصفات، ثم أسماء المعاني، ثم الأفعال.

ورغم كل ما بذل من محاولات يظل موضوع لغة الإنسان الأول ونشأة اللغة الإنسانية من الأسئلة المغلقة التي عجز العلم عن الإجابة عنها، ووقف حائرا أمام اكتشاف سرها، ومعرفة كنهها.

كيف يتم النطق عند الإنسان ؟
وهل هناك حيوان ناطق غيره؟

أبدأ بإجابة السائل عن الشقِّ الثاني من السؤال وهو: هل هناك حيوانٌ ناطق غيرُ الإنسان فأقول: إذا أخذنا النطقَ بمعنى مجردِ التَّفَوُّهِ ببعضِ كلماتٍ فإن هناك من الحيوانات العليا والطيورِ ما يمكن أن يقلِّدَ الإنسانَ ويحاكيَهُ في التلفظ ببعضِ الكلماتِ، ولعلَّ أشهر الطيور القادرة على ذلك البَبْغاء. أما إذا أردنا بالنطق الكلامَ المرتبطَ بالتفكير فلا يوجد سوى الإنسانِ من بين الحيوانات من يَقْدِرُ على النطق، وهذه من الصفات التي فضَّل الله بها الآدميين على غيرهم وهو مصداق قولِه تعالى: **"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا"**. (الإسراء: ١٧) وحين أطلق المناطقةُ على الإنسان وصفَ حيوانٍ ناطق لم يَعْنُوا مجردَ النطق ببعض كلمات، وإنما عَنَوْا التفكيرَ في المقام الأول. وكثير من الفلاسفةِ وعلماءِ اللغة لا يَفْصِل بين اللغة والفكر بل يعتبرهما وجهين لورقة عملة واحدة. فالإنسان حين يفكر إنما يفكر بواسطة اللغة، وحين يتكلم لابد أن يسبق كلامه عمليةٌ عقليةٌ؛ ولذا سمى بعضهم التفكير باللغة الصامتة، وأثبت بعضهم أن الإنسان حين يفكرُ يدِبُّ النشاطُ في جهازه النطقي في نفس الوقت ويُحْدِثُ حركاتٍ غيرِ مسموعة، ولكن يمكن تسجيلها وملاحظتُها بالأجهزة الدقيقة.

أما كيف يتم النطقُ عند الإنسان؟ فذلك نِتاج تعاونٍ تام بين جملة من الأعضاء والأجهزة البشرية، يتم التنسيقُ بينها ويُشْرِفُ على تحريكها مركزُ القيادة أو التسييرِ في الدماغ. وحين تصل الأوامرُ إلى أعضاء النطق عن طريق الأعصاب المحرِّكةِ الموجودةِ في القشرة الدماغية- تتقلصُ العضلات المشاركةُ في عملية الكلام، ومنها عضلاتُ الجهازِ التنفسيِّ المولدِ للطاقة الصوتية ومنها عضلاتُ الحنجرةِ وبخاصةٍ الأوتارُ الصوتية ومنها عضلاتُ البلعومِ وسقفِ الحنك واللسانِ والفكين. ويرى بعضُ الباحثين أن هناك مراكزَ

معينةً في الدماغ لوظيفة اللغة وأن هناك مناطقَ في الدماغ مسئولةً عن تنسيق العمليات الحسية الحركية اللازمة للتكلم. وهذه المناطقُ والمراكز هي: المركز الحسيُّ لأصوات اللغة - مركز التنسيق بين حركات التلفظ- المركز الحسيّ للعضلات المُحْدثة للتصويت- المركز الحسّيُّ البصري للقراءة- مركزُ السمع- مركزُ البصر -مركزُ تحريكِ عضلاتِ الوجه والحنجرة واللسان – مركزُ تنسيق حركات اليد.. وغيرُ ذلك.

وحينما يستعد الإنسان للكلام العادي يستنشق الهواءَ فيمتلئ صدرُه به قليلا . وإذا أخذ في التكلم فإن عضلاتِ البطنِ تتقلصُ قبل النطق بأول مقطع صوتي ثم تتقلصُ عضلاتُ القفصِ الصدريِّ بحركاتٍ سريعة تدفع الهواء إلى أعلى عبر الأعضاء المنتجة للأصوات. وتواصل عضلاتُ البطن تقلصاتِها في حركةٍ بطيئة مضبوطة إلى أن ينتهي الإنسانُ من الجملة الأولى. فإذا فَرَغَ منها فإن عمليةَ الشهيق تملأ الصدر ثانية وبسرعةٍ استعدادًا للنطق بالجملة التالية وهكذا.

ومعنى هذا أن العمليةَ الكلامية تتم في شكلها الأساسي عن طريق التحكُّم في هواء الزفيرِ الصاعدِ من الرئتين. ولا نعلم لغةً تعتمد على هواء الشهيق في إنتاج الصوت، وإن أمكن أن تُنْتجَ أصواتٌ خلال عملية الشهيق أيضا، ولكن هذا إن حدث يكون استثناءً فقط. ومثلُ هذه الأصوات تُسمع بين الأطفال وتَقَعُ عند الكبار في حالة النشيج أو الانتحاب.

وتختلف العمليةُ الكلامية عن التنفس العادي في أن الثانيَ يتم بصورةٍ صامتةٍ في العادة لتحرُّكِ تيار الهواء دون عوائق، أما العمليةُ النطقية فلا يمرُّ الهواء معها حرا طليقا –كما يحدث في حالة التنفس – وإنما يصادف الهواءُ في اندفاعه إلى الخارج أنواعًا من الضغط والكبح والتعويق. والهواءُ حين يُكبح يولِّد صوتا، وأوضح أمثلة على ذلك تشغيلُ الآلات الموسيقية الهوائية وحركةُ الريح بين الأشجار.

وكل نقطة على طول مجرى الهواء من الحنجرة حتى فتحة الفم أو الأنفِ يمكن التحكمُ في الهواء عندها فتكونُ مخرجا للصوت أو نقطةَ إنتاجٍ له. ورغم أن هذه النقاطَ غير محدودة وبالتالي فإن عددَ الأصوات الممكنِ نُطْقُهُ غيرُ محدودٍ كذلك فقد لوحظ أن

كل لغة تختار لنفسها عددا معينا من هذه النقاط يمتد على طول مناطق متباعدةٍ حتى يَسْهُلَ على الأذن العادية التعرفُ عليها.

وأهمُّ النقاط التي يتم التحكم عندها هي:

*المنطقةُ المحصورة بين الشفتين؛ وتُنتج أصواتًا مثلُ الباء والميم.

*المنطقةُ المحصورة بين الشفة السفلى والأسنانِ العليا؛ وتُنتج صوتا مثلُ الفاء.

*المنطقةُ المحصورة بين طرفِ اللسان والأسنان العليا؛ وتُنْتج أصواتا مثلُ الظاء والذال والثاء.

*المنطقة المحصورة بين طَرَفِ اللسان واللِّثة؛ وتُنتج أصواتا مثلَ النون واللام والراء.

*المنطقةُ المحصورة بين جزء من اللسان وجزء من سقف الحلق؛ وتنتج أصواتا مثلَ الجيم والكاف والخاء والغين .

*المنطقة المحصورة بين الحائطين الخلفي والأمامي للحلق أو بعبارة أخرى بين جذر اللسان ومؤخَّر الفم؛ وتُنتج العين والحاء.

*المنطقة المحصورة بين الوترين الصوتيين في الحنجرة؛ وتنتج الهاء والهمزة.

وتتعدد طرقُ التحكم في الهواء الصاعد بين الغلقِ التامِ ثم الفتح فَيَحْدُثُ انفجارٌ (ب) أو التضييق فَيَحْدُثُ احتكاك (س) أو القفل في مكان والفتح في مكان آخر (ل-ن) أو القفل المتكرِّر (ر)

كما أن هناك تجاويفَ متعددة في جهاز النطق تقوم بدور حجر الرنين لتضخيم الصوت أو ترقيقه وأشهرُ هذه التجاويف: تجويف الحلق، وتجويف الفم، وتجويف الأنف، وتجويف رابع يمكن تكوينه عن طريق إبراز وإدارة الشفتين. ويتميز تجويف الفم بأنه قابل للتشكل والتحكم توسيعا وتضييقا بحركة الفك الأسفل وحركة اللسان بخلاف تجويف الأنف الذي له شكل وحجم ثابتان ولذا فتأثيرُهُ كحجرة رنين تأثير ثابت.

وتسمية الأعضاء السابق ذكرُها بأعضاء النطق أو الكلام تسمية مجازية لأن هذه الأعضاءَ في الحقيقة تقوم بوظيفةٍ أساسية لحفظ حياة الإنسان؛ فالرئتان تنقلان الأوكسوجين إلى الدم. والأوتارُ الصوتية تساعد على منع الأجسام الغريبة التي ترفضها الرئتان من الدخول إلى مجرى الهواء الواصل للرئتين. واللسانُ يدفع الطعام دائريا داخلَ الفم حتى يمكنَ طحنه طحنًا جيدا ثم يحوِّله إلى شكل معين من أجل البلع. والشفتان صمامُ لحفظِ الطعام من الانتشار أثناء المضغ وتستعملان كذلك في المص والبصق. والأسنانُ والأضراس تستعملان لتقطيع الطعام ومضغه. والتجويفُ الأنفي حجرةٌ لتكييف الهواء قبل هبوطه إلى الرئتين.. ولكن الضرورة الاجتماعية بالإضافةِ إلى الذكاء الإنساني خَلَقَا وظيفةً ثانوية لهذا الجهاز الحيوي وهي وظيفة النطق اللغوي.

فتبارك الله أحسن الخالقين.

لغة الحيوان

ليس الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي وهبه الله القدرة على التفاهم ومنحه وسيلة الاتصال ببني جنسه، وإنما يشركه في ذلك سائر الكائنات الحية من حيوانات وحشرات وطيور. وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى هذه الحقيقة فقال: **"قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم"**، وقال عن سيدنا سليمان: **"يأيها الناس علمنا منطق الطير"**، وقال عن الهدهد في خطابه لسيدنا سليمان **"أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين"**.

وتتخذ الكائنات الحية غير البشرية وسائل متنوعة للتفاهم أهمها الوسائل الثلاث الآتية:

الوسيلة الأولى: التفاهم عن طريق الأصوات. وتتفاوت الحيوانات في ذلك تفاوتا كبيرا. فالثدييات منها تملك جهازا متطورا للصوت يتمثل في الحنجرة التي تماثل حنجرة الإنسان في تركيبها ووظيفتها. ولكنها لا تنطق مثل الإنسان لأن جهازها العصبي خال من مراكز الكلام والمعلومات والذاكرة، مع النقص الكبير في نمو فصوص المخ الأمامية والجانبية، وما يتبع ذلك من عدم القدرة على التخيل والتفكير والابتكار. وكل ما تستطيع أن تفعله إخراج النداءات الصوتية بطريقة معينة متكررة تحمل نفس النغمة والتردد والدرجة الصوتية مثل نباح الكلب، وعواء القط، ونهيق الحمار، وخوار الثور، وصهيل الفرس، وزئير الأسد.

وتملك الطيور أجهزة صوتية أكثر نموا وتقدما، كما أنها تتفوق في قدرتها على التحكم في أصواتها وتحويرها وتغييرها، وبخاصة الطيور الناطقة التي تستطيع أن تقلد أصوات الإنسان والحيوان مثل الببغاء. ويتكون جهاز الصوت عند الطيور من حنجرة عظميّة صغيرة اسمها "المصفار" تقع في أسفل القصبة الهوائية قبل تفرعها إلى شعبتين هوائيتين. ويوجد داخل حجرة "المصفار" غشاء رقيق يمتد في وسطها وغشاءان أقل

حجما على جانبيها. وهذه الأغشية الثلاثة تهتز مع دخول الهواء إلى الجهاز التنفسي ويفعل العضلات، فيصدر منها أصوات مختلفة. ومعنى هذا أن أصوات الطيور تنشأ عند دخول الهواء إلى الرئتين، أي أثناء الشهيق، وهي بهذا تختلف عن سائر الحيوانات التي تملك حنجرة للصوت، فهي تخرج أصواتها مع هواء الزفير.

وتصدر عن عديد من الأسماك أصوات تعتبر بمثابة لغة تتفاهم بها. فالأسماك ليست خرساء كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكننا لا نسمع أصواتها إلا إذا غصنا تحت الماء. وقد تمكن العلماء من التقاط هذه الأصوات عن طريق مكبرات للصوت.

وقد عوض الله الخفاش عن ضعف بصره وميله إلى الطيران ليلا بأن منحه "رادارا صوتيا" يمكنه من الطيران بسرعة كبيرة واصطياد الحشرات في الظلام الدامس بكل دقة. إنه يصدر بفمه صوتا رفيعا متقطعا عالي التردد يجاوز المدى الذي تستطيع أذن الإنسان سماعه. وهو يصدرهذا الصوت في جميع الاتجاهات على شكل موجات صوتية تسير في خط مستقيم حتى إذا اصطدمت بأي جسم مهما كان صغيرا فإنها ترتد ثانية منعكسة على نفسها فتستقبلها أذن الخفاش الرادارية فتعرف موقع الجسم ومكانه وحتى حجمه وشكله.

ولا تصدر كل الأصوات الحيوانية عن الفم فمنها ما يصدر عن طريق الاهتزاز المنتظم المستمر للأجنحة أثناء الطيران، كما في الذباب والبعوض والنحل، أو عن طريق احتكاك جزء من الحشرة بجزء آخر مثل احتكاك الأجنحة الأمامية بالخلفية، أو الأرجل بالأجنحة، أو الأجنحة بالجسم، كما في الجراد والقنفذ. وبعض الخنافس، أو عن طريق قرع الرأس على أي جسم صلب خارجي بطريقة مستمرة متتالية، كما هو الشأن في النمل الأبيض وبعض الخنافس.

أما وسيلة التفاهم الثانية التي تلي الأصوات في الأهمية فهي إصدار الحركات والإشارات المعينة. ومن ذلك تحريك الذيل في كل اتجاه عند ثعبان الكوبرا. وحركات الطيور؛ المعينة، وأهمها حركات النحل ورقصاته التي يؤديها بصور مختلفة. فقد تكون الرقصات دائرية متلاحقة، وقد تكون دائرية بطيئة، وقد تكون مستقيمة، وقد تكون

اهـتزازية.. وهي في كل حالة تعبر عن معنى مختلف كالإشارة إلى وجود الطعام، أو بيان اتجاهـه، أو تحديـد المسـافة اللازمـة للوصول إليه. وقد تعني الرقصة أشياء أخرى مثل: "تعـال هنا"، أو "اهرب من هنا"، أو "النجدة إننا في خطر". بل قد تعني ما هو أدق مـن هذا مثل: "طر في خط مستقيم بانحراف عشرين درجة على يسار الشمس، وعلى بعد مئتي متر فستجد مساحة من أزهار البرتقال".

ووسيلة التفاهم الثالثة لدى الحيوان تعتمد على حاستي الشم والبصر؛ إما عن طـريق اسـتقبال روائح معينة، أو تفسير إشارات ضوئية خاصة. وتختص بالطريقة الأخيرة الحـيوانات الـتي تنشـط لـيلا حيث تصدر وتستقبل الإشارات الضوئية ذات التردد المعين كما هو الحال في بعض الحشرات المضيئة. هذه الإشارات ذات دلالات مختلفة يفهمها أفراد النوع نفسه، وتختلف في ومضاتها ودلالاتها من نوع إلى آخر.

وقـد يتسـاءل الآن متسـائل: إذا كـان للحـيوان لغـة يـتفاهم بها كما للإنسان، فلماذا اخـتص الإنسـان بوصـف الـنطق مـن بـين جمـيع الحـيوانات فقيل في تعريفه إنه "حيوان ناطق"؟

والإجابـة تتمـثل في الفـروق الكـثيرة التي تميز لغة الحيوان عن لغة الإنسان. فلغة الحيوان لغة طبيعية يولد بها ولا تعد مكتسبة كلغة الإنسان، وهي لغة تقوم على الحركات والإشـارات الموجهـة إلـى العـين أكـثر ممـا تقـوم على الأصوات الموجهة للأذن. وحين تسـتخدم فيها الأصوات فلا تخرج عن كونها مجرد تعبير عن انفعال. كما أن لغة الحيوان دائمـا هـي هـي لا تـتطور مـن عصر إلى عصر ولا تختلف من بلد إلى بلد. وإذا كانت بعـض الحيوانات- كالببغاوات – تملك القدرة على النطق ببعض الكلمات، فليس هناك ما يـدل علـى فهمهـا لمـا تقـول، أو أنهـا تفكر مثلنا قبل أن تنطق، أو أنها تستعمل هذه الكلمات عندما يتحدث بعضها إلى بعض.

وهناك على الجانب الآخر مميزات تختص بها لغة الإنسان منها أنها اللغة الوحيدة القادرة على نقل مختلف المشاعر وتصويرها، والقادرة على تدوين العلوم والفنون والآداب بما تحويه من خيال وإبداع، فيصنع الإنسان بذلك تراثا يميزه عن الحيوان، وهو ما نطلق عليه لفظ "الثقافة". فكما أن الإنسان حيوان ذو تاريخ، كما يحلو لبعضهم أن يعرفه، فهو أيضا حيوان ذو ثقافة.

ومن هذه المميزات كذلك أنها لغة كلامية تعتمد على الكلمات التي لا تقف عند كونها مجرد أصوات يصدرها فم الإنسان، ولكنها تتجاوز ذلك لتصبح نظاما صوتيا مركبا يشترك في إنتاجه جهاز النطق البشري بالنسبة للمتكلم، وجهاز السمع بالنسبة للسامع، وتسبقه وتصاحبه وتعقبه عمليات عقلية كثيرة لا تتوفر في أي لغة من لغات الحيوانات.

وميزة أخيرة للغة الإنسانية نشير إليها وهي أنها في استعمالها العادي لغة تجددية، بمعنى أن جزءاً كبيرًا مما نقوله حين نستعمل اللغة هو جديد تمامًا وليس تكرارًا لما سمعناه من قبل. ولهذا قيل إن الاستعمال اللغوي إبداعي أو خلاّق لأنه يعني القدرة على فهم جمل ونطق جمل لم تسمع من قبل.

فمن أجل هذا التميز الواضح للغة الإنسان وتفوقها على سائر لغات الحيوانات، ولمرونة هذه اللغة وقابليتها للتركب والتطور، ولقدرتها على التعبير عن جميع الأفكار اعتبرت المميز الحقيقي الذي يفرق بين الإنسان والحيوان.

وصدق الله العظيم إذ يقول: " **ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**".

من أول من وضع النقاط على الحروف؟ وكيف؟

النَّقْطُ نقطان: نقطُ الإعجام ونقط الشكل. أما نقط الإعجام فقد استُخدم بقصد التمييز بين الأحرف المتشابهة في الكتابة مثل الباء والتاء والثاء ومثل السين والشين ومثل العين والغين وغير ذلك. وسمى نقطَ الإعجام لأن العُجْمَةَ تعني في لغة العرب الغموضَ والإبهام. والإعجامُ هو إزالة هذا الغموض. فلما كان هذا النوع من النَّقْط يُزيل الاشتباه والالتباس بين الأحرف سُمي إعجاما.

وأما نَقْطُ الشكل فهو النقط الذي استُخدم في فترةٍ ما من تاريخ اللغة العربية لتمثيل الضمة والكسرة والفتحة أو ما يُعرف الآن باسم الحركات أو العلل القصيرة.

ولكل نوع من هذين النوعين تاريخٌ مستقلٌ عن الآخر ولذا سنتناول كلا على حدة .

ونبدأ بنقط الإعجام فنقول إن كلَّ النقوش الجاهلية التي عُثر عليها كانت خاليةً من نقط الإعجام خُلُوًّا كاملا . وجاءت رسائلُ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والحُكَّامِ بدون نَقْط كذلك. وقد عُثِر على ما يُظنُ أنه الأصول الحقيقيةُ لرسائله إلى المقوقِس عظيم القبط في مصر، وإلى المنذر بن ساوى صاحبِ البحرين وغيرهما، وجاءت جميعُها بدون نقط. وحينما كُتب مصحفُ عثمان كُتب خاليا من النَّقْطِ مما أوقع بعضَ العوامّ من القارئين في الخطأ. فقد سُمع أحد العوام يقرأ: ذلك الكتاب لا زَيْتَ فيه بدلا من : لا ريب فيه. وسُمع بعضهم يقرأ: جعل السفينةَ في رجْل أخيه بدلا من جعل السِّقاية في رَحْل أخيه. وقرأ بعضهم: وما عَلَّمْتمُ من الجوارح مُكَلِّبين بدلا: من الجوارح مكلبين.

لم ينج من التصحيف في القرآن كبارُ اللغويين. فهذا حمادٌ الراوية يشي به بشارُ ابنُ بردٍ إلى أمير البصرة قائلا : إنه يَرْوي جُلَّ أشعار العرب ولا يُحسنُ من القرآن غيرَ أمِّ الكتاب. فيسأله الأميرُ أن يقرأ في المصحف فيصّحفُ في عدةِ آيات منها: وأوحى ربكَ إلى النَّحْل أن اتخذي من الجبال بيوتا بدلا من: وأوحى ربكَ إلى النحل..

ومن تصحيفات المحدّثين ما رواه بعضهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يَسْتحبُّ العسل في يوم الجمعة، وإنما كان يستحب الغُسْل فيه.

لكن عثر على بَرْدِيَّةٍ يرجع تاريخها إلى عام ٢٢ على عهد عمر بن الخطاب وهي مكتوبة باللغتين العربية واليونانية وقد نقطت فيها حروفُ الخاء والذال والزاي والشين والنون. كما عُثر على نقش بقرب الطائف يرجع تاريخه إلى عام ثمانية وخمسين في عهد معاوية نقطت فيه أكثرُ حروفه التي تحتاج إلى نقط. كما أن هناك إشاراتٍ في المراجع العربية تدل على وجود النقط في الجاهلية. ومن ذلك:

أولا: ما روي عن ابن مسعود وهو قوله: جَرِّدوا القرآن. قال الزمخشري: أي من النَّقْط والفَواتح والعُشور.

ثانيا: ما يرجحه القلقشندي في صبح الأعشى من أن الإعجام وضع مع وضع الحروف. وهذا الرأي الأخير هو الأكثر قبولا في نظري إذ يَبْعُدُ أن تكون الحروفُ المتشابهةُ قد وُضعت أول أمرها على هذا اللَّبْس. ومع هذا فقد كان العربُ الخُلَّصُ، يعتبرون نَقْطَ الكِتاب سُوءَ ظنٍّ بالمكتوب إليه. ولذا كانوا يُجَرِّدون كُتُبَهُمْ من النقط. وفي ذَمِّ النَّقْطِ يقول أبو نُواسٍ في كاتبٍ نَقَطَ كتابًا أرسله إليه وشَكَله:

لم تَرْضَ بالإعجامِ حينَ كَتَبْتَه ... حتى شَكَلْتَ عليه بالإعراب

أحسستَ سوءَ الفهم حين فعلتَه ... أم لم تثقْ بي في قِراءةِ كتاب

لو كنتَ قَطَّعْتَ الحروفَ فهمتُها ... من غير وصلِكَهُنَّ بالأنساب

ولكن حينَ اختلطَ العربُ بالأعاجم وكَثُرَ التصحيفُ في القرآنِ والحديثِ النبوي والشعرِ العربي وُجدت الحاجةُ المُلِحَّةُ إلى انتزامَ النَّقْط في الكتابةِ. وتَحَمَّسَ لذلك الحجاجُ ابنُ يوسفَ الثقفي وكَلَّفَ كُلاًّ من نصرِ بنِ عاصمٍ ويَحيى بنِ يَعْمُر بوضع ضوابطَ دقيقةٍ للإعجام، وكان ذلك في خلافة عبد الملك بنِ مروان في الثلث الأخيرِ من القرنِ الأول الهجري، فالتزم النَّقْطُ، بعد ذلك وأعيد ترتيبُ الأحرف بوضع الثُّلاثِيَّاتِ أوّلاً (ب ت ث) و (ج ح خ) ثم الثنائيات (د ذ – ر ز – س ش – ص ض ..) ثم المفردات (ك ل م

ن هـ و ..) وروعي في النَّقْطِ أن يكونَ أفرادا وأزواجا وأثلاثا. كما روعيتِ المخالفةُ بين أماكِن النَّقْط بتوقيع بعضها فوقَ الحروف وبعضِها تحتَ الحروف. وقد عَصَم هذا النقطُ القارئ من الخطأِ في تمييز الحرف. فلو كتبت كلمةُ مثلُ "بنت" بدون نقط لاحتملت أن تكون: بنت – بيت – نبت – ثبْت – ثيْب – تبَت- نيب.. إلخ

أما نقطُ الشَّكْل فهو بكل تأكيد حادثٌ بعد الإسلام، ولم يرد في أي وثيقة أو بَرْدية قبل أبي الأسود الدؤلي الذي يُنسب إليه الرمزُ إلى الضمة بنقطة (من مداد يخالف مدادَ الكتابة) وتوضَعُ بينَ يدي الحرف، وإلى الفتحة بنقطة فوق الحرف، وإلى الكسرة بنقطة تحت الحرف. ومن المعروف أن هذه النقَاطَ لم يبتدعْها أبو الأسود ابتداعا، وإنما أخذها عن السريانِ وبالتحديد عن النساطرة .

وبمرور الوقتِ وصعوبةِ حصول الكاتب على مدادين مختلفين أثناء الكتابة يَكْتُبُ بأحدهما الكلماتِ، ونقاطَ الإعجام، وبالآخر نقاطَ الشكل، ولاضطراره أحيانا إلى كتابة الاثنين بمداد واحد، مما كان يُوقع في لبس، فَكَّر الخليلُ بن أحمد المتوفى عام ١٧٥هجرية في الاستعاضة عن نَقْط الشكل برموزٍ أخرى هي تلك الرموز التي نستعملها الآن، فرمَزَ للفتحة بجرّةٍ عُلْوية وللكسرة بجرَّةٍ سفليةً وللضمة برأس واو وللسكون بدائرة أو برأس جيم بلا نقط، وللشَّدة برأس شين بغير نقط وللهمزة برأس عين، ولألف الوصل برأس صاد.

وبهذا صار من الممكن أن يجمع الكاتب بين شكلِ الكتاب ونَقْطِهِ بلونٍ واحد ومداد واحد دون لبس.

من واضع علم النحو والصرف؟ وكيف تم ذلك؟

لم يُؤْثر عن العرب أيُّ نوع من الدراسات اللغوية قبل الإسلام ولهذا فهم متأخرون زمنيا عن كثير من الأمم التي عُرفت لها دراساتُ لغويةٌ مبكرة مثلُ الهنودِ واليونانيين والمصريين القدماء والصينيين والسريانيين.

ولم يكن البحثُ اللغويُّ عند العرب من الدراسات المبكّرةِ التي خَفُوا لها سراعا لأنهم وجهوا اهتمامَهم أولا إلى العلوم الشرعية والإسلامية. وحين فرغوا منها أو كادوا، اتجهوا إلى العلوم الأخرى. وما وُجد من تأملات أو ملاحظاتٍ نحويةٍ أو لغويةٍ في القرن الأول الهجري لم يُقصد لذاته وإنما لأنه خادم للنص القرآني. ومن ذلك محاولةُ أبي الأسود الدؤلي لضبط المصحف بالشكل (توفي أبو الأسود عام تسعة وستين للهجرة) وذلك حين استحضر كاتبا وأمره أن يتناول المصحف وأن يأخذ صبْغًا يخالف لون المداد فيضعَ نقطة فوق الحرف إذا رآه يفتح شفتيه وهذا هو رمز (الفتحة) ويضع نقطة تحت الحرف إذا رآه قد خفض شفتيه وهذا رمز (الكسرة) ويضع نقطة بين يدي الحرف إذا رآه يضمُّ شفتيه وهذا رمز (الضمة) أما إذا أتبع الحرف الأخيرَ غُنَّةٌ فيضعُ نقطتين فوقَ بعضهما، وأما الحرف الساكن فقد تركه.

ومن المعقول أن يكون جمعُ اللغة قد سبق الدرسَ النحويَّ، لأنه لا يمكن القيامُ بالأخير بدون مادةٍ توضع تحت تصرف النحوي وبعبارة أخرى لأن تأليفُ النحو أو تقعيدَ القواعد ما هو إلا فحصُ لمادة لغوية تَمَّ جمعُها بالفعل ومحاولةٌ لتصنيفها واستنباطِ الأسسِ والنظرياتِ التي تحكمها. وأفضلُ ما يعبّرُ عن ذلك ما جاء في المزهر للسيوطي، وهو قوله "اعلم أن اللغويَّ شأنُه أن ينقل ما نطقتْ به العربُ ولا يتعداه، وأما النحويُّ فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه. ومثالهما المحدِّثُ والفقيه فشأن المحدِّثِ نقلُ الحديث بِرُمَّته، ثم إن الفقيه يتلقاه ويتصرفُ فيه ويبسطُ فيه علله ويقيسُ عليه الأشباهَ والأمثال".

أمـا كـيف نشـأ النحوُ العربي؟ ومن أول من ألف فيه؟ وما الصورة الأولى التي ظهـر فـيها هـذا الـنحو قبل أن يَنْضَجَ على يدِ الخليل وسيبويه فهي أسئلة ما نظنُّ أن في أيـدي أحدٍ الإجابةَ عنها أو الردُّ عليها بحسم. وأغلبُ الظَّنِّ أنها ستظلُّ معلقةً حتى نعثرَ على مادةٍ جديدة تكشفُ عن بداية النحو العربي، وتُلقي الضوءَ على أوّلياته وتضعُ حدا للإرهاصات والتنبؤات التي تحيط بنشأته. ومن المادةِ المبكرةِ المفقودة في النحو العربي:

أولا: الصحيفةُ المنسوبة إلى عليِّ بنِ أبي طالب أو لأبي الأسود الدؤلي.

ثانيا: الزياداتُ التي زادها ميمونُ الأقرن، على أستاذه أبي الأسود.

ثالـثا: كتابُ نصر بن عاصم(توفي عامَ تسعة وثمانين أو تسعين هجرية) وهو الكتاب الذي ألفه في النحو.

رابعـا: كـتابا "الإكمـال" و "الجـامع" لعيسـى بنِ عمرَ الثقفي المتوفى عام مائة وتسعة وأربعين.

ومع هذا فنحن نقدم للسائل أهم الأقوال التي تحدثت عن نشأة النحو العربي.

فمـن ذلـك رأيُ ابـنِ فـارس أن الـنحوَ العـربيَّ قديـمٌ بقـدم هـذه العربية ومُنَزَّلٌ كتـنزيلها، وأنـه كـان معروفا ومدروسا من قديم ثم تُنوسيت قواعدُه وأتت عليها الأيام حتى جاء النحاة فأحيَوْا ما اندثر منه.

ومـن ذلك ما يقوله ابن النديم في الفهرست من أنه رأى بنفسه أربعَة أوراق قديمةٍ كُتب عليها: هذه فيها كلامٌ في الفاعل والمفعول من أبي الأسود الدؤلي.

ومـن ذلـك مـا يقولـه ابـنُ النديم كذلك من أن عليَّ بنَ أبي طالب هو أول من وضـع النحو. وبعضهم يوفق بين الرأيين مثل ابن الأنباري فيقول: إن عليَّ بنَ أبي طالبٍ رفـع إلـى أبي الأسود الدؤلي نصًّا جاء فيه: "الكلام كلُّه اسمٌ وفعل وحرف. فالاسم ما

أنبأ عن المسمى. والفعل ما أنبئ به. والحرف ما أفاد معنى. واعلم أن الأسماء ثلاثة: ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر". ثم يمضي ابنُ الأنباريِّ قائلا: "ثم وَضَعَ أبو الأسود بَابَي العطفِ والنعتِ ثم بابي التعجبِ والاستفهام إلى أن وصل إلى بابِ إنّ وأخواتِها ما خلا "لكن" فلما عرضها على عليٍّ أمره بضمِّ "لكن" إليها. وكلما وضع بابا من أبواب النحو عرضه عليه".

ويختلف من قالوا إن أبا الأسودِ هو واضعُ النحو في الباعث له على ذلك. فيقول بعضُهم إن عليَّ بن أبي طالب هو الذي أوعز إليه بوضع النحو، ومن قائل إنه عمر بن الخطاب ومن قائل إنه زيادُ بنُ أبيه ومن قائل إن أبا الأسود اتجه بنفسه إلى وضع النحو حينما سمع قارئًا يقرأ: لا يأكله إلا الخاطئين (بدلا من: لا يأكله إلا الخاطئون) أو قارئًا يقرأ: "إن الله برىء من المشركين ورسولهِ" (بدلا من : ورسولُه) وقيل: إن السبب أن ابنته قالت له: ما أحسنُ السماءِ تريد التعجب ولكن فهم الاستفهام فقال لها: نجومُها. فقالت له : يا أبت إنما أخبرُك ولم أسألْك فقال لها: إذن فقولي: ما أحسنَ السماءَ.

ويتبين من هذا أن السببَ الأساسيَّ في وضع النحو – مهما كان واضعه - هو ما فشا من لحنٍ عقبَ الفتوحات الإسلامية وامتدادِ آفاقِ اللغة العربية إلى مجالات لم تُتَحْ لها من قبل وفسادِ الألسنة حتى بالنسبة للعرب أنفسهم نتيجةَ اختلاطهم بالأجانب. ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما رُوي عن الحجاج بن يوسفَ الثقفي أنه سأل يَحْيى بنَ يعمر: أتراني أَلْحَنُ على المِنبر فقال يحيى خوفا من سطوة الحجاج: الأميرُ أفصح إلا أنه لم يكن يروي الشعر. فكرر الحجاج سؤاله فقال يحيى: نعم في آي القرآن. فقال الحجاج: فذاك أشنع. وما هو؟ قال يحيى: تَقُولُ: "قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم... أحبُّ إليكم من الله ورسوله.." وصحتها أحبٌّ. فقال له الحجاج: والله لن تسمعني أَلْحَنُ بعد ذلك ونفاه إلى خراسان. ومن هذا ما روي عن عمرَ بن عبد العزيز أنه لَحَن لَحْنَةً فَنُبِّه إليها فحبس نفسه في منزله ومعه من يعلِّمُهُ العربية ولم يخرجْ

على الملأ إلا وهو أفصح الناس. ويُروى كذلك أن عبدَ الملكِ بنِ مروان حين سُئل: لماذا عَجِل الشَّيْبُ إلى رأسك يا أميرَ المؤمنين، قال: شيبتْني مواقفُ الخطابة وتوقعُ اللحن.

وتمضي الأيام والسنوات بَعد علي وأبي الأسود حتى يأتيَ الخليلُ بنُ أحمد (من عام ١٠٠ إلى عام مائة وخمسة وسبعين هجرية) وتلميذُه سيبويه، الذي يُعدُّ إمام النحاة بلا منازع. وقد جمع في مؤلَّفه المسمى "الكتاب" مباحثَ النحو والصرف بصورة كاملةٍ أو شبهِ كاملة حتى أطلقوا عليه " قرآنَ النحو" وحتى قال أبو عثمانَ المازنيُّ (المتوفى عام تسعةٍ وأربعين أو ستةٍ وثلاثين ومائتين): من أراد أن يعملَ كتابا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي.

أما أولُ من ألف في الصرف تأليفا مستقلا فيقال هو مُعاذُ بنُ مسلم الهراءُ الكوفي المتوفى عامَ سبعة وثمانين ومائة ويقال هو أبو عثمانَ المازني في منتصف القرن الثالث الهجري ويقال هو أبو الحسن الأخفش أستاذ المازني والله أعلم.

ما اسم أول معجم ظهر في اللغة العربية؟ ومن مؤلفه؟ وكيف رتبه؟

أولُ معجمٍ شاملٍ ظهر في اللغة العربية هو معجم "العين" للخليل بن أحمد المتوفَّى عام خمسة وسبعين ومائة هجرية. وسماه الخليلُ "العينَ" لأنه بدأه بحرف العين. ذلك أن الخليل بنَ أحمد لم يرض أن يَتَّبعَ الترتيبَ الهجائيَّ العاديَّ- رغم سهولته- واتّبع ما يُعرف بالترتيب الصوتي الذي يبدأُ بأعمقِ الأصوات مخرجًا ثم يتدرجُ حتى يصلَ إلى أصوات الشفتين. وقد وجد الخليلُ بحسّه الدقيق أن الهمزةَ رغم أنها أعمقُ الأصوات إلا أنها لا تستقرُّ على حالٍ في لغة العرب فمنهم من يسهِّلُها ومنهم من يَحْذفُها ومنهم من يَقْلِبُها حرفا آخر ولهذا كره أن يبدأ بها المعجم. ووجد أن الهاء أختُ الهمزة في العمق ولكنه وجدها صوتا خفيا لا يظهر إلا بمشقة ويكاد يختفي عند الوقفِ ولذا تركه هو أيضا وبدأ بصوت العين الذي يلي الهاءَ والهمزةَ في المخرج لأن العينَ أوضحُ وأنصعُ في السمع.

وقد واجهتِ الخليلَ حين فكر في صنع معجمه مشكلتان هما مشكلةُ جمع المادة ومشكلةُ ترتيبها. وقد هَدَتْه عبقريته إلى نظام فريد يجمع به مادته وهو نظامُ الإحصاء الرياضي. وخلاصة ما فعله أنه وجد الكلماتِ في اللغة العربية إما على حرفين أو ثلاثةٍ أو أربعةٍ أو خمسة ووجد عددَ أحرف الهجاء ثمانيةً وعشرين فقام بعملية "توافيق" أو بناءِ كلماتٍ نظريةٍ عن طريق أخذ كل نوع من الأنواع السابقة وهي الثنائيُّ والثلاثيّ والرباعي والخماسي وتجربة جميع حروفِ الهجاء معه. فالثنائيُّ مثلا يمكن حصرُ كلماته عن طريق تثبيتِ الحرف الأول على الهمزة وتكوين كلمات من الهمزة وحرف ثان مستوعب جميعَ الأحرف الهجائية . وينتقل إلى الباء فيثبِّتُها كأول ويجرِّب معها باقي الأحرفِ الهجائية كثانٍ. ويفعلُ هذا مع التاء والثاء وهكذا حتى يستوعب جميعَ أحرف الهجاء. ويمكن تطبيقُ نفس الفكرة – ولكن بصورةٍ أكثرَ تعقيدًا – مع كل من الثلاثي

والرباعي والخماسي. وهذه الفكرة تعرف الآن باسم "التوافيق". وضم الخليل إلى نظرية التوافيق نظرية أخرى هي "التباديل" حين أخذ يقلّب كلَّ كلمةٍ ناتجة عن التوافيق على أوجهها الممكنة بعد تبديل مواقعها في الكلمة. وتطبيق نظرية التباديل ينتج عن كل ثنائي صورتين وعن كل ثلاثي ست صور وعن كل رباعيٍ أربعًا وعشرين صورة وعن كل خماسيٍ مائة وعشرين صورة. ولتوضيح ذلك أضرب المثالين الآتيين من الثنائي والثلاثي. فكلمة مثل شدّ يمكن أن تتحول إلى دشّ عن طريق التباديل. وكلمة مثل "عَقَلَ" يمكن بالتقليبات أن يتولد عنها: عَلِق – قَعل – قَلَع – لَعِق وغيرها. ولا يلزم أن تكون كلُّ التقلُّباتِ النظريةِ للكلمة مستعملةً في اللغة فأحيانا تستعمل اللغةُ بعضَ التقلبات وتهمل بعضها الآخر. ومن ذلك خَنَعَ التي لم يرد لها في معجم العين إلا تقلُّبٌ واحد هو نخع. بل إن بعض الكلمات لم يرد له أيُّ تقلبات مثل كلمة خَدَعَ التي لم يرد لها في معجم العين إلا صورةٌ واحدة. وبعض الكلمات مهمل غير مستعمل مثل تجمع الثلاثي ع ق ج فلم يرد منه كلمة واحدة في معجم العين.

وهكذا استطاع الخليلُ عن طريق تطبيقه لنظريتي التوافيق والتباديل حصرَ كلمات اللغة حصرًا نظريًا. ولكنَّ اللغة العربية لا تستخدم كلَّ الإمكانيات النظرية لتجمعات الحروف، ولذلك كان لابد للخليل بعد الإحصاء النظري أن يميز بين المستعمل والمهمل من هذه الصور النظرية وقد فعل ذلك، مستفيدًا من شيئين:

أولا: من ثقافته اللغوية الخصبة ومعرفته بلغة العرب وبمروياتها من الشعر والأدب.

وثانيا: من خبرته الصَّوتيةِ الباهرة ومعرفتِه بالتجمعات الصوتية المسموح بها وغير المسموح بها في اللغة العربية.

وبذا حكَّم القوانينَ الصوتية إلى جانبِ تحكيمه للمادة اللغوية المسجلة.

وقد استطاع الخليل بطريقة الإحصاء الرياضي أن يجمع مادة معجمه في زمن قياسي، ولو أنه اتَّبع طريقةَ الاستقراءِ والسماع من الأعراب والذهابِ إلى البادية من أجل المشافهة كما كان يفعل غيرُه من اللغويين لأفرغ عمرَه دون أن يجمع عُشرَ معشارِ ما وضعه في معجمه، ولما قُدِّر لهذا المعجم أن يظهر في هذا الوقت المبكِّر من تاريخ اللغة

العربية وفي وقت قصير لا يتجاوز بضع سنوات كما يحكي تلميذُه اللَّيثُ بنُ المظفَّر الذي يقول إن الخليلَ بن أحمد بعد أن ورد عليه خُراسانَ فَاتَحَهُ في فكرةِ المعجم التي كان من الصعب على العقلِ العادي إدراكُها إلى أن يقولَ الليث" فجعلْتُ أستفهمه ويصفُ لي، ولا أقفُ على ما يصف فاختلفت إليه في هذا المعنى أياما ثم اعتلَّ وحججت. فرجعت من الحجِّ فإذا هو قد ألَّف الحروفَ كلها على ما في صدر هذا الكتاب".

وبعد أن تغلبَ الخليلُ على مشكلة جمع المادة واجهتْهُ مشكلةُ ترتيبها –حيث لم يكن أمامَه نَموذجٌ يحتذيهِ في ذلك. وقد هداه تفكيرُه إلى اتّباع الخطوات الآتية:

أولا: اتخاذُ الترتيب الصوتي أساسا لمعجمه. وهذا الترتيب الصوتي يبدأ بالعين ثم الحاء ثم الهاء ثم الخاء ثم الغين.. حتى يصل إلى حروفِ الشفتين وهي الفاءُ والباءُ والميم وحروفِ العلة وهي الألفُ والواوُ والياء.

ثانيا: تقسيمُ كلِّ حرفٍ من أحرف المعجم إلى أقسام ستة حَسَبَ حَجْم الكلمة ونوع حروفها وهذه الأقسام هي :

الثنائي	الثلاثي الصحيح	الثلاثي المعتل	اللفيف	الرباعي	الخماسي
مثل مدَ	مثل سمع	مثل قال	مثل وشى	مثل دحرج	مثل زبرجد

ثالثا: تقليبُ كلِّ كلمة في المعجم على جميع أوجهها الممكنة.

كيف نميز بين أصوات أصدقائنا في التلفون؟

يتضمن الصوتُ الإنسانيُّ عناصرَ ثلاثة هي:

أولا: وجودُ جسمٍ في حالة تذبذب أو حركةٍ يسمى مصدرَ الصوت.

ثانيا: وجودُ وسطٍ تنتقل فيه الذبذبة الصادرة عن الجسم المتذبذب.

ثالثا: وجودُ جسمٍ يستقبل هذه الذبذبات.

ومصدرُ الصوت عند الإنسان هو أعضاء النطق، ولا سيما الوترين الصوتيين، هذه الأعضاء التي تتحرك في اتجاهات مختلفة وبأشكال متعددة وتُنتج أصواتا تسبب تنوعات في ضغط الهواء.

ومن المعروفِ أن درجةَ الصوت ترتبط بعدد الذبذبات في الثانية. فكلما زاد عدد الذبذبات كان الصوت دقيقا أو حادًا وكلما قل عددُ الذبذبات كان الصوت سميكا أو خشنا. ويطلق العلماء على عدد الذبذبات في الثانية اسمَ "التردد". وكل جسم متذبذبٍ له تردده الخاصّ الذي تتحكم فيه مجموعةٌ من العوامل المتعلقة بالجسم المتذبذب مثلُ الوزن والطول وبالنسبة للأوتار نسبة الشدّ وبالنسبة للتجاويف الكتلةُ والشكلُ والامتداد. فالجسم الثقيل يتذبذب بصورة أبطأ من الجسم الخفيف والشوكةُ الرنانة ذاتُ الذراعين الطويلين تتذبذب أبطأ من الشوكة الرنانة ذاتِ الذراعين القصيرين. والوترُ الطويل يتذبذب أبطأ من الوتر القصير، والوتر الغليظ يتردد بنسبة أقلَّ من نظيره الرفيع. ويمكن زيادة أو نقص التردد بالنسبة للوتر عن طريق تغيير شده.

أما تمييزُ الأصواتِ المألوفة دون رؤية أصحابها فيرجعُ إلى أن لكل صوت إنساني بَصَمَاتِهِ المميزة التي قلما تلتبس ببصمات صوت آخر. وفي علم اللغة الحديث يوجد مصطلح اسمه "التعرف اللغوي". والهدف منه في معظمه هدفٌ عملي وهو القدرة على أن تَدُلَّ من أصواتِ لغةٍ منطوقة على نوع اللغة التي تواجهها. كما أن هناك أسلوبًا فنيا للعمل يحمل شعار "من أين أنت". وهو أسلوبٌ يمكن عن طريقه تحديدُ المنطقةِ

اللغويةِ الصغيرة التي ينتمي إليها المتكلم والتي قد تصل إلى نصفِ قطرٍ قدرُه عشرةُ أميالٍ من مسقط رأسه، وذلك عن طريق خصائصه الكلامية المتميزة. وقد كتب ماريو باي العالمُ اللغويُّ الأمريكيُّ المشهور مقالا بعنوان" ماذا قال" عَالج فيه موضوعَ إمكانيةِ التعرفِ على المجرم وتحديد منطقتِهِ عن طريق دراسة ملامحه الكلامية.

وكما يؤدي إلى التعرف اللغويِّ الخصائصُ النطقيةُ، المكتسَبَةُ من المنطقةِ اللغويةِ التي ينتمي إليها المتكلم فهناك مجموعة أخرى من العوامل منها:

أولا: الخصائصُ النطقيةُ المعيَّنَةُ الناتجةُ عن خاصة عضوية في المتكلم كأن يكونَ هناك تصلبُ أو ارتفاعٌ في مؤخِّرة اللسان فينتجُ الصوت مغرغرا أي مَشُوبًا بصوت الغين كما قد يكون هناك ابتعادُ خِلْقِيٌّ في الوترين الصوتيين مما يؤدي إلى خفوتٍ ملازم للصوت. كما قد يكون هناك عاهةٌ عضوية أو ضغطٌ للسان أو انكماشُه إلى الداخل بحيث يصبح عائقًا أمام خروج الصوت كلِّه من الفم فيتسربُ بعضُه من الأنف ويوصف المتكلم بالخَنَف كما قد يتميز بعض الناس بانسياب أصواتهم مندفعةً من الحنجرة نتيجةَ تصلبِ أعصاب الرقبةِ والحنجرةِ فيخرجُ الصوت فاقدًا لونَه وتكييفه الذي تعطيه عادةً الأوتارُ الصوتية في داخل الحنجرة. كما قد يَصْدُرُ بعضُ الأصوات مرتعشًا نتيجة التنفس بطريقةٍ خاطئة أو إجهادِ الصوت بحمله على طبقةٍ لا تلائمه أو نتيجة الشيخوخةِ أو الضعفِ العصبي أو الخوفِ..

ثانيا: كذلك يؤدي إلى تمييز الأصوات اختلافُ معدنِ الصوت. وقد قسم العلماء الصوت إلى معادن خمسةٍ رئيسية تبدأ بالقرار وتنتهي بالسوبرانو، والأصواتُ التي من معدنٍ واحد تشترك في الصفة العامة وتختلف في بعض الصفات الفرعية.

أما أفخم الأصوات وأخشنها فهو المسمى بالقرار وتُحْدِثُهُ أغلظ الأوتار الصوتية وقدرته كاملةٌ على الدرجات السفلى في السلم الموسيقي.

وأما أرقها هو السوبرانو وهو سريعٌ حاد قادر على الدرجات العليا من السلم وبينهما درجاتٌ تجمع أصواتَ الحديث العادي بصورِهِ المختلفة. وهناك تمرينات يؤديها

الممثلون والخطباءُ خاصةً ليكونوا قادرين على استخدام معادن الأصوات كلها ويصبح صوتهم ليِّنا طيّعا مستجيبا لرغبات المتحدث.

ثالثا:ويؤدي إلى تمييز الأصوات أيضا نوع الصوت وهو فرق يظهر بين نغمتين موسيقيتين ربما اتفقتا في درجةِ الصوت وفي العلو ولكنهما أُنتجتا بآلتين مختلفتين مثل البيانو والكمان.

وتفسير ذلك أن كلتا الآلتين تُصْدِرُ مجموعةً من النَغَمَاتِ واحدةٌ منها وهي الأساسية هي المسيطرة والأُخْرَياتُ وهي المسماة بالتوافقيات تكون في وضع انسجام معها. وحيث إن الجسمَ الرنّان يُقَوِّي بعضًا من هذه التوافقيات أكثرَ من الأخريات فإن النغمة تتلقى خصائصَ تسمحُ للسامع أن يميز بين صوتٍ وآخر أو آلةٍ وأخرى. وبهذا يظهر أن نوع الصوت هو الأثرُ السمعيُّ الناتج عن عددِ الموجاتِ البسيطة التي تُكَوِّنُ الموجةَ المركبة التي تحمل الصوت للأذن وترددِ كل منها واتساعها.

وأخيرًا نشير إلى اختلاف الفراغات الرنانة المضخِّمةِ للصوت وهي التي يمر خلالَها الهواءُ بَعْد الحنجرة. فَفَراغُ الحلق وفراغ الفم والفراغُ الأنفي كلُّها تستغلَ في تضخيم الصوت ومنحهِ صفتَه الخاصةَ به التي تميزه عن غيره من الأصوات فهي بمثابة تلك الصناديق المجوَّفة التي تُشَدُّ عليها أوتارُ الكمان أو العودِ لأن أصواتَ الحنجرة وَحْدَهَا ضعيفةٌ وهي تَقْوَى بمرورها في تلك الفراغات الرنانة. واختلافُ حجم هذه الفراغات عند الناس يجعل أصواتَهُمْ مختلفةً متميزة. لأن حَجْمَ الفراغ وشَكْلَه يُكسب الصوت لونا خاصا يساعد على تمييز الأصوات.

بَصْمةُ الصوت وبصمة الإصبع

إنّ كلام الشّخْص ينقل معلوماتٍ وراء الرسالةِ التي يحملها. فحينما نسمعُ شخصا يتكلم –حتى لو لم نكنْ نراه- يمكننا أن نتعرف في الغالب على عددٍ من صفاته حتى لو كان غريبًا عنّا، مثلُ التعرُّفِ على سِنّهِ ومِزَاجِهِ ومركزه الاجتماعيّ أو الثقافي، وأكثرُ من هذا التعرُّفُ على جِنْسِهِ أذكر هو أم أنثى.

ويأتي التعرفُ على الجنس نتيجةَ وجودِ مكوّناتٍ صوتيةٍ معينة تُميِّز صوتَ الرجل عن صوت المرأة يمكن أن تسمى "البصمة الصوتية للجنس" وهذه المكوناتُ الصوتيةُ هي التي تمكّنُ السامعَ من تحديدِ جنسِ المتكلِّمِ دون أن يراه، حتى لو حاول المتكلمُ أن يتنكّر أو يغطيَ فمه بشيء.

وأظهر فرقٍ في صوت الذكر والأنثى البالغَيْن هو "دَرَجةُ الصوت" أو التردُّدُ الأساسيُّ للتصويت الذي يعتمد على طولِ الوَتَرَيْن الصوتيين ووزنِهما ودرجةِ تَوَتُّرِهما. وقد خلق اللهُ المرأةَ بوترين صوتيين أقصرَ وأقلَّ ضخامةً وأكثر قابليةً للشدِّ مِنْ وَتَرَيِ الرَّجُل مما يؤدي إلى زيادة سرعتهما وعدد ذبذباتهما في الثانية وهذا بِدَوْرِهِ يؤدّي إلى حدة الصوت. كما خلق الرجلَ بوترين أطولَ وأضخمَ مما يؤدي إلى قلة ذبذباتهما في الثانية وهذا بِدَوْرِهِ يؤدي إلى عُمْق الصوت.

وهناك عاملٌ ثانٍ يميِّزُ بين الجنسين وهو نموذجُ الرَّنينِ الحادثِ في التجويف الصوتي فوق الحَنْجَرِيِّ فالذكورُ البالغون- في العادة- يملكونَ تجاويفَ صوتيةً فوقَ حنجريةٍ أكْبَرَ مما تملكه الإناث ولذا فهم يُنتجون حُزَمًا صوتيةً أخفض.

كما أن هناك عاملا ثالثا وهو العادات الكلامية لكل جنس، فالبالغون من الذكور والإناث ربّما عَدَّلوا من أوضاع أعضائِهم النطقيةِ لخفضِ أو رَفْعِ ترددات حُزَمِهم الصوتية لِيُنتجوا أصواتًا تَتَّجه نحو النموذجِ المرسومِ لكل جنس. وهذا واضح حينما تحاولُ بعضُ النساء ترقيقَ الأصواتِ المفخَّمَةِ ونطقَها بطريقةٍ تنحو بها نَحْوَ نظيراتِها المُرَقَّقَةِ كما يَحْدُثُ في نطق القافِ كافا في كلماتٍ مثل "قراءة" والطاءِ تاءً في كلمات مثل

"طائـر" والضـادِ دالاً في كـلمات مثل "ضرب" والصادِ سينا في كلمات مِثل "صُراخ"، ولـيس هـذا فحسـب بـل إنـه يتم تعديلُ تجاويفِ الجهازِ النطقي في الحَجْمِ أو الشَّكل عن طـريق حَـرَكاتِ الرأسِ والحَلْقِ والفَكِّ والشفاهِ واللسانِ، من أجل الوصُولِ إلى الخصائص الصوتيةِ الملائمةِ للنموذج الصوتيِّ المتعارَفِ عليه لكلٍّ من الذكور والإناث.

كذلك فإن المرأةَ تملك مجالا متنوعا للتنغيم، فهي تملك درجاتٍ من التنغيم أعلى وأخفـضَ مما يملك الرجل كما أنها تملك نماذجَ تنغيمةً تعطي انطباعًا بالتساؤلِ والدهشةِ وطلبِ المساعدة وهي من النماذج التي تحبُّ المرأةُ استعمالَها كثيرًا.

ولكنْ عند أيِّ سنٍّ يمكن تمييز أصوات الجنسين؟

أثبتـت الدراسـاتُ الميدانـيةُ والتجريبـيةُ صـعوبةَ التمييـز بـينَ أصواتِ الجنسين في مرحلةِ الطفولةِ المبكّرة، حتّى إنّ الأُمَّ لا تستطيع أن تميزَ بين صراخ البنتِ وصراخ الولدِ إلى سنِّ السادسـة، ويرجع سبب ذلك إلى ما أثبتته الدراسةُ التشريحيةُ من تساوي حنجرةِ الأولادِ والبـنات في هـذه السّـنّ مِـنْ حيثُ الحجمُ والطولُ والوزنُ وكذلك تساوي طولِ الفَكَّين. وتُعتبر السنُّ الحاسمة لتمييز صوتِ الذَّكَرِ عن الأنثى هي سنُّ الثانيةَ عشْرةَ للبنات وأكبرُ مـن هذا قليلا للأولاد.. إذْ عند هذه السنِّ تحدثُ تغييراتٌ جَسَديةٌ كثيرةٌ في جهاز النطق عـند الذكور بما فيها نموُّ التجويفاتِ النطقية، والنضجُ السريعُ للأوتار الصوتية عن طريق استطالتها، وضخامتها. وتؤدي هذه التغيُّراتُ إلى عُمْقِ صوتِ الذَّكر وتَمَيُّزِه الواضح عن صوتِ الأنثى.

ومـع ذلـك قـام العـلماءُ بدراسـاتٍ مكـثّفة للبحـث عن إمكانيةِ تَمييزِ أصواتِ الجنسين في سِنٍّ ما قبل البلوغ انتهتْ إلى ما يأتي:

أولا: أنـه مـنذُ سِـنٍّ مـبكرة، وقبل أن تتجهَ أعضاءُ النُّطْقِ عند كلِّ فريق إلى التميُّز يـتعمَّد أفـرادُ كـلِّ جـنسٍ في حـدود إمكاناتـه التشريحية تعديلَ ميكانيكيةِ النطقِ عندهم لتغيير نموذجِ الحُزَمِ الصوتيةِ أو اتساعات ما بين الشفتين حتى يتطابق نُطْقُهُ مع النموذج الملائم لِجِنْسِه.

ثانيا: أنه أمكن تمييزُ جنسِ المتكلِّمِ الطفل من خلال النماذج الإيقاعية والتنغيم فقط وبعد إخفاء معالم الكلمات المفردة والمقاطع.

ثالثا: أنه في تجربةٍ قامتْ على تسجيل عَيِّناتٍ لكلام عددٍ من الأطفال بين سنِّ الخامسة والسادسة متساوين في الطولِ والوزنِ أمْكَنَ التعرفُ على جنس المتكلم بنسبةِ صحةٍ بلغت ٧٤٪ . أمّا قبل سنِّ الخامسة فلم يمكن التعرُّفُ على جنس الطفل بصورة دقيقةٍ إذ إنَّ كثيرًا من الأولاد في العيّنة صُنِّفوا على أنهم بناتٌ حتى مع نطقهم جملا كاملة.

وهناك نوعٌ آخر من بصمةِ الصوْت يميز صوت الشخص عن الآخر، وتشبه مُكَوِّناتُه بصمةَ الإصْبَع في عدم تطابقها عند اثنين كما تشبُهها في إمكانيّةِ التعرُّفِ على صاحبها عن طريق تحليلها وهو ما يمكن أن نسميه" البصمة الصوتية للفرد".

وتقوم فكرة "البصمة الصوتية للفرد" على ما هو معروف من اختلاف الأفراد في حجم وشكل التجاويف الأنفية والفموية، وفي تركيب الحنجرة، وفي شكل الأوتار الصوتية، وغيرها من أعضاء النطق التي تشمل الأسنان واللسان والشفتين، وحتى البلعوم والجهاز التنفسي بعامة، وأن الاختلاف في شكل هذه الأعضاء يعطي الترددات الصوتية خاصية ملازمة للتركيب الفيزيائي لمكونات هذه الأعضاء، هذا بالإضافة إلى ما ثبت أن عادات الشخص الكلامية تستقر عند سنّ البلوغ.

وقد كان تحديد بصمة الشخص الصوتية يقوم في الماضي على حساسية أذن الخبير، وعلى تمرسه على التمييز بين الأصوات المتشابهة، ولكنه الآن أصبح يعتمد على تحويل الصوت إلى خطوط بيانية، وإشارات مكتوبة على الورق، تعكس ملامِحَهُ التَّمْيِيزِيَّةَ وتعرضُ بتجمُّعِها في شكل معين فرديَّتَهُ المطلقة، ويتم ذلك عن طريق آلة تعرف باسم "المِطْياف" أو"الرَّاسِمِ الطَّيْفِيِّ"، ولما كان الرَّسْمُ الطيفيُّ لشخصٍ ما يختلف عن كلِّ الرسومِ الطيفية التي يُنتجها المتكلمون الآخرون فإنه من الممكنِ عن طريق مقارنَةِ الرَّسْمِ الطيفي لشخصٍ ما برسمٍ آخرَ لا يُعرف صاحبُهُ الحُكْمُ بما إذا كان الصوتان صادرَيْن عن نفسِ الشخص أو عن شخصين مختلفين.

وتدرب كثير من الدول الآن العديد من الخبراء على التعرف على الأصوات، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية التي تقوم بتدريب الخبراء تحت إشراف "الجمعية الدولية للتعرف على الصوت". ويعطي الخبير قراره من خلال مدرّج تقييمي من أربع درجات تبدأ بأن الصوت المفحوص هو صوت شخص معين بكل تأكيد، ثم صوت هذا الشخص بدرجة كبيرة من التأكد، ثم بتأكد إلى حد ما، ثم بنفي أن يكون هذا الصوت هو صوته. وحين يختلط الأمر على الخبير فمن حقه الامتناع عن إبداء رأيه.

وإذا كان العلماء يشبّهون بصمة الصوت ببصمة الإصبع، فإن الفارق الكبير بين البصمتين يجعل هذا التشبيه غير دقيق، لأن بصمة الصوت تعتمد على ما يفعله المتكلم أكثر بكثير مما هو عليه، كما يمكن أن تتدخل فيها عوامل خارجية مثل تقليد أصوات الآخرين[1]، أو كون التسجيل الصوتي مختلطا بأصوات أخرى غريبة، أو كونه قد خضع لتدخلات فنية عن طريق تركيب بعض الأصوات بطريقة اصطناعية، ومزجها بالصوت الحقيقي، أو كون صاحبه قد استخدم وسائل تمويهية، لتضليل الخبير كوضع مواد غريبة في الفم، أو سدّ فتحة الأنف من الخارج.

أما بصمات الأصابع فهي ثابتة غير قابلة للتدخّل منذ كان الشخص جنينا في الشهر السادس من عمره. وحتى لو أجرى الشخص عملية جراحية بقصد تغيير بصمة إصبعه، فهي عملية مكلفة من ناحية، وخاسرة من ناحية أخرى، لأن طبقات الجلد العليا تتجدد من خلال الطبقة الثانية للجلد المسماة "المتجددة"، فهي تعيد البصمات المنتزعة إلى حالتها السابقة دون أدنى تعديل يطرأ عليها حتى نهاية العمر.

---

(١) من أبرز الأمثلة على دقة التقليد أن التلفزيون البريطاني عرض رسما طيفيا لمقلد صوتي حاكى صوت هارولد ولسن رئيس الوزراء. وقد بدت المشابهة كبيرة جدًا بين الصوت الأصلي والصوت المقلّد بدرجة أكبر من المشابهة بين صوت المقلد وصوته الحقيقي من ناحية، وبين صوت ولسن في المناسبة التي سجلت، وصوته في مناسبات أخرى.

وإذا كان خبير البصمات الإصبعية في الماضي يعتمد على منظار مكبر وخبرة سابقة لعقد المقارنة مما كان يجعل معدلات الإنجاز لا تتجاوز عشرين بصمة في الساعة، فإن الأجهزة الحديثة المستخدمة الآن تستطيع مضاهاة عشرين ألف بصمة في الساعة الواحدة.

وإذا كان العلماء الآن ينفون نفيًا باتًا إمكانية تطابق شخصين في بصمات أصابعهما فقد سبق للقرآن أن قرر هذه الحقيقة حين قال " أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه" وهكذا يبقى بنان كل إنسان علامة مميزة له، وتبقى إعادة كل "بنان" إلى أصله بعد الموت دليل القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود.

تطبيقات عملية
لاستخدام البصمة الصوتية

بعد أن أمكن وضع بصمات للأصوات من خلال القيام بتحليلات فيزيائية للكلام ودراسة الموجات الصوتية اللغوية من خلال جهاز المطياف، أو الراسم الطيفي Spectrograph الذي يصدر صورا مرئية تمثل المعالم السمعية للصوت الكلامي..

وبعد أن نشر لورنس كريستا عام ١٩٦٢ بحثه الرائد في موضوع "التعرف على البصمة الصوتية"، الذي طرح فيه إمكانية تصنيف الناس عن طريق تحليل النماذج المرئية التي يظهرها الراسم الطيفي لعشر كلمات شائعة..

وبعد أن اقتنع كثير من العلماء بفكرة "التفرد الصوتي" لكل شخص نتيجة الاختلاف في شكل التجاويف الصوتية (تجويفا الحلق والفم- تجويف الحنجرة – تجاويف الأنف - تجويف الشفتين) وأعضاء النطق، وطريقة التحريك لكل منها أثناء الكلام..

وبعد أن ثبت بالمتابعة العلمية دقة الحواسيب والراسمات الطيفية في التمييز بين الأصوات حتى لو حاول إنسان تغيير ملامح صوته، أو التخفي من خلال وضع مواد غريبة في فمه، أو تغطية شفتيه، أو أنفه أثناء الكلام..

بعد كل هذا ظهرت مجالات كثيرة استخدمت فيها البصمة الصوتية سواء في عالم الاقتصاد والبنوك، أو في عالم المحاكم والأدلة الجنائية، أو في عالم الطب والتعرف على الحالة الصحية للمتكلم، أو حتى في عالم المعارك والحروب:

١-فقد استخدمت البصمة الصوتية في مجال صرف الشيكات. فما على صاحب الحساب في البنك الذي يعمل بهذا النظام إلا الاتصال برقم معين في البنك، وإعطاؤه أوامر صوتية بصرف أو تحويل المبالغ التي يريدها من حسابه، ويسجل البنك الأمر ويدخله في الحاسوب الخاص بالتمييز بين الأصوات ومضاهاتها للتأكد من أن هذا الصوت هو صوت صاحب الحساب.

وهناك نوع من الخزائن الحديدية يعمل بنظام " بصمة الصوت" فلا ينفتح إلا إذا قال له صاحبه عبارة معينة، وغالبا ما تحفظ بهذه الخزائن المجوهرات والأوراق المالية والوثائق الهامة، والأشياء الثمينة.

٢-أما الجانب الثاني للتطبيقات العملية للبصمة الصوتية فهو ميدان القضاء، والتعرف على المجرمين من خلال تسجيلاتهم الصوتية ومقارنتها بأصواتهم.

وقد كان الخلاف شديدا في المحاكم حول مصداقية هذا الدليل، ومدى الثقة في حجيته حينما كان خبير الأصوات يعتمد على حسه السمعي، أو على بعض الأجهزة التقليدية وعلى تدريبه الطويل، ومع ذلك اعتمدت بعض المحاكم المصرية والأمريكية والألمانية والكندية منذ الستينيات على التسجيلات الصوتية حين اطمأنت إلى مصداقيتها، وأصدرت قرارات بالإدانة أو البراءة في حالات التجسس، والرشوة، والابتزاز، وطلب الفدية، والتهديد بالقتل؛ وكلها قضايا تشترك في أن الصوت يشكل الدليل الأساسي للإدانة أو البراءة، لأنها كلها تتم عن طريق الاتصالات التليفونية.

وقد أصدرت محكمة جنح الموسكي حكمها في الجلسة رقم ٢٧٣٣ لعام ١٩٦٢ الصادر في ٤ فبراير ١٩٦٣ الذي قضى بإدانة المتهم، وبتعويض المدعى بالحق المدني، واستندت في حكمها- ضمن ما استندت – إلى الحديث المسجل للمتهم، الذي اعترف فيه بالتهمة، وإلى تقرير خبير الأصوات. وفي منتصف الستينيات أمسكت الشرطة الأمريكية بشاب كان قد أشعل النار في مؤسسة كبيرة، ثم خاطب إحدى محطات الإذاعة قائلا "إنه الفاعل" دون أن يذكر اسمه. وبعد شهور أمسكت الشرطة به، وأثبت الخبراء أنه صاحب المكالمة الهاتفية بعد أن تطابقت بصمته الصوتية في حديثه الهاتفي وحديثه العادي، واعترف المتهم في النهاية بجريمته.

وتضاءل الخلاف أو تلاشى الآن بعد تطور وسائل التحليل الصوتي، واستخدام أجهزة حاسوبية وراسمات طيفية متقدمة، فأصبحت المحاكم تعتمد على رأي خبير الأصوات بنسبة اطمئنان عالية فاقت نسبة ٩٩٪، وإن أثارت إشكالات أخرى تتعلق بمدى

قانونية التسجيل الصوتي لانتهاكه الحرية الشخصية، وقيامه على أسلوب غير مشروع وهو استراق السمع والتَّنَصُّت.

وتعتبر نقطة الانتقال الحاسمة بين عصر الشك وعصر اليقين أو شبه اليقين اختراع جهاز الراسم الطيفي (سبكتروجراف) عام ١٩٧٢ الذي ظهر لأول مرة بولاية ميامي في محاولة للتعامل مع البصمة الصوتية، وقد أوصى مجلس حاكم ميامي رجال القضاء باستخدام البصمات الصوتية كسند قانوني يعتد به. وقد أخذت محاكم ولاية متشجان مثلا بمبدأ البصمات الصوتية وأصدرت أحكامها في ٢٧ جناية عام ١٩٩٩ بإدانة المتهمين على الرغم من عدم وجود أدلة سوى بصمات أصواتهم في هذه القضايا. وبعد هذا تقدمت الأبحاث الصوتية وظهر "علم البصمات الصوتية" عام ١٩٨٢، وكذلك أنشأت ولاية ميتشجان المعهد العالي للبصمات الصوتية. وصارت الدول المقدمة تدخل الحواسيب إلى أجهزة رسم الأطياف (الاسبكتروجراف) لجعل البصمات الصوتية أكثر نقاء.

أما في الدول العربية فقد انعقد أول مؤتمر للأدلة الجنائية في الرياض عام ١٩٨٦ لتطوير التعامل مع البصمة الصوتية، بعد بصمات الأصابع. وفي عام ١٩٨٨ أخذت محكمة أمن الدولة العليا بمصر بتقرير خبير الأصوات في قضية "الناجون من النار" بعد أن أكد الخبير أن الصوت المسجل في الأشرطة للمتهمَيْن فلان وفلان. وهناك أكثر من جهة في مصر الآن تطور منهجا دقيقا للتعرف على صاحب الصوت، منها "إدارة الأدلة الجنائية"، و"المركز القومي للبحوث" وذلك عن طريق استخدام حاسوب رقمي تخزن فيه جملة للشخص متضمنة المقاطع التي لها خواص صوتية أساسية شاملة للحروف الساكنة، والمتحركة، والمدغمة، والوقفية، ثم تقطع وتحول إلى أرقام تخزن في ذاكرة الكومبيوتر. وعند الرغبة في التعرف على صاحب الصوت بين مجموعة أصوات تجرى نفس العملية للأشخاص الجدد، وتتم المضاهاة آليا.

٣-أما في عالم الطب والعلاج، فقد أصبح ممكنا من خلال التحليلات الصوتية معرفة نوع المرض الموجود على الأوتار الصوتية مثل اللحميات، والارتشاحات، وشلل

الأوتار، وعن طريق هذه التحليلات يمكن المساهمة في التشخيص المبدئي، ومتابعة التحسن في أداء المريض أثناء التدخل العلاجي للحكم على فعالية النتائج؛ مثل تقييم وظيفة الصوت باستخدام التحليلات الصوتية قبل إجراء العمليات الجراحية في الأوتار الصوتية، ثم تقييم ذلك بعد الجراحة. ومع استخدام أجهزة التحليل الصوتي يتم اختبار قدرة هذا الفرد على الاستفادة من التدريبات الصوتية، إلى جانب أن الأبحاث التي تجري حاليا تستهدف استخدام هذه البصمة الصوتية في الكشف عن أمراض الصوت والكلام.

٤-وقد كانت التطبيقات في مجال المعارك والحروب أسبق في الوجود من التطبيقات في مجالات السلم. وفي سبق المهندسون العسكريون حين نجحوا عام ١٩٤٣-١٩٤٤ في إنتاج أجهزة للتنصُّت اللاسلكي على الألمان واليابانيين في نهاية الحرب العالمية الثانية. ثم جرى تطوير لهذا النظام بعد الحرب بعامين حين ظهر لأول مرة ما يعرف "بالكلام المرئي"، وأصبح هذا الكلام علما عسكريا يطبق بتوسع وإمكانات هائلة خلال الحروب. ففي حرب يونيو ١٩٦٧ قامت إسرائيل بتوجيه أوامر هاتفية مزيفة إلى قادة بعض التشكيلات المقاتلة المصرية، استخدمت خلالها أصوات قادة مصريين وأسماءهم بهدف توجيه هذه التشكيلات المقاتلة إلى الهدف الخطأ . وشهدت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وحرب تحرير الكويت ١٩٩١ أشكالا أكثر تطويرا في عوالم الاستطلاع التليفوني واللاسلكي، ومعرفة القادة العسكريين من خلال تحليل بصماتهم الصوتية، وهم يتحدثون تحت أسماء منتحلة أو حركية كإجراء تأميني لأشخاصهم، ومهامهم الحربية الموكولة إليهم.

ولا تزال مجالات التطبيق لاستخدام البصمة الصوتية مفتوحة، والسباق العلمي دائرًا على أشده بين الباحثين وعلماء الأصوات لتجاوز نسبة الـ٩٩٪ والوصول إلى درجة اليقين. ولا يزال الاهتمام قائما بإيجاد مجالات أخرى تطبيقية، كاستخدام البصمة الصوتية في التجارة للتمييز بين العملاء، والتعرف على المتحدثين من خلال الهاتف، واستخدامها في الهندسة لتمييز الأصوات غير العادية في الأجهزة والآلات .